التنميّة البشريَّة

(كيف تتحدّى الصِّعاب وتصنع مستقبلًا)

تأليف

أ.د. عقيل حسين عقيل

جامعة طرابلس/ كلية الآداب

2018م

المحتويات

المقدّمة 6

تحدّي الصِّعاب 8

تحدّي المخاطر: 18

صُنع المستقبل:... 20

الشكّ يُحدِث النُّقلة للمستقبل: 30

تحدّي الصِّعاب يجعل من الخوف شجاعة: 35

كيف تُصبح قويًّا:... 40

ارتقاءً الإنسان: 52

القوَّة في دائرة الممكن: 55

تميّز الإنسان قوَّة:... 65

قوَّة الإنسان خُلقًا: 67

المجتمع مكمن القوَّة:... 76

العقل قوَّة: 78

البصر قوَّة: 82

البصيرة قوَّة: 84

الاستماع قوَّة: 86

الإنصات قوَّة: 88

الأحاسيس قوَّة:... 89

الذّوق قوَّة: 91
الحاسّة التامّة:.. 93
النّفس قوَّة: 94
العاطفة قوَّة: 95
كيف تصنع أملًا: 96
كن متهيّأ فالتهيّؤ يقظة: 108
التهيّؤ في مواجهة التهيؤ:.. 112
مكوِّنات التهيّؤ 115
تهيّؤ مادّي نفسي: 115
أركان التهيؤ: 116
- مُهيئ:.. 116
- المهَيَّأ: 116
. مُهَيأ به: 117
مستويات التهيؤ:.. 118
التهيؤ للحدث الخارجي:.. 124
تهيؤ الأشياء: 126
امتلك الإرادةُ: 129
الإرادة قوَّة:.. 134
القرار قوَّة إرادة:.. 137

كلّ شيء يقرّر إرادة: 138

الاستعداد حيطة: 141

الاستعداد الذهني: 143

الاستعداد النفسي: 145

الاستعداد البدني: 146

الاستعداد إعداد وعُدّة: 147

التأهُّب فطنة: 154

تفطّين الذّاكرة: 160

ولّد من الفكرة فكرة: 166

الفكرة تلد حلًّا: 177

تحدّي الصِّعاب رغبة وتطلُّع: 183

تحدّي الصِّعاب يحدث النُّقلة: 191

تحدّي الصّعاب يمكِّن من معرفة المجهول: 197

كيف تُنجز الأهداف: 200

كيف تحقّق أغراضك: 207

الغرض ارتقاءً تجاوز دونيَّة: 213

تحدّي الصّعاب يُمكّن من بلوغ الغايات: 217

تحدّي الصّعاب يمكّن من نيل المأمول: 223

نيل المأمول: 229

تحدّي الصِّعاب يمكّن من بلوغ الخوارق:.. 235
كيف تتأهّب لتحدّي الصِّعاب: 241
تحدّي الصِّعاب يرسّخ المكانة: 246
تحدّي الصِّعاب يُكسر القيود: 252
تحدّى الصِّعاب تتجاوز الدُّونية:... 265
صدر للمؤلّف 272
المؤلّفات... 273
المؤلّف في سطور 286

المقدّمة

التنمية البشرية تنمية رأس مال وطني على مستوى الأفراد والجماعات والمجتمعات، وهي: تحويل الحيويّة إلى عمل منتج، بها الزّمن يطوى من مستقبلٍ مرتقب إلى مستقبل متحقّق.

ولأنَّها تنمية بشريّة فهي لا تغفل عن معطيات الحاضر ومتغيّراته دون أن تتوقّف عندها وكأنَّها النهاية، منه تنطلق وفقًا لأهداف واضحة ومحدّدة إلى غايات من ورائها آمال رفيعة.

إنَّها الاهتمام بقيمة الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وهي لا تكون إلَّا به، ومن أجله، إذ لا أولويَّة قبل الاهتمام بالإنسان علمًا وصحّة ومعرفةً واقتصادًا، وسياسةً واجتماعًا وثقافةً.

والسُّؤال:

هل الطرق ممهّدة للسير في سُبل التنمية البشريَّة؟

أقول:

لا تمهّد السُّبل إلَّا بجهود أهدافها:

أوَّلًا: التطوّر.

ثانيًا: التطوير.

ثالثًا: صنع المستقبل.

رابعًا: إحداث النُّقلة.

خامسًا: بلوغ الغايات.

سادسًا: نيل المأمول والفوز به.

ولهذا؛ لم يكن أمر التنمية البشرية سهلًا، وهذا يعني لم يكن مستحيلًا، أي: إنَّه ممكنًا؛ ولأنَّه ممكنًا وجب العمل الذي به تطوى الهوة بين الأمل ولآمل (بين الرَّغبة والطموح)، ومن ثمَّ؛ بين الحاجات المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

وعليه:

فالصّعاب لا تعد مخيفة، بل المخيف ألَّا يتم الاقدام على تحدّيها عملًا مع وافر الإرادة الممكّنة من التخطيط، ورسم السياسات والاستراتيجيات العريضة.

ولذا؛ فعلى الإنسان أن يتهيّأ إلى الاقدام على ما يمكّن من صنع المستقبل وإحداث النُّقلة التي بها تتحقّق الرّفعة.

أ.د/ عقيل حسين عقيل

القاهرة 2018م

تحدّي الصِّعاب

التحدّي: تمدّد حيويّ يحفِّز العقل والنفس على الظّهور عملًا وسلوكًا، مما يجعل الطَّاقة المنبعثة في البدن ناهضة، وملفتة للمشاهدة والملاحظة من خلال قبول المواجهة مع المعيقات والصّعاب، وقبول تحدّيها حتى تُهزم وتُقهر.

فالتحدّي قرار مسبق مع وافر التهيؤ والإرادة، من أجل مستقبل أفضل، فيه تهزم الحاجة، ويتحقّق الإشباع المرضي والمحفّز على مزيدٍ من التحدّي الممكّن من بلوغ الغايات ونيل المأمولات.

ولذا؛ فالتحدِّي يمكّن من المواجهة والمغالبة حتى وإن كان مع المرض والألم، إنَّه يُدخِلُ المتحدّين ميادين المنافسة سواء أكانت ميادين سياسيَّة، أم اقتصاديَّة، أم اجتماعيَّة أم إنَّها علمًا وعملًا.

والسؤال:

لماذا التحدِّي؟

أقول:

_ لأجل إنجاز الأهداف.

_ لأجل تحقيق الأغراض.

_ لأجل بلوغ الغايات.

_ لأجل نيل المأمولات.

ولهذا فالتحدِّي يصنع المستقبل، ويمكّن من التفوّق، ويبني حضارة عندما يصبح التحدِّي عملًا مجتمعيًّا من أجل الأهم والأجود والأفيد والأنفع قيمةً.

وعليه: فإنَّ الصِّعاب تستوجب مزيدًا من الجهد لتحديها دون أن تكون مستحيلة التحقّق؛ فهي التي تواجه من يعمل ولا تواجه الكسالى، وهي التي لا تصمد أمام المتحدّين صبرًا وثباتًا مع بذل الجهد الممكّن من إنجاز الأهداف، أو تحقيق الأغراض، أو بلوغ الغايات ونيل المأمول أو الفوز به، ولا مستحيل في دائرة الممكن حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصِّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاءً؛ فالصِّعاب إن لم تداهم ارتقاءً، لا بدَّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصِّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملًا راقيا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاءً، فإنَّه لا ارتقاءً لخرق المستحيل، فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصِّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدِّي الصِّعاب) أمّا الاستثناء: (الاستسلام لها).

ولأنّ الممكن ارتقاءً يُمكّن من تحدّي الصِّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه، ومن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

ولذا؛ فالتهيّؤ لتحدي الصِّعاب يُمكّن من أداء العمل ارتقاءً؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل تحدّيًا تُرسم أيضًا لمقاومة المعيقين له؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون لارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر

تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيدهم على الزّناد مرتعشة، وهنا تكمن العلّة.

ومن تهيّأ واستعد لتحدي الصِّعاب وأقدم عليها فليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيها، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عمليَّة التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاءً لا استحالة فيه، فإنَّه إن لم يعقب التهيؤ استعداد؛ فلا إمكانية، حيث لا إرادة، ولذلك؛ فإنّ غياب الإرادة يغيّب كلّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانية لتحدي الصِّعاب؛ أي: لا تحدٍّ بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وأن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

وعليه:

إذا أردت تحدّى الصِّعاب فعليك:

ـ أنْ لا تحصر التفكير في شؤونك أو شؤون الغير الذي تربطك به علاقة وأهمية على المتوقّع فقط، بل تجاوزه إلى ذلك غير المتوقّع حتى وإن كان صعبا.

ـ تأكّد أنّ الصّعب لا يستطيع المقاومة إذا تحصّنت له متحدّيا.

. اصّمد فالصّعب لا يصمد. أي: عليك أن تعرف أنّ ما يبدو صعبا للبعض لا يبدو كذلك لدى البعض الآخر؛ ولهذا عليك بقبول التحدّي حتى تهزمه كما غيرك هزمه.

. الصّعب لا يزيد عن كونه حيويّة؛ فينبغي له أن يواجه بها ولا يواجه بغيرها. أي: لا يمكنك أن تهزم خصما وأنت لم تمتلك ذات السّلاح الذي يمتلكه تقنية. ولكن عندما تمتلك ذات السّلاح؛ فليس له بدّ إلّا أن يقدّرك صلحا وتصالحا وعفوا {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}1.

. مواجهة الصّعب لم تكن مستحيلة، ولأنّها ممكنة فَلِمَ لا يواجه إلّا من البعض؟

أقول:

لأنَّ البعض دائمًا أفضل من البعض، أي: دائمًا الواعون والصّابرون والمؤمنون بأنّ الحقّ يُحقّ يعملون على إحقاقه تحدّيا وقهرا للباطل.

. الصّعب على علاقة بالباطل من حيث إنّه لا يصمد إذا ما حدثت معه المواجهة؛ ولهذا الصّعب يقهر والباطل يبطل، ولكن لا يكون ذلك إلّا على أيدي الصّامدين.

. اقبل بدفع الثمن جهدا ووقتا وإمكانات تنل أضعافها مكاسب وفوائد متى ما استسلم لك الصّعب قهرًا.

. تحدَّ الخوف الذي يقنعك كسلا، فاعمل وابذل المزيد من الجهد تجد نفسك منتجا، وفي المقابل إن استسلمت له فستجد نفسك متسولا مع المتسولين على الأرصفة وبين الأزقة.

---

[1] الأحزاب 25.

. أهّب نفسك للعمل تجد العمل بين يديك، وأهّب نفسك للتحدّي تجد نفسك متحديا، وأهّب نفسك لمواجهة الصِّعاب تجد الصِّعاب مستسلمة.

فالتأهّب لتحدّي الصِّعاب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء عن عزيمة بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاءً أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء في مشيئة الله تعالى.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل الصّعب ارتقاءً لا بدَّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّة فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجئات في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر عند تحدّي الصِّعاب ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النَّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، حتى تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحا مساندا، ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاءً بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدون إليها، ويتأهبون لتحدي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية بعد أمل.

ومن هنا، تعد الصِّعاب مجموعة من المعيقات التي لا يتمُّ تجاوزها إلّا بالإزاحة، أي: لا إمكانية لإنجاز الأهداف، وتحقيق الأغراض، وبلوغ الغايات، ونيل المأمولات ما لم تزاح العوائق من السبيل المؤدّي إلى ذلك.

ولأنّها عوائق؛ فهي قابلة لأن تزاح، ولأنّها قابلة للإزاحة، فلا داعي للانتظار، ومن يتأخّر عن إزاحتها في شبابه، سيجد نفسه متأخرا عمّن أزاحوا

مثيلاتها وتقدّموا، والصِّعاب لا تخيف، بل المخيف عدم الإقدام على تحدّيها. ومع ذلك فالصِّعاب لا تواجه الكسالى، بل تواجه المتطلّعين لصنع المستقبل، فالصِّعاب إن لم تداهم تحدٍّ، تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصِّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملًا راقيا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، والتهيّؤ للعمل المنتج يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب، ومن ثمّ فالتهيؤ لبلوغ المأمول يؤدّي إلى نيله.

ومع أنَّ الممكن ارتقاءً لا استحالة فيه، فإنَّه إن لم يعقب التهيؤ استعداد فلا إمكانية؛ ولذلك فإنّ غياب الأمل يغيّب كلّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانية لتحدي الصِّعاب؛ أي: لا تحدّ بلا أمل وإرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وأن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ المأمول والفوز به.

وعليه:

إذا أردت تحدّى الصِّعاب أملًا فعليك بالآتي:

. أنْ لا تحصر التفكير في شؤونك أو شؤون الغير الذي تربطك به علاقة وأهمية على المتوقّع فقط، بل تجاوزه إلى ذلك غير المتوقّع حتى وإن كان صعبا.

. تأكّد أنّ الصّعب لا يستطيع المقاومة إذا تحصّنت له متحدّيا.

. أصْمد فالصّعب لا يصمد، وعليك أن تعرف أنّ ما يبدو صعبا للبعض لا يبدو كذلك لدى البعض الآخر؛ ولهذا عليك بقبول التحدّي حتى تهزمه كما غيرك هزمه.

. الصّعب لا يزيد عن كونه حيويّة؛ فينبغي أن يواجه بها ولا يواجه بغيرها. أي: لا يمكنك أن تهزم خصما وأنت لم تمتلك ذات السّلاح الذي يمتلكه تقنية. ولكن عندما تمتلك ذات السّلاح؛ فليس له بدّ إلّا أن يقدّرك ويحترمك ويعترف بك مساويا له على كفّة العدالة.

. مواجهة الصّعب لم تكن مستحيلة، فَلِمَ لا يواجه إلّا من البعض؟

أقول:

لأنَّ البعض أفضل من البعض، أي: دائمًا أصحاب الآمال العريضة والواعون والصّابرون والمؤمنون يواجهون التحدي بتحدٍّ.

. قبل بدفع الثّمن جهدا ووقتا وإمكانات تنل أضعافها مكاسب وفوائد متى ما استسلم لك الصّعب قهرًا.

. تحدَّ الخوف الذي يقنعك كسلا أو يخالجك جبنا، فاعمل وابذل المزيد من الجهد، وفي المقابل إن استسلمت فستجد نفسك متسوّلا مع المتسوّلين على الأرصفة وبين الأزقة.

. أهّب نفسك للعمل تجد العمل بين يديك، وأهّب نفسك للتحدّي تجد نفسك متحدّيًا، وأهّب نفسك لمواجهة الصِّعاب تجد الصِّعاب مستسلمة.

ولذلك؛ فالغاية بعد معرفة الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ الأمل رفعة، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، لكنّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاءً بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدون إليها، ويتأهبون لتحدي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات ومن بعدها نيل المأمول. ولكن وفقًا لدائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) كلّ شيء قابل لأن يتغير كلّما توافرت معطياته أو اشتراطاته والرّغبة من ورائهما حافزٌ ودافعٌ.

ولذلك فتَوفُر الرّغبة في دائرة الممكن المتوقّع يُسهِّل من عمليات الإنجاز، ويُسرّع من عمليات الإقدام ويحقّق نجاحا رائعا، أمّا في دائرة الممكن غير المتوقّع فقد لا يحقّق ذلك، فعلى سبيل المثال: الشّاب الذي ذهب إلى أحد حكماء الصّين ليتعلَّم منه سرّ النّجاح وسأله "هل تستطيع أن تذكر لي ما هو سرّ النجاح؟ فرد عليه الحكيم الصيني قائلا: "سرّ النّجاح هو الدّوافع" فسأله الشّاب ومن أين تأتي هذه الدّوافع؟ فردَّ عليه الحكيم "من رغباتك المشتعلة"، وباستغراب سأله: وكيف تكون عندنا رغبات مشتعلة؟ وهنا استأذن الحكيم الصّيني لعدّة دقائق وعاد ومعه وعاء كبير ملئ بالماء وطلب من الشّاب أن يقترب من وعاء الماء وينظر فيه، فنظر الشّاب إلى الماء عن قرب وفجأة ضغط الحكيم بكلتا يديه على رأس الشّاب ووضعها داخل وعاء الماء ومرّت عدة ثوانٍ بدأ الشّاب يشعر بالاختناق، وبدأ يقاوم بشدّة حتى نجح في تخليص نفسه وإخراج رأسه من الماء ثم نظر إلى الحكيم وسأله بغضب: ما هذا الذي فعلته؟ فرد عليه: ما الذي تعلّمته من التجربة؟ فقال الشاب: لم أتعلم شيئا.

قال الحكيم: لا يا بني لقد تعلّمت الكثير؛ ففي الثواني الأولى أردت أن تُخلِّص نفسك من الماء، ولكن دوافعك لم تكن كافية لعمل ذلك، وبعد ذلك كنت دائمًا راغبا في تخليص نفسك فبدأت في التحرُّك والمقاومة ولكن ببطء حيث إن دوافعك لم تكن قد وصلت بعد لأعلى درجاتها، وأخيرا أصبح عندك الرّغبة المشتعلة لتخليص نفسك وعندئذ فقد نجحت.

ومن هنا، وجب غرس الثقة في أنفسنا ثمّ استمداد القوّة منها إن أردنا بلوغ المأمول، وإلّا سنكون ضعفًاء ولا شيء لدينا إلّا الأمنيات التي لا يمكن أن تصنع لنا مستقبلًا. ولهذا لا ينبغي لنا أن نغفل عن:

. تهيئة الاستعدادات النفسية والبدنية والمالية لما هو متوقّع ومأمول ولما هو غير متوقّع حتى لا تحدث المفاجئة.

. غرس الثّقة في النفس؛ حتى يتم التمكّن من تحدي الصِّعاب.

. تحديد الأدوار الواجب لعبها؛ لتحقيق الأهداف المحددة من قبل المجتمع أو مؤسساته أو هيئاته وجمعياته.

. غرس الثّقة في نفس الفرد وفي القيم الاجتماعيَّة الموجبة.

. غرس الثّقة في أنفس الجماعة من خلال المشاركة الفعّالة في إعداد البرامج والمشاركة في تنفيذها والقيام بها.

. تنمية قدرات أفراد الشعب كلّه وغرس الثقة بينهم؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق أهدافهم الاجتماعيَّة والسياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية والذوقية وفقًا للخطط والاستراتيجيات المرسومة.

. تهيئة استعداد الأفراد والجماعات لما يجب والتطلّع بهم إلى ما يُحدث النُّقلة.

. غرس الثقة في أفراد الشعب من خلال مؤسّسات الدّولة، دون الإغفال عن مشاورتهم فيما يتعلّق بهم من أمر، وأخذ وجهات نظرهم تجاه المستقبل الذي يأملونه أو يتطلعون إليه.

. تنمية قدرات الأفراد والجماعات مع مراعاة أصحاب الحاجات الخاصّة وتأهيلهم وتدريبهم ورعايتهم مع دراسة حالاتهم وتوظيفهم كونهم مفردة من مفردات المجتمع المستهدف صُنع مستقبله.

. تقوية الإمكانات المادّية وتدعيمها بالمعلومة والمعرفة الواسعة المساندة للتطوّر والتقدّم واستثمارها فيما يفيد.

. تحفيز أفراد الشعب على المشاركة الفعّالة، ودفع مؤسّسات الدّولة إلى الإقدام على ما يفيد وينفع خدمة وإنتاجًا.

. استثمار الإمكانات البشرية والمادّية في تحسين أحوال الأفراد والجماعات وتحسين أحوال البيئة.

. إشعار أفراد المجتمع بأهمية المشاركة الاجتماعيَّة في اتخاذ القرارات وتنفيذها وتقويمها من الانحراف.

. حث الأفراد على الاستفادة من الإمكانات المتاحة والبحث عن إمكانات أخرى أو إمكانات بديلة في حالة نقص الإمكانات أو شُحِّها، واستثمار ما يتوفّر منها إلى أقصى درجة ممكنة، تحقيقا لعمليات التغيير الموجب.

. تأكيد أهمية المشاركة ودورها في بناء الثقة بتحريض الأفراد على ممارستها من أجل تأكيد منطق (النّحن) المستوعب للأنا والآخر حتى تتضاعف القوَّة ويزداد العطاء وتعم المكاسب ويتم نيل المأمولات.

. دفع الأفراد والجماعات وهيئات الدولة ومؤسّساتها إلى استيعاب الجديد والعمل على تطويره.

. الإصرار والتصميم على إزالة الشكّوك والمخاوف وكلّ ما من شأنه أن يجعل المواطن في حالة خوف أو قلق بأمل يحفّزه ويدفعه إلى المشاركة في صناعة المستقبل.

. تمكين الأفراد من إدارة شؤون حياتهم بإرادتهم الحرّة دون أيّ إكراه أو إجبار وغرس الثقة في أنفسهم وفي مقدرتهم على إدارة ما يتعلّق بهم من أمر مع إرشادهم لِما يفيد عمليات الاستثمار للإمكانات المتاحة، وتعريفهم بأساليب البحث عن البدائل كلّما دعت الضّرورة لذلك؛ ولهذا فكلّ ما لم يكن مستحيلا ممكنٌ، وكلّ مستحيل مثبت وهو الذي نعلمه ولا نعرفه، فعلى سبيل المثال:

. نعلم يوم الحساب ولكنّنا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك.

. الشمس تشرق وتغرب ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله.

. القمر تعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنها.

. الموتى لا يعودون إلى الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا.

. المستحيل مع أنّه موجود ولكنّه لا ينفى كغيره من الموجودات في دائرة الممكن، فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم السبت فإنَّ الأحد سيأتي غدا وفقًا لعلمنا، ولكن عندما يقع المستحيل فقد لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه. إنّه الشيء الخارج عن دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا؛ ولذا فكل من الممكن والمستحل يحدثان وفقًا لتوقعاتنا، ولكن الممكن يتحقّق بأيدينا والمستحيل ما لم تستطع أيدينا على فعله، أي: المستحيل نتوقّعه ولكن وقوعه من خارجنا، أمّا الممكن فنتوقعه ويحدث داخلنا[2].

تحدّي المخاطر:

التحدّي لا يكون إلّا للمخاطر وما يخيف؛ وذلك بغاية بلوغ ما يطمئن ونيل المأمول؛ ولهذا فالكلمةُ مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوكٍ يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل ارتقاءً (بناء وإصلاحا وإعمارا مع ارتقاءً الأخلاق قمّة)، والعمل ارتقاءً هو إنشاء الشيء من الشيءٍ، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعا، والفضائل والقيم من ورائها إنقاذا.

[2] عقيل حسين عقيل، الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 14.

ولأنَّ الأمم والشّعوب التي تقدّمت لم تتقدّم إلّا بالعمل؛ فَلِمَ لا يقدِم المتأخّرون عنهم على العمل الممكّن من طي الهوة بينهم والمتقدِّمين الذين ارتقوا علمًا وتقنيةً وحُسن إدارة؟

ولأنّ التحدّي لا يكون إلّا عملًا؛ فينبغي لمن يرغب التحدّي ارتقاءً أن يَقدِم على العمل النّافع، وينبغي أن يجوِّد منتجاته؛ لتكون منافسة لمنتجات الغير؛ لأنّ المنتجات غير المنافسة لن تجد لها مكانا في أسواق المستهلكين.

وهذا يعني: إن لم تَقدِم الشّعوب وبكلّ طاقاتها على العمل المنتج والمبدع فستظل متخلّفة وتابعة لمن يمتلك القوَّة المنتجة ويسيطر على السّوق، وقد تصبح مدانة بما لم تستطع تسديده، وهنا ستجد نفسها أمام خيارات قد لا تكون محمودة، ويومها لن ينفع الندم.

فالعمل تحدٍّ يجعل المكانة لمن لم تكن لهم مكانة، فمن رغب مكانة ويأمل تبوأها فعليه بالعمل المنتج ويحرّض من تربطهم به علاقة على العمل تحدٍّ؛ لتكون المكانة للجميع، {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ}[3].

العمل تحدٍّ يصعد بأصحابه من تحت الصّفر إلى الصفر تحدٍ دون أن يتوقّف عنده أملًا، بل يتجاوزه بالعمل حتى يصعد إلى القمر، ثم يتجاوز القمر لكونه لم يكن النهاية، فيغزو الفضاء اكتشافا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاءً من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبيَّاء عليهم الصّلاة والسّلام؛ فمن أخذ بها ارتقاءً أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة الأمجاد.

[3] الأنعام 135.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، فإنَّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء، ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه تحدٍّ.

إنَّ الإنسان لو لم يكن مؤهلا للتحدّي، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء وهو يأمل في المزيد ارتقاءً، ولأنّ حاجات الإنسان متنوّعة ومتطوّرة؛ فهي إن لم تواكب من قِبله بالعمل تحدٍّ تصبح ضاغطة عليه ألما شديدا فعليه بالعمل وتحدّي الصِّعاب، ولا يخش شيئا سوى الحقّ الذي يمكّنه من التقدّم والنّهوض وتحقيق الرّفعة والمكانة قمّة[4].

صُنع المستقبل:

المستقبل ليس ذلك الزَّمن المنتظر في ذاته، بل هو ذلك المأمول الذي لا يتحقّق إلَّا فيه؛ ولهذا فالمنتظرون للزّمن في ذاته لا شكَّ أنّ ما ينتظرونه سيكون متحقّقًا، ولكن بلا آمال؛ لأنّه الزّمن المنتظر، وهذا الذي نحن نخشاه وفي شأنه نقول:

لا ينبغي أن تنتظروا الزّمن، بل عليكم بانتظار ما تأملون أن يكون تتويجًا لما تبدلونه من جهد تكون ثماره إنتاجًا بين أيديكم في الزّمن المنتظر (المستقبل).

المستقبل زمن لم يأت بعد، وهو الذي ترسم الخطط وتوضع الاستراتيجيات من أجل بلوغه عملًا وإنتاجًا ونهضةً وتقدّمًا، ممّا يجعل الزّمن ليس غاية، بل الغاية تفادي ما يمكن أن يكون فيه حاصلًا سلبيًّا.

[4] عقيل حسين عقيل، خريف السلطان (الرحيل المتوقع وغير المتوقع) شركة الملتقى، بيروت، 2011م، ص 175 . 181.

والمستقبل غير منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة التأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول ارتقاءً، وهو الذي بدونه لا يجد الأمل حلًّا.

ولأجل النّهوض ارتقاءً، وجب المزيد من البحث العلمي الممكِّن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول والأمل، وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلًّا بعد تأزّم؛ فالبحث العلمي ارتقاءً يستوجب أسلوبًا مرنًا، وطريقة تستوعب التاريخ تجربة ومنهجًا ووسيلة.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ فليس له بدّ إلّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناءً، وبأيّة علّة؛ فليس له إلّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضًا؛ والإنسان بين قاعدة واستثناء لا ييأس؛ ولهذا وجب العمل الذي يمكّن من بلوغ الغايات العظام التي يأملها؛ فالإنسان متى ما فقد الأمل فقد المستقبل المنقذ.

ولأنَّ الانحدار بين قاعدتين: (حُسن الخَلق، وضرورة الارتقاء)؛ فهو باق مادمنا باقين، وله الثلث في حياتنا من المورث انحدارًا، ولهذا؛ فلا داعي للقلق بما أنّنا نرث الثلثين (خلقًا وارتقاءً)، ولكن هذا لا يعني: أن نظل كمن ترك له أبوه إرثًا ولم يستثمره؛ فانتهى صفرًا.

ولأنَّ لكلّ قاعدة شذوذ؛ فلا إمكانية لبلوغ الحلّ كمالًا؛ فتلك الجهود عبر التّاريخ، وهذه الجهود، ستتلاقح ارتقاءً بغاية إنتاج الفِكْر الممكِّن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولأنّ الارتقاء رغبة وأمل؛ فسيظل أملًا يسعى في الزّمن المستقبل نهوضًا وهو لا يُمكن أن يلاحق إلّا بالعمل إنتاجا وإعمارا وبناء وبحثا علميا، مع الاهتمام بالقيم التي تنال التقدير من النَّاس.

إنَّ التفكّر في المستقبل يمثل الامتداد الطبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، وله أهمية كبيرة في البناء المرتقب الذي يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الاستراتيجية التي وضعت له اللبنات الأولى، فالمستقبل يعدّ الأرضية الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، وبذلك يكون التفكّر عنصرًا مهمًّا في خلق مستقبل موافق لكلّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدّمًا نحو التفاضل والوصول إلى الدّرجة التي تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندًّا لها.

ولا يكون التفكّر منزويًا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة للتأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناؤه دون النّظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلًا في كلّ التوجهات، وتكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدّها بما يسمح لها بالسعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيِّ انكفاء، بل تكون الأمور عامّة سائرة نحو تشابك منظم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعلية تثري التفكّر وتمنحه أبعادا مختلفة ومهمة، وهنا يكون الإيضاح سمة مطلوبة كي يكون الاتساع المرافق ملبّيا للادراكات الحاصلة، فتحصل بذلك شموليَّة مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكّر.

ومع ذلك فالمستقبل يكتنفه في بعض الأحيان غموضًا معيّنًا يسير في مدارات قد تبدو للوهلة الأولى غير منضبطة وفق الرؤيا المطروحة، وهنا يكون

الاستشراف حالة ملبّية للكثير من الطموحات وحتى التداعيات التي تخلف انفراجا وإن كان وقتيا إلّا أنّه قد يكون سببًا في حلّ الكثير من المتعلقات المفترضة، كما أنّ التشكيل العام لهذه الرّؤى يكون مطويًّا خلف إزاحات دائمة تريد أن تجد لها مكانا بين الحضور الحاصل، إلّا أنّ مكمنها قد لا يبدو واضحا نتيجة البعثرة التي تحصل في بعض الأحيان، وهنا تنبري لنا مسألة مهمة ألا وهي التنظيم المطلوب ضمن هذه الصيرورة، إذ يحتّم المكوث عند هذا التنظيم وجعله منهجا يكمن فيه التحقّق المطلوب، ويكون الحذر حاضرا في هذا التنظيم بطرق متباينة؛ فالحذر يقف عند كلّ النقاط المهمّة التي يكون من ورائها الوصول إلى الامتدادات المستقبلية المطلوبة؛ فتكون الآليات المطروحة تسير وفق اتجاه يكتنفه الحذر وفق كلّ التفصيلات المتاحة، وهذا الأمر يسهم بشكلّ أو بآخر في إيجاد نتائج واضحة المعالم يُرى فيها معالم الحذر في كافة جوانبها؛ فيكون الظهور المتحقّق وفق هذا التفكّر ملبيا للبداية التي طرحت كلّ ما من شأنه كي يصل التفكّر إلى هذه المرحلة وما بعدها ارتقاءً.

وينفتح الحذر على كلّ الأزمنة، وهذا من باب الاتساع المطلوب كي تكون الصورة المطلوبة واضحة وملبّية لكلّ التغايرات التي يمكن أن تحصل فالارتباط المطلوب يغرس في كلّ خطوة من الخطوات اتكاءات جديدة يكون مبعثها متزامنا مع التفصيلات التي يكمن فيها الحذر من أجل تحقيق مستقبل أفضل، وهذا يسير بوتيرة إفضائية تتحكّم بشكلّ ينمّ عن وجود ارتباط فعلي بين هذه الامتدادات الثلاث، ولأنَّ النّهاية مفتوحة سيبقى الحذر مفتوحا ولا يتقيد بأيّ قيد يمكن أن يكفّه عن تحقيق فاعليته؛ فالنّهاية المفتوحة تكون حافزا على خلق استمرارية في البحث تتّجه دائمًا نحو شمولية يتّسع مداها كي تكون متجاوزة لكلّ الأساليب التقليدية التي تكتفي بالبقاء عند عتبات تجد أنّها تمثّل النّهاية التي يجب أن تكون، وهذا الأمر بطبيعته مخالفا للحياة التي نعيشها؛ فهي

قائمة على استنهاض مستمر، وبحث مستمر والأمل لا يفارق، فالتوقّف أو الانكفاء سمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، لأنَّ البقاء ضمن هذه الأطر يخلق ارتباكا وفوضى معرفية لا تكون نتائجها محمودة أبدا، وفي المقابل تفطين الذاكرة لاحتواء ما يُنتج عبر الزَّمن ماضيا وحاضرا، يقود بسلام إلى تطلّع مأمول لا يتحقّق إلّا بالعمل في دائرة الممكن مستقبلًا.

ونحن إذ نشير إلى هذا التعالق فهو من باب أنّ التفكّر لا يمكن له أن يكون سائرا بالاتجاه الصحيح دون أن تكون له قاعدة يتكأ عليها، تمدّه بكلّ ما يمنحه من امتدادات مختلفة سواء أكانت نظرية أم عمليَّة؛ فتوجه الحذر يكون متماشيا مع هذه الامتدادات كونها تتوافق معه فيسمح لها بالمثول عند أيّ ارتكاز تريده.

وعليه يكون التفكّر واقعا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له، فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه، وإن كان الأمر ضمن دفعات تتابعية إلاّ أنّه لا يخلو من إرهاصات قد تكون متواجدة بشكلّ لا يكون من ورائها انزياحات كبيرة، وهنا يكون الحذر من أجل صناعة المستقبل المأمول متغلغلا في كلّ الجوانب التي تريد أن تقف عند أعتاب كلّ التشكيلات التي يكون من ورائها البناء المطلوب، لأنّ هذه الصّفة بلزوميتها تواكب الحاصل الذي لا يسير معها، بل هي تسير معه، وهنا تكون عظمة المرافقة التي تمنح التفكّر أبعادا مهمة تساهم بفاعلية كبيرة في خلق مستقبل غير مسبوق، لأنّ السّابق متحقّق بكلّ ما فيه أمام المستقبل الذي يسعى نحو التفاضل والتمايز، فتتحقّق بذلك الافتراقات التي تخلق بناءًا مغايرًا مبنيًّا على تشعبات استبطانية وجدت في الماضي والحاضر البداية التي لا يمكن أن تكون ثابتة، بل هي موجّه نحو إيجاد البدائل أو إيجاد الجديد الذي يكمن فيه التغاير والتباعد عن نقاط الالتقاء التي تكون ملبّية للتساوي الذي يجب ألاّ يكون.

إنَّ التفكّر في المستقبل يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل يكمن فيها النّهوض المأمول الذي يمنح النَّاس جميعًا حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع كونه يرتبط بأخذ الحيطة والحذر؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابية المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتا، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيًّا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزا مهمّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائمًا إلى وجود خروقات طبيعية وغير طبيعة تخرج عن نطاق المتعارف أو الطبيعي الذي يجب أن يكون؛ فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود من أجل بلوغ مستقبل أنفع، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرا يمنح الإنسان وعيا مستمرا أيضًا، ذلك أنَّ تكرار المنبهات يحيل إلى زيادة في الوعي المتحقّق؛ فيكون الخزين العام منساقا نحو هذه الزيادة التي يُرى فيها إضافات جديدة على المساحة الفكرية المطروحة؛ فيكون الاغتناء الفكري قد وجد له تمويلا مستمرا يمنحه ما يشاء، وبتفصيلات تلهمه المتابعة التي يجد فيها كلّ ما هو جديد وكلّ ما هو بديل للحاصل[5].

وعليه:

لا يمكن أن يُصنع المستقبل إلّا بالتفكّر، ولهذا فعلينا به تخطيطا، مع السّماح للبحاث بالتفكّر حتى بلوغ الخوارق، وبلوغ المعرفة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا، ومن معرفة المعجز معجزا، ومن معرفة الممكن ممكنا حتى وإن كان غير متوقّعا، ولهذا فصناعة المستقبل المأمول تمكّن من معرفة المجهول وكشف خفاياه.

[5] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 131 . 135.

ولأنّ الحياة من أجل المستقبل؛ فنحن بني آدم نتعلّم، ونبحث عن فرص عمل، ونتزوج، ونصادق من يصادقنا، وعندما نتعرّض لسوء التكيف قد نُطلق عند الضّرورة، وعندما تقوى علاقاتنا نُشرّع، ونسنّ القوانين والنّظم، ونحدّد الأهداف ونرسم الخطط، ونتطلّع بأمل إلى المستقبل القريب والبعيد، ولهذا نصوم ونصلي من أجل نيل المستقبل جنّة.

ولذا فالقاعدة هي:

العيش من أجل المستقبل.

والاستثناء هو:

العيش من أجل الآن.

استنهاض الخوف صناعة للمستقبل:

يكمن الخوف في النفس الإنسانية، لكن هذا الكمون لا يكون مستديما أو حالة تكون أشبه بالمكوث الذي لا يرى بزوغه أبدا، ذلك أنَّ المثيرات الخارجية تسعى دائمًا إلى يقظته في تشكيلات متعدّدة ومتنوّعة، فيكون ظهور الخوف ضمن حالة متفاوتة بحسب المثير الذي يستفّزه، هذا الأمر يكون تحقّقه ضمن آنيّة مفترضة يكون حصولها بعد امتدادات واضحة المعالم، يُرى فيها كلّ التمركزات المطلوبة، والتي يكون من بعدها التوجّه العلاجي قائم من خلال مثول الخوف وراء كلّ ما يحصل.

إنَّ هذا الانفتاح في المعالجة قائم على آنيّة تكون محدّدة الحدود واضحة التفاصيل، ومن الممكن الوقوف على كلِّ ما من شأنه أن يكون الحلّ فيه ظاهرا سواء أكان مادّيا أم معنويا؛ فتكون المعالجة سريعة، لكنّها لا تخلو من أخطاء متفاوتة قد تكون قليلة في بعض الأحيان، إلّا أنَّها قد تتّسع في أحيانا أخرى لتصل الأمور في بعضها إلى وجود خروقات غير منطقية، تجعل الكثير من الحلول

في المستقبل في مهبّ الرّيح، هذه الآنيّة ساهمت بشكل أو بآخر في استنهاض الخوف من خلال رسم حجم المخاطر وتبيان ما فيها من تفصيلات تعينه على إيجاد حلول يكون من خلالها الوصول إلى نقاط التقاء فعليّة تكسب الزَّمن أوَّلًا، وتخرج الوضع الحرج أو الخطر إلى وضع آخر أفضل ثانيا، إلّا أنَّ الوضع الأفضل يكون وفق مقاييس غير ثابتة، إذ تكون هذه المقاييس تابعة إلى مجمل العوامل التي التفّت حول الخوف، ومنحته هذا الاستنهاض الذي كان سببا فاعلا في الوصول إلى النتيجة الحالية التي هي في كلّ الأحوال منقادة للبداية الأولى التي كانت قاعدة الانطلاق.

يسير الخوف باتجاهات واضحة المعالم حين يكون الاستنهاض مبنيا على أسس علمية، تتّسع مراحلها نحو إيجاد توافقات بين الحدود المفتوحة التي لا يُرى فيها في كثير من الأحيان إلاّ ابتعادا عن المركز المفترض، هذا المركز يكون من خلاله طرح ما يمكن طرحه وإعداد ما يمكن إعداده، ولهذا لا تكون البداية مفتعلة بأيِّ حال من الأحوال، لأنَّ الافتعال لا يولِّد في المستقبل إلّا أخطاء جسيمة، ونحن إذ نرى في البداية أنّها يجب أن تكون مبنيّة على اتساعات علمية مختلفة تلملم المطروح وتدخله في سياقات حقيقية وافتراضية، فتمنحه بذلك مديات متباينة يكون على أساسها الوصول إلى الاتكاءات التي يكون من ورائها الوقوف على الحلّ، والذي يكون من ورائه تفادي المخاطر التي يمكن أن تحدق بالإنسان.

إنّ السّير خلف طروحات ثابتة يجعل من استنهاض الخوف أداة ناقصة الفاعلية، ذلك أن التغيُّر المستمر في الحياة يخلق حالة من التصحيح المستمر لكلِّ ثوابت الحياة، وهذا بطبيعة الحلّ يوجد ارتماءات متعدِّدة تحاول أن تجد لها ما يكفل بقاءها ضمن دائرة الاستنهاض؛ فتكون الأمور ضمن هذه النسقية باطلة وغير قابلة لردع المخاطر؛ فتقلبات الحياة جعلت الكثير من الأمور تكون

ضمن انزواءات لم يتوقّع لها أن تكون فيها؛ فكانت وجودا غير مرغوب فيه في كثير من المواقف، وهنا تنبري الأمور ضمن استمدادية جديدة؛ فتحاول أن تجد ما يمنحها صيرورة البقاء ضمن دوائر جديدة تسهم من خلالها في إيجاد حلول واضحة، وإن كانت استعراضية إلّا أنَّها ملبية لبعض الإرهاصات الحاصلة التي تبدو غير خطره.

وتتحدّد الحياة من خلال تقسيم يطرح كلّ ما من شأنه أن يكون سببا في استنهاض الخوف، ذلك أنَّ المخاطر أصبحت ضمن مدارك الإنسان المختلفة؛ فيلتفَّ حولها استشعارات متباينة تكون حافلة بأسباب البحث عن كلِّ النقاط التي يكون من ورائها الوقوف على الصورة الافتراضية التي ستكون في المستقبل، وهذا يشمل ما يسمى بصناعة المستقبل؛ فالمستقبل في حقيقته غير متحقّق، إلّا أنّه يمكن أن يتحقّق من خلال رسمه بتقنية خاضعة لكلِّ ما يساهم في تحقّيقه، وفي هذا المقام يتراءى لنا مصطلح المستحيل الذي يمكن أن يكون باعثا لتوقفات كبيرة يكون من بعدها تحقّق المخاطر، ومن ثمَّ الانزواء عن إيجاد حلول تكون ناجعة في كلّ المقاييس ولكي نبدِّد هذا المصطلح ولو آنيّا علينا أن نلجأ إلى المتوقّع وغير المتوقّع كي نسلب منهما الحلول التي يمكن أن تكون باعثة على إيجاد أرضية صلبة وواضحة المعالم، ويكون من ورائها خلق استنهاض للخوف يكون من ورائه صناعة المستقبل بالكيفية المفترضة والمرادة.

المتوقّع يسير في دائرة المتحقّق الذي يكون وجوده وصداه حاضرا في المنظور وغيره، وهذا بطبيعته يخلق حالة واضحة من وجود ثوابت يكون حضورها ممثّلا لجانب مهم من جوانب صناعة المستقبل؛ فيكون هذا الحضور استمرارا لهذه الصناعة حتى يمكن القول أنَّها تدخل حقل البديهيات التي يكون وجودها لا بديل عنه.

أمَّا غير المتوقّع؛ فيكون خاضعا لنظرة استشرافيه باحثة عن كلّ ما من شأنه أن يكون مؤسّسا بطريقة أو بأخرى لصناعة مستقبل مطلوب وفي المواصفات الافتراضية التي وضعت عند بداية الاستنهاض، ولعلَّ البداية قد تكون مفتعلة في بعض جوانبها نتيجة التحسُّب المبالغ فيه إلّا أنَّه بمرور الزَّمن قد يكون هذا الافتعال ممثّلا لكثير من الوقائع التي يمكن أن يكون لها شأنٌ آخر، فلا يكون هناك استبعاد لأيِّ استنهاض وإن كان بعيدا عن السمات المتواجدة ضمن الدائرة الظنيّة الحاضرة في كلِّ حركة متّجهة نحو الاستنهاض.

عليه يكون استنهاض الخوف باعثا لإيجاد قواعد جديدة تكون ملبِّية لما يمكن أن يكون بديلًا عن الماضي، ودون الركون إلى كلِّ ما من شأنه أن يلغي التوجّه نحو المستقبل بافتراضات بالية وعقيمة لم تنتج إلّا ما يُعطِّل الحياة ويجعلها تمرّ بأزمات متوالية.

إنَّ الحياة في كثير من تفاصيلها هي مبنيّة على استنهاض الخوف لصناعة مستقبل يكمن فيه الأمان المطلوب في كلِّ جوانبه؛ فمن ذلك نجد أنَّ المقررات التعليمية إن لم تكن مصاغة بمنهجية استنهاض الخوف لدى المعلمين والمتعلمين؛ فإنَّها ستفشل في تحقيق الغايات المرجوة لصناعة المستقبل، فإعداد كمّ من المعلومات الملبّية لاستنهاض الخوف، يكون موافقا لما يمكن أن يكون منجزا مستقبليا، فالمقررات إنْ لم يراع في صياغتها استنهاض الخوف في أنفس المتعلمين لا يمكن لهؤلاء المتعلمين صناعة المستقبل المأمول منهم، حتى يكونوا من المواكبين لحركات التغيّر والتقدّم التي هي دائمًا في حالة تطوّر من عصر إلى عصر.

ولذا فإنَّ الخوف من أعظم النعم التي تحفِّز الإنسان وتدفعه إلى كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه المخاطر والآلام والمظالم، ويجنِّبه الحاجة والعوز، ويُمكِّنه من بلوغ مشبعاتها والإقدام على تطورها وتطويرها، حتى المناهج التي رأينا فيها أن

تكون ملبِّية لاستنهاض الخوف، هي متغيِّرة ومتبدِّلة، لأنَّ الخوف أيضًا متغيّر ومتبدّل، وهنا يكون الناس ضمن اتجاهين:

الاتجاه الأول: يكون منهم متتبِّعا لكلّ ما يسهم في استنهاض الخوف من أجل صناعة المستقبل؛ فتكون حركتهم واعية وتسير في مدارات تلبّي ما يطمحون في الوصول إليه؛ فتكون أدواتهم خاضعة لكلّ ما يصل بهم إلى التحقُّق المراد، حتى ردود أفعالهم تكون منتمية إلى أرضية واقعية التشكيل، فتمنحهم بعد ذلك حلولا صحيحة كما يريدونها في كثير من الأحيان.

الاتجاه الثاني: المتفرجون الذين يراقبون كلّ ما يجري، فلا يحركون ساكنا وسيظلون يتفرجون ما لم يعرفوا عن يقين أنّ استنهاض الخوف ضرورة للفرد والجماعة والمجتمع، هذه المعرفة لا تأتي من فراغ، بل يكون السعي من أجل معرفتها هو مطلب مهم يمنحهم فيما بعد هذا المطلب نتائج غير متوقعة على كافة الأصعدة التي كان ينظر إليها أنَّها غير مهمة.

إذن من يستنهض الخوف في نفسه يتقدّم ويتطوّر حتى يصل به الأمر إلى أن يغزو الفضاء وهو يصنع المستقبل، وفي المستقبل أيضًا سيغزو ما لم نعرفه الآن في دائرة غير المتوقّع، ولهذا من يعلم بذلك لن يُفاجأ، أمَّا الذين لا يعلمون فبالضرورة ستكون المفاجأة في أنفسهم عظيمة ويا ليتها تكون موجودة.

الشكّ يُحدِث النُّقلة للمستقبل:

الشكّ: تخمين في الشيء غير المتأكّد من وجوده أو ظهوره أو صدقه، ممّا يستوجب التبيّن قبل التسليم؛ ولهذا فالشكّ عمليَّة عقليَّة تستوجب التوضيح والتبيان حتى يتمّ التصديق أو التسليم بما يقال أو بما تسرد قصصه؛ ولهذا فما يُقال أو يُسمع يستوجب التأكد منه قبل الحكم عليه أو به؛ ولذلك تؤسّس الاختبارات والامتحانات المتنوّعة والمتعدّدة على قاعدة الشكّ، من أجل اليقين.

ولهذا:

. تأكّد ممّا يقال لك قبل أن تصدّقه تسليمًا.

. شُكّ فيما يقال من أجل أن تعرف الحقيقة هي كما هي بلا مؤثرات شخصيّة.

. تبيّن ما يجب قبل أن تقدم على ما يتمّ التحريض عليه.

. اطلع على ما كُتب أو نشر وفقًا لدائرة الممكن قبل أن تكتب ما تهدف الكتابة عنه.

. فكّر قبل أن ترسم خطة.

. ارسم خطة قبل أن تعدّ لها برنامجا.

هذه معطيات علمية، يتمركز الشكّ عليها. بدونها لا يكون الشكّ شكا، بل يكون الشكّ ظنا والفرق كبير. بين الأوّل الذي يتعلق بالمستقبل، وبين الثاني الذي يتعلّق بالماضي.

ولذلك فإنّ الشكّ يتعلّق بالمستقبل، والظنّ يتعلّق بالماضي. حيث كلّ ما وقع أو حدث أو ظهر في الماضي هو حقيقة سواء أكانت ذات أثر موجبا أم أثر سالبا. أمّا الشكّ؛ فاحتمالي التحقّق أو الحدوث.

أي يمتد زمان توقعه من الزّمن الآن إلى الزّمن المستقبل وفقًا للمعطيات المتاحة، كأن يُقال لك (فلان من النَّاس عمره خمسون عاما وسيفوز في سباق العشرة أميال مع المتسابقين الشبّان). هذا الافتراض في دائرة الشكّ لن يتحقّق. ولكن في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع قد يحدث. ومع ذلك وفقًا للمعطيات العمرية ينبغي أن أشك حتى يأتي اليقين يوم مشاركته في السّباق.

وعندما يقال لك أنّ العرب سيهزمون إسرائيل في المستقبل من حقّك أن تشكّ وفقًا للمعطيات الآنية، حيث العرب في حالة هزيمة، وبالتّالي من حقكّ أن تشكّ في حدوث هذا الأمر وفقًا للحال الذي هم عليه في الزّمن الآن.

الشكّ مثبت إثبات قاعدة الاحتمالات، ولأنَّ ليس كل ما يقال أو يُسمع دائمًا في حالة مصادق، لذا يستوجب التأكد قبل الحكم؛ ولهذا سيظل الشكّ إلى أن ينفى باليقين.

وسيظل الظنّ إلى أن يثبت باليقين.

ولذا فإنَّ القاعدة هي:

- الشكّ احتمالي.

- الشكّ يحدث النُّقلة.

- الشكّ يصنع المستقبل.

والاستثناء هو:

- الشكّ قطعي.

- الشكّ لا يحدث النُّقلة.

- الشكّ لا يصنع المستقبل.

وعليه:

- شُكَّ حتى تُحدث النُّقلة.

- شكّ حتى تصنع المستقبل.

- شُكّ حتى تميّز بين ما يجب وما لا يجب.

. شكّ حتى تعرف الحقيقة.

. شكّ حتى تكتشف القوانين؛ فالمستقبل آتٍ وعليك بتبيّنه قبل أن يصل إليك وأنت لم تحسم أمرك بعد.

. لا تيأس ولا تتراجع.

. سابق الزّمن وأنت تشكّ من أجل المزيد المعرفي البيّن.

. ثق أنّ مستقبلك أمامك؛ فلا تلتفت للظنون.

. ثق أنّك قوّة قادرة على تحدّي الصّعاب.

. أجعل الخوف في نفسك محفّزا على تفادي المؤلم والمفاجئ، حتى تجد نفسك مندفعا لما يجنبّك المخيف.

ولذلك فللخوف فضل على عقولنا؛ فلولاه ما فكّرنا، ولا خطّطنا، ولا صنعنا مستقبلًا مناسبا لحياتنا، ولو لم يملأ الخوف نفوسنا ما تخلصنا من المخيف الذي كان في الماضي جاثما على صدورنا. ومن هنا؛ فالخوف يجنّب عمّا يخيف ويؤلم ويوقع في الفخّ، ولهذا لا مستقبل آمن ما لم نؤمن أنفسنا ممّا يخيف مستقبلًا.

وإذا تساءل أحد عن المستقبل:

أقول:

. أنّه الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلمة في حالة مواصلتي الكتابة.

. أنّه الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه.

. أنّه الزّمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقّع.

. أنّه الذي من أجله: نتنفس ونشرب، ونأكل ونفكر، ونتعلم ونعمل ونتصّدق ونصلّى، ونحب ونتزوج، وندّخر وفقًا لحاجاتنا، ونؤمّن ممتلكاتنا، وهو الذي من أجله الخوف لم يفارقنا.

ولذا لو لم يكن هناك مستقبل، ما كان هناك أمل ولا أماني، ولولاه ما فكّرنا في الآتي:

. فيما يشغلنا.

. من نحن؟

. ما هي إمكاناتنا وكيف نستثمرها مكاسبًا؟

. ما الذي يجب علينا القيام به؟

. من أجل ماذا نفكّر؟

. من أجل ماذا نتعلّم؟

. من أجل ماذا نخطط ونعمل وننتج؟

. لماذا نهتم بالدراسات والبحوث العلمية ونحاول غزو الفضاء؟

. لماذا نحلل ونستنتج ونستقرأ؟

. لما نخاف؟

. لماذا نتزوج ونطلق؟

. لماذا نصوم ونصلي ونزكي ونؤدّي جميع الفرائض التي ترضينا مع الله تعالى؟

الإجابة على كلّ هذه الأسئلة هي واحدة.

(من أجل المستقبل المأمول).

تحدّي الصِّعاب يجعل من الخوف شجاعة:

الخوف لا يصنع المستقبل إلّا إذا توافرت الشّجاعة التي هي تصميم على الإقدام بعد حسابات موضوعيّة، ولكن إنْ تمَّ التخلّي عن الإقدام بعدما توافرت معطياته الموضوعيّة، تُصبح الصفة السائدة هي الجبن، وفي مقابل ذلك عندما يكون الإقدام عن غير موضوعيّة، تُصبح الصفة السائدة هي التهوّر، فالشجاعة تكون حيث لا يكون الظلم، والتهوّر قد يكون والظلم معا، فالشجاعة عقباها يُحمد، والجُبن عقباه يُذمّ، والتهوّر أصحابه يلامون، والشجاعة قد تؤدّي إلى الإقدام وقد تؤدّي إلى الانسحاب وكذلك قد تؤدّي إلى الإحجام؛ فالمتّصفون بها لا يقدمون إلّا على ما يجب الإقدام عليه، وقد ينسحبون إذا عرفوا أنّ الإقدام في مرحلة من مراحله سيؤدّي إلى التهلكة، وقد يحجمون عن وعي لمعرفتهم بما يجب؛ ولذا فالإقدام والانسحاب والإحجام لا تتمّ إلّا بعد معرفة واعية بها يسترشد العقل.

ولسائلٍ أن يسأل:

هل الشّجاعة مواجهة الخوف؟

أقول:

لا شجاعة إلّا والخوف قوّة من ورائها يُحفّز على الإقدام، فلولا الخوف ما كانت الشّجاعة، ولا مرشد للشجاعة إلى غايتها إلّا الخوف؛ ولذا ستكون الشجاعة ضالة لطريقها ما لم يرشدها الخوف إلى الأهداف والغايات التي تستوجب الإنجاز والبلوغ.

إذن: لا يمكن أن تكون الأنفس ممتلئة شجاعةً إن لم يكن الخوف قوّة إثارتها، ومرشدها تجاه ما يجب أن يُنجز من أهداف وغايات عظيمة، فالخوف لا يكون إلّا حيث تكون المخاطر استقراءً ومشاهدة واستطلاعا، فبه العقل يُدرِك ما يجب وما لا يجب، وبه يتمّ الاسترشاد الموضوعي إقداما أو انسحابا أو إحجاما.

ولأنّه لا شجاعة إلّا والخوف من ورائها، إذن: كلّما اشتدّ الخوف ازدادت الشجاعة شدّة، وكلّما انفرج الخوف انفرجت الشجاعة من شدّتها؛ ولذا فالعلاقة لا تكون إلّا تكاملية بين الخوف والشّجاعة. أمّا العلاقة بينها والجُبن فهي علاقة تناقض؛ فحيث ما يحلَّ الجبن تغيب الشجاعة؛ فالجبن خلاف الخوف، من حيث كون الجبن مانعا للإقدام والانسحاب الموضوعيين، والخوف محفّز عليهما ومرشد إليهما تجاه ما يجب، فهو المنبّه على مكامن الخطر وبؤر الفساد، لأجل القضاء عليها وتفادي مؤثراتها السلبية، وما يترتّب عليها من مظالم.

فالخوف مُنبّه فطري للعقل كي يتدارك الأمر قبل وقوع الكارثة؛ ولهذا فهو يؤدّي إلى أخذ الحيطة والحذر كلّما توافرت الشجاعة، وفي مقابل ذلك لا يؤدّي الجبن إلى أخذها.

والشّجاعة موضوعيا لا تكون ظاهرة إلّا في حُسن تصرّف الفعل، ولا علاقة لها بتلك العضلات المفتولة لدى البعض، فالكثير منهم متهوّرون وبعضهم جبناء وبدون شكّ منهم العقلاء (الشجعان)؛ فالشّجاعة في الفكرة والرأي المترتّب عليها والقرار المنفّذ لها. أمّا التهوّر الاستعراضي فلا يُؤدِّي بأصحابه إلّا للتهلكة أو الخسارة في أسواق المنافسة الحرّة، فمن يتّخذ القرار الصّعب في الظرف الصّعب عن حكمة يوصف شجاعا، ومن يتقدّم لفك الفتيل قبل

الانفجار المؤدّي إلى التهلكة يوصف شجاعا، ومن يتبيّن خطورة ذلك عن معرفة واعية ويمتنع عن فكّه وهو قادر يوصف جبانا.

وعليه: فالشجاعة قوّة عقليَّة (تفكُّر وتدبُّر) تُقدِّم أعمال الخير وأفعاله الحِسان، وتُسهِم في صناعة التاريخ وتَرسيخ الهويّة، وأصحابها يقبلون دفع الثمن مقابل جزاءٍ إنساني في مرضاة النفس والخالق تعالى.

ولذا؛ فالفرق كبير بين الشجاعة والتهوّر؛ فالشجاعة موضوعيا لا تكون إلّا بحسابات الخوف، أمّا التهور والجبن معا فلا حِسابات في قاموسهما للخوف الموضوعي؛ ممّا يجعلهما يوقعان بأصحابهما في أوّل المحاذير التي لو كان للخوف مكانه في قاموسهما لتمّ تفاديها.

الشجاعة لا تتحقّق إلّا عن رويّة، وعاقبتها السلامة الممكّنة من بلوغ السكينة. أمّا التهوّر فلا علاقة له مع الرويّة، وعاقبته الندم والألم معا، ممّا جعل للشجاعة منطق، وجعل للتهوّر سذاجة.

ولمتسائلٍ أن يتساءل:

ـ لماذا الشجاعة عن منطق؟

ـ ولماذا التهوّر عن سذاجة؟

أقول:

الشجاعة لا تكون إلّا عن منطق؛ لأنَّها تستهدف إيجاد حلٍّ، وتؤسّس على سرعة التدبّر قبل تفاقم المشكل.

والتهوّر لا يكون إلّا عن سذاجة؛ لأنَّه يؤدّي إلى تأزمات؛ ولذا فهو المؤسس على التسرُّع.

وعليه: فالعلاقة الموضوعيّة بين الشجاعة والخوف علاقة إقدام وتحسُّب وفطنة وانتباه وأخذ حذر، وصناعة مستقبل فيه السكينة والأمن. أمّا التهوّر فلا نتائج له إلّا فقدان الثقة بين الأنا والآخر؛ ممّا يجعل لكلٍّ حساباته عندما تحين الفرصة.

إذن: الشجاعة لا تكون إلّا إذا حلّت الثّقة والأمن في النفس، أمّا إذا رحلتا عنها أو قاطعتا الالتقاء بها، فلن يكون في النفس مكان يُحلُّ فيه إلّا أماكن الجبن والتهوّر؛ ولذا فإنْ استقرّ الأمن في النفس، رحل الخوف عنها، وإذا فارقها الأمن، حلّ الخوف فيها، وسيظلّ حتى أن تبلغ الأمن وتسترجعه إنْ أرادت سكينة وطمأنينة مصداقا لقوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[6]. أي: إن القرية كانت مملوءة بالعباد وخالية من الخوف، حاجاتها مُشبعة، ولم تكن في حاجة؛ حيث لا منقوص لديها، ومع ذلك كفرت؛ فلم تُقدّر أنعم الله عليها، فألَمَّ بها الجوع وحلّ الخوف في نفوس ساكنيها.

وهكذا النتيجة دائمًا كما يحلُّ الخوف محلَّ الأمن والسكينة والطمأنينة هي تحلّ محلّه، وسيظلّ الحال هكذا مبادلة إلى أن يبلغ الإنسان مخافة الله فلا يخاف، أي: سيظلّ الخوف رفيقا في أنفسنا إلى أنْ تتقي الأنفس ربَّها خوفا، فإذا اتَّقته خوفا انعدم الخوف عنها وبقيت في سكينة آمنة مطمئنّة، وإن بلغتْ هذا المبلغ، بلغتْ بلا خوف مقاصدها.

وعليه: إنَّ الخوف وجوبي، سواء أكان خوف حذرٍ أم خوف حرصٍ، ولتبيان الفارق بينهما نقول:

---

[6] النحل 112.

أ ـ خوف الحذر: (الخوف من) الخوف من الآخر الذي يستوجب إعداد عُدّة، فالإحساس بالخطر يستوجب أخذ الحذر الذي يترتّب عليه أخذ الحيطة باختيارات المواجهة أو اختيارات الانسحاب، ولكن إذا لم يكن الأمر محسوما لصالح أحد الاختيارين، يصبح التنسيق هو الحلّ، وذلك حسب التقديرات والاحتمالات الممكنة، فعلى سبيل المثال: الصراع بين العرب والإسرائيليين على الأرض أنتج الشعور بالخوف المتبادل، خوف العرب من إسرائيل من أن تمتلك الأرض المحتلة، وخوف إسرائيل من العرب أن يخرجوها بالقوَّة؛ ولهذا سيستمر الصراع ما دام الإحساس بالخوف مستمرا.

ولأنَّ الخوف قوَّة تفاعليّة في النفس تجاه الآخر وما يمكن أن يفعله فهو بطبيعة الحال قوَّة مؤثِّرة إيجابيا إن تمّ التخطيط لِما يجب أن يكون بديلًا أو حلًّا ليحلّ سكينة وأمنًا بدلا من ذلك الخوف؛ فالخوف على الحياة ممّا يلمّ بها من مخاطر يستدعي إعداد عُدّة؛ لتفادي تلك المخاطر، وإلّا في دائرة الممكن ستقع المخاطر لا محالة؛ ولهذا فالخوف الحذري تجنبي وقائي.

ب ـ خوف الحرص: (الخوف على)، كالخوف على النفس والخوف على الآخر الذي لم يُقدِّر ظرفه وإمكاناته وما يجب أن يقوم به أو يؤدّيه، وهذا النوع من الخوف لا يكون إلّا من حريص لا متهوّر ولا جبان، ممّا يجعل الآباء والأمهات والمسؤولين المحترمين ومحبي الخير حريصين كلّ الحرص على ألّا يلحق أذى بأبنائهم وبني جنسهم ومن ينتمي إليهم قيما وفضائل.

وسيظلّ هذا الحال كلّما توافرت اشتراطات وجود الخوف الذي يترتّب عليه بالضرورة وجود خائفٍ ومخيفٍ. وعندما يحسّ أيّ طرف على أيِّ بقعة من خريطة العالم، بأنَّ هناك من يشكل خطرا عليه؛ فقد يبادر هذا الطرف الذي

يحس بالخطر بالهجوم على مصدر الخوف؛ ليباغته بضربة قاصمة يمكن أن تضعف الخصم وتعيده إلى طاولة المفاوضات (طاولة التنسيق)7.

كيف تُصبح قويًّا:

خَلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، مميّزا بهذه الصّفة عن غيره من الخلائق الأخرى التي هي جميعها دونه، ذلك لأنّه أحسنها، ومن هنا جاءت قوّته، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}8. وأحسن تقويم: أحسن تصويب، وأحسن خِلقة ممّا خلق من المخلوقّات كلّها؛ فكلّ المخلوقّات، من ملائكة وجنّ وغيرها، جاء الإنسان مفضَّلًا عليها في الخَلق والتقويم؛ فالإنسان كونه مخلوقًا مفضَّلًا، لم يكن على الضّعف، ولكن في غير مقارنة، إنّه الضّعيف أمام قوَّة الخالق تعالى، كما أنّه الضّعيف أمام الشّهوة؛ فعندما تغالبه الشّهوة، يكون ضعيفا، ذلك لأنّ الشّهوة هي: الضّعف الذي خُلق الإنسان عليه، فإن سيطرت الشّهوة على عقل الإنسان وقلبه، كان الإنسان على طبيعة خلق الشهوة ضعيفا، ولكن إن هيمن العقل والقلب على الشّهوة؛ فالإنسان لا يكون إلّا قويّا، وهذه صفات لا تستمدّ إلّا من صفات الخالق، ولأنّها تستمدّ من صفاته تعالى؛ فصفاته قوَّة، وهي: مصدر لكلّ قوَّة.

ولهذا؛ يعدّ التقويم الإنساني خَلقا وفقًا لما يجب، وهذا الخلق هو الذي نشأ الإنسان عليه، ولكن قرار الإنسان في دائرة التخيير هو بيده، وبالتّالي يمكنه أن يستخدم حُسن التقويم فيما يجب، وهنا تكمن القوَّة، ويمكن أن يستخدمه فيما لا يجب، وهنا يكمن الضّعف.

---

[7] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، شركة الملتقى، بيروت، 2011م، ص 67 . 80.

[8] التين 4.

فالإنسان دائمًا إنْ أراد تحدّي الصّعاب؛ فعليه بامتلاك القوَّة، والسّعي على استمدادها من مصادرها حفاظا على بقاء حُسن التقويم، ولكن كيف تستمدّ القوَّة من القوي؟ والله قال: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[9]؟

ومن ثمّ؛ فالاستغراب أن يغترّ الإنسان بنفسه؛ فلا يلتفت إلى ما يجب أن يَقدِم عليه قوَّة، وما يجب أن ينتهي عنه قوَّة، وهنا، يكمن الضّعف، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}[10].

ولأنّ الإنسان في أساس خلقه، قد خُلق على القوَّة؛ قال الله لموسى: {فَخُذْهَا بِقوَّة وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}[11].

ولسائل أن يسأل:

ومن الذي يستطيع أن يأخذ ما يأخذه بقوَّة؟

أقول: الذي يمتلك قوَّة تمكّنه من الأخذ أخذا؛ ولأنَّ القوّي تعالى يعلم أنّ المخاطب قويّا قال: له: (فَخُذْهَا بِقوَّة)، ولأنّه قوي، قال له: (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)، أي: عليك يا موسى أن تأخذها بقوَّة، وعليك أن تأمر قومك بقوَّة الأخذ بأحسنها. أي: أنّ القوي الأوّل هو الله؛ أمر موسى بقوَّة الأخذ فأخذها موسى بقوَّة طاعة للأمر، ثمّ إنّ موسى بقوَّة أخذه أمر قومه أن يأخذوا بأحسنها.

ومن غير مقارنة، كلّ المخلوقَّات هي على الضّعف أمام قوَّة الخالق، ولكن أقوى المخلوقَّات وأفضلها هو: الإنسان، {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ}[12]،

---

[9] النساء 28.

[10] الانفطار 6، 7.

[11] الأعراف 145.

[12] آل عمران 33.

اصطفاه مفضَّلًا على الملائكة والجن، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}13.

ومع أنّ آدم تمّ اصطفاؤه نبيًّا للملائكة والجنّ والإنس، لكنَّ الله أهبطه على الأرض، بعد خطيئة ألمت به وزوجه، بأسباب الشّهوة التي أضعفته؛ فكان على الأرض نبيًّا قويّا، بقوّة النبأ الذي سجدت له الملائكة.

وعليه: فالإنسان بقوّة الشّهوة يضعف؛ فيخطئ، كما أخطأ أبونا آدم، وبقوّة الإيمان الإنسان يقوى؛ فيستغفر، ويتوب؛ ولذلك فالأقوياء لا خوف عليهم: {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}14 ولكن الخوف على الضعفَاء الذين فقدوا القوّة.

ولأنَّ نشوء الإنسان كان خلقا معجزا في أحسن تقويم؛ فبه كان الإنسان مفضَّلًا، ولكن لأنّه في دائرة التخيير؛ فقد لا يحافظ على تفضيله، ويلقي بيديه إلى التهلكة: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}15. وهنا يكمن الضّعف، ومع ذلك؛ فالضّعف قابل للتغيير إذا ما تبنّت أيدي الأقوياء أيدي الضعفَاء. أي: أنّ الضّعف إذا لحق البعض بما عملت أيديهم؛ فينبغي على البعض الذي يده قويّة أن يتحمّل مسؤوليته تجاه الضعفَاء: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}16، إنّه التفضيل الذي ينبغي أن يقدّر من قبل القادرين رزقا؛ فيأخذوا بأيدي من ضعف جهدا أو معرفة أو مالا، حتى ينهض ارتقاءً، إلى ما يجب أن يكون عليه عملًا ومعرفة.

---

13 البقرة 34.

14 البقرة 38.

15 البقرة 159.

16 النحل 71.

ومع أنّه التفضيل، لكنّه كما يكون على (التميّز) يكون على (التمييز)؛ فالتميّز: هو نشوء خاصيّة قد تكون خلقية كما هو تميّز البشر عن بقية الخلائق، وقد تكون الخاصيّة تميّزا بالعمل: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}17.

أمّا التمييز: فمنه التمييز الخَلقي، ومنه بأيدي النَّاس؛ فالخَلقي فيه تساوي ميز حيث كلٌّ مميّز بخاصيّة: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}18؛ فلا ينبغي أن يتمنى الذّكر أن لو خُلق أنثى، ولا ينبغي أن تتمنى الأنثى أن لو خلقت ذكرا، لأنّ كلّا منهما خُلق مفضَّلًا بما خُلق عليه من نوع (ذكر وأنثى).

أمّا التمييز الذي بأيدي النَّاس؛ فهو المتعارض مع التفضيل الذي ينبغي أن ينشأ الخَلق عليه؛ فالخالق فضّل النّوعين (الذّكر والأنثى) ونهى عن التفضيل بغير حقّ: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)؛ فالتمييز بين النَّاس يمكن أن يكون موجبا، ويمكن أن يكون سالبا؛ فإن كان بالعمل فلا شكّ الذي يعمل غير الذي لا يعمل، ولكن إن كان على حساب ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليات فلا ينبغي، وهنا تكمن المظالم.

وحتى لا يكون الضّعف سائدا كان الخَلق الإنساني زوجيّا بغاية تكاثر القوّة ومضاعفتها، ولهذا فالنشوء الزّوجي نشوء إعجازي تلازمي؛ حيث اقتران الأزواج خلقا من تراب: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ}19، خلقا تلازميّا ولا تفرقة، ولا أفضلية لمخلوق على مخلوق من ذات النّوع؛ فالإنس كونه سلالة

---

[17] الزلزلة 7، 8.

[18] النساء 32.

[19] الروم 20.

طينيّة، خلقه النوّعي واحد (الذّكر والأنثى)، ولذا، جاء نشوء البشر من نفس واحدة (من طينة واحدة).

ولأنّ الخلق الأوّل زوجي؛ فلا أحد خُلق من أحدٍ: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}20. ومع ذلك؛ فالبعض يتسأل:

وأين نحن من خلق حواء التي خُلقت من ضلع آدم؟

مع أنّ اسم حواء لم يرد في القرآن الكريم ولا مرّة واحدة ولكن أقول: عندما تكون الإجابة من الله تعالى قاطعة للشكّ؛ فلا داعي لغيرها، وعندما يختلف قول البشر عن قول الله؛ فلا مجال للظنّ فكيف الله يقول: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) ويأتي البعض ويقول: خُلقت حواء من ضلع آدم؟

فقوله من كلّ شيء، لا يستثني شيئا من الخلق الزّوجي، فكلّ المخلوقًات خلقت على (الزوجيّة) لتعاضد القوّة، ولم تخلق من (التزاوج)، فالتزاوج اختياري وهو الذي حصل بعد الخلق الأوّل للإنسان الأوّل: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}21؛ فمن نفس واحدة، تعني: من طينة واحدة، أي من نفس الطّينة؛ فلا أحد أفضل خلقا من الآخر: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}22.

إذن؛ فمن نفس واحدة تدلّ على وحدة الخَلق الزّوجي، ولا تدلّ على أسبقية آدم على زوجه، ولذا فكيف لنا بأخذ القول: إنّ زوجه قد خّلق من ضلعه والله يقول: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}23؟

---

[20] الذاريات 49.

[21] الأنعام 98.

[22] النساء 32.

[23] الذاريات 49.

ومع أنّ النّشوء البشري من نفس واحدة، وهي: (الإنس) ولكن لكلّ نفسه: {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}24، أي: جعل الأنفس من بعد آدم وزوجه أنفسا متعدّدة؛ فبعد ذلك النّشوء الزّوجي من طينة واحدة (النّفس الواحدة) وهي طينة خلق (الإنس)، أصبحت الأنفس تتعدّد ولادة وسلالة زوجية: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}25.

تبيّن هذه الآية تطوّر النّشوء البشري بداية ونهاية؛ فبداية كانت السّلالة الخلقيّة من طين، والسّلالة هنا، النّوع ذو المعدن الثّمين، ولذا؛ فسلالة نشوء البشر جاءت نوّعا متميّزا عن بقية السّلالات، أي: أنّ سلالة نشوء الإنسان الأوّل (آدم وزوجه) سلالة طينية (تراب). ولكن أيّة تراب؟ إنّه الصّلصال، وهو أجود أنواع الطّين الخَلقي: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}26، والصّلصال لم يكن فخارا، بل يشبهه؛ فجاء التشبيه لتقريب المعني والتعريف بالمشبه (كَالْفَخَّارِ)، ومن ثمّ فقد ارتبط الصّلصال بالنّوعيّة الرّاقية والجودة الرّفيعة.

ثمّ جاء من بعد الخَلق الزوجي الخَلق التزاوجي، وهو الذي أصبحت عليه ثنائية الأفراد المستقلّين (آدم وزوجه)؛ فكان النّشوء من بعدهما ليس خلقا مباشرا كما هو خلقهما على القوّة من نفس واحدة؛ فهما وإن خُلقا على الفردية، ولكنّهما من طينة واحدة (نفس الطّينة) نفس واحدة.

24 الشورى 11.

25 المؤمنون 12 . 16.

26 الرحمن 14.

أمّا التزاوج؛ فهو التقاء توافقي نتج عنه نشوء وسلالة ليست من طين: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}27، أي: من نطفة، {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}28، فالخلق الذي جاء بالإنسان الأوّل انتهى بوجود (آدم وزوجه) ثم نشأت سلالة خلقية مبذورة من صلب الإنسان الأوّل، وهذه السّلالة لم تكن من ذلك الطّين (التراب) الذي خُلق منه آدم وزوجه في أحسن تقويم. وكيف لا يكون الإنسان في أحسن تقويم، وهو المخلوق في الجنّة من صلصال كالفخار؟ فهذه لا استغراب فيها، ولا مفاجأة، ولكن الاستغراب لماذا لا يحافظ من خُلق في أحسن تقويم على حُسن تقويمه قوّة؟

ومع أنّ نشوء السّلالة الجديدة كان بذرة (نطفة)، لكنّه لم يبق بذرة (نطفة)، (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)، حيث دبّت الحياة من زوجيّة مشتركة في علقة مشتركة تخصيبا. (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) أي: أصبحت السّلالة تتكوّن دما ولحما، ثمّ عظاما (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)، ثم كسيت العظام لحما بدنيّا على صورة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)، حيث اكتمال الخلق نشوءا على صورة أخرى، وكأنّه مشاهدة لا علاقة له بالمراحل الخلقية السّابقة، {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ}29.

أي: أنّ السّلالة البشرية ستظل بحكم قانون الوراثة، جينات ثابتة بداية ونهاية (بداية خلقية ونهاية عدمية)، بمعنى: سيكون أثر السّلالة البشرية بداية من النّطفة ونهاية بالأثر ولو كان رفاتا ترابيا؛ فاليوم أصبح البحث العلمي متقدّما في اكتشاف الأثر الجيني والوراثي الذي يبقي الجنس والنّوع والنّسب دون لبس ولا غموض.

---

27 السجدة 8.

28 المؤمنون 13.

29 آل عمران 34.

ولذا؛ فلا إمكانية لتطوّر الكائنات لتكون خارج الجنس أو النّوع الذي خُلقت عليه خلقا، وبخاصّة بعد اكتشافات (DNA) التي تحمل معلومات وراثية (المورثات والجينات)، ومن ثمّ؛ فلو كان القرد ابن عمّ الإنسان كما يقول داروين؛ فهل سيظل هذا سرّا أمام معرفة DNA لكلّ من الجنسين؟

وعليه:

خُلقت الحياة أزواجا، ونشأت الحياة تزاوجا، فكانت الحياة مكوّنة من (وجود وعدم) حيث الموت في ملاحقة الحياة؛ ولكلٍّ أسبابه كما هو حال ابني آدم، اللذين كان الصّراع بينهما صراعا بين حقّ وباطل: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ}[30]. ومن هنا، بدأ النشوء مرحلة جديدة بين زيادة ونقصان (مواليد وأموات)، ومن هنا تَبيَّن أنّ الذي خُلق في أحسن تقويم لم يستطع المحافظة على حُسن تقويمه قوَّة بعد تلك المأساة التي حدثت بين ابني آدم، الذي أصبح الخلاف من بعدهما يدبّ بين الأخوة والأقارب والأباعد على القيم والفضائل والحاجة، والمكانة والمصلحة. وبالتالي فالوجود الذي كان في أحسن تقويم قوَّة وبقاءً، أصبح نشوءا متأثرا بهذه العلل ضعفًا، فُرقة وخلافا واقتتالا، عوضا عن التّعاون المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة من أجل الارتقاء والبقاء الأصلح والأقوى.

فبعد تلك السّابقة المؤلمة بين ابني آدم، أصبح البقاء للأصلح قوَّة، بدلا من الأصلح قيمة أو فضيلة، ما جعل النّشوء البشري معرّضا للتهلكة والفناء أكثر من تعرّضه للبقاء ارتقاءً.

[30] المائدة 30.

إنّ غِلظة القلوب على القلوب تنزع بالبشر إلى نشوء منحدرٍ ترتفع فيه أسهم السّلاح أكثر من ارتفاع أسهم القيم الإنسانية ولكن مع ذلك؛ ستظل المعلومات الصّائبة تصحح المعلومات الخاطئة.

فعلى المصلحين أن لا يستغربوا ما يجري من انحدار نشوءٍ بين البشر، لأنّ حقيقة البشر هم بين مهتدٍ وضال، ومستقيم وسقيم، وعادل وظالم، وفقيه وجاهل، ولذلك قال تعالى: {أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}31، {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}32، {أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}33. وغيرهم من الكثر كثير.

ومع أنّ الخلق البشري كان في أحسن تقويم، لكن نشوء الكثرة أصبح على غير هذه القاعدة القيمية، ومن ثمّ، أصبح النّشوء منحدرا من منصّات القيم الحميدة والفضائل الرّفيعة إلى سُفلية الوجود، التي جعلت بعض العلمّاء والمنظّرين يصفون ما يشاهدونه ويلاحظونه من انحدار قيمي بأنّه ميل الإنسان إلى الحيوانية على حساب البقاء الأصلح والنّشوء الرّفيع، ممّا دعاهم إلى البحث عن آثار الإنسان الأوّل لعلّه لم يكن إنسانا.

وباكتشافهم وجدوا معطيات أثرية لهياكل عظمية بشرية تدلّ على أنَّ الإنسان القديم كان أقل رُقِيًا من الإنسان المعاصر، كما أنَّ نظرية Origin Of Species ترى أنَّ "أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مشترك وأنّها بدأت من خلايا حيّة تكوّنت عن طريق المصادفة وأنّ الحياة الأولى وجدت مصادفة"34.

---

31 الأنعام 111.

32 الحجرات 4.

33 المائدة 59.

34 Charles Robert Darwin Origin of Species the Harvard Classics. 1909 p 114.

ولكن كيف لنا بقبول خلق الكون بأسره من لاشيء، ثمّ الأخذ بالقول: إنّ الحياة الأولى وجدت مصادفة؟

وكيف لنا بقبول المصادفة، وأنّ الله خلق الأزواج كلّها خلقا (لا مصادفة)؟

ومع أنّه حتى الآن لم نجد آثارًا مؤكّدة للحيوان الذي انحدر منه الإنسان والقرد الشبيه كما يزعمون، ولكن البعض يرى صلة سلالية تربط الإنسان بالقرد، وهذه لا حقائق تسندها؛ فهي مجرّد قولٍ ليس إلّا، وهذا ما أكدّه العالم جوهانس ووكر عام 1956م الذي أعلن عن اكتشاف قطعة فحم حجري بها فكّ إنسان يرجع إلى عشرة ملايين عام، وهي أقدم قطعة من بقايا الإنسان في العالم، وتعدّ دليلا شاهدا على ذلك بمتحف بال بسويسرا، ومن ثمّ، قال العالم جوهانس ووكر: إنّه لا يوجد أدنى دليل على أنّ الإنسان من سلالة القردة.

أمّا داروين فيقول: بالرّغم من أهمية الأحافير في إيجاد دليل على حدوث التطوّر، لكنّ السجلّ الجيولوجي أشبه ما يكون بكتاب فُقدت بعض صفحاته، ولم يبق منه سوى صفحات قليلة متناثرة، وفي تلك الصّفحات الباقية لم يبق إلّا كلمات قليلة في كلّ صفحة[35]. ولهذا؛ فلا يقين فيما يقال أو يدّعى به من تشابه سلالي بين الإنسان والقرد.

ولأنّه لا يقين، إذن؛ فلا حكم على وجود علاقة نشوء بين الجنسين (الإنسان والحيوان) لتعود بهما إلى أصل واحد، ولا أحد يستطيع أن يفصل في شيء بغير حقيقة، ممّا يجعل الشكّوك والادعاءات ليست بحجج: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}[36].

---

[35] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538. 571.

[36] الأنعام 57.

ولأنّ الخلق الأوّل للكائنات خَلق زوجي، فهو خلق أجناس وأنواع، ولم يكن خلق تكاثر إلّا بعد التزاوج (الثنائية المتعدّدة) التي لا مجال فيها للنّشوء والتطوّر إلّا داخل الجنس الواحد، فالإنسان كونه أرقى المخلوقّات، لا يمكن له أن يتطوّر ليكون على غير جنسه البشري، ولا يمكن لغيره من الأجناس والأنواع الأخرى أن تتطوّر لتصبح بشرا، ولذلك؛ فقد خلق الخالق من كلّ شيء زوجين حيث لا لبس ولا شبه ولا تداخل، فكلّ اثنين (ذكر وأنثى) من كلّ شيء، حتى الفواكه لا تعود لسلالة واحدة، بل تعود إلى سلالات متعدّدة الأزواج: {مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}37. أي: أنّ الفاكهة لا تعود إلى زوجين بعينيهما، بل تتنوّع الفاكهة أزواجا وسلالات مختلفة وستظل متنوّعة.

وعليه:

كيف يَقبل العقل البشري أنّ الإنسان والقرد يعودان إلى سلالة واحدة، وهو في ذات الوقت يعلم أنّ الفاكهة التي يظنّها من سلالة واحدة هي ليست كذلك؟

كيف يقبل أنّ الذي خُلق في أحسن تقويم، يلتبس الأمر في خلقه مع ما لم يكن مخلوقًا على حُسن التقويم مميّزا؟

ومن ثمّ؛ فالكائنات تتكاثر أنواعا، ولا تتطوّر أجناسا فالقرد الذي خُلق قردا، سيظل على ما هو عليه قردا ضعيفا أمام عقل الإنسان وفطنته وعلمه وقوّة تدبّره وتفكّره، وهكذا النّباتات ستظل نباتات، والإنسان لم يكن قردا وسيظل إنسانا، ولكن الإنسان لا بدّ أن يرتقي ويتطوّر على القيم الحميدة والفضائل الخيّرة، ولا ينبغي أن يغترّ معرفة وعلمًا: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ

---

[37] الرحمن 52.

بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[38].
أي: فعلى الإنسان أن يعلم أنّه لم يؤت من العلم إلّا القليل.

ولهذا؛ فالتطوّر ضرورة لحياة الأجناس من أجل البقاء الأحسن، والنّشوء سيظل قابلًا للتّحسّين النّوعي من أجل الأفضل والأجود، ولا شكّ أنَّ الإنسان الذي بين يديه المعارف، على يديه تتحقّق النُّقلة النّافعة، التي تمكّنه من البقاء الأصلح.

فالإنسان الأوّل مع أنّه خُلق في أحسن تقويم، لكنّه لن يبلغ الكمال؛ فهو المخلوق على الحاجة المتطوّرة وإن حَسُن تقويمه، ومع ذلك وإن تيسّرت مشبعات حاجاته المتطوّرة كما تيسّرت لأبينا آدم (الإنسان الأوّل) يظل للرّغبة مؤثراتها، وللمعلومات الخاطئة تأثيراتها السّلبية على النّشوء والارتقاء البشري: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[39].

إذن: فعندما تأتي المعلومة الخاطئة، وممّن تأتي؛ فهي المؤدّية إلى ما يسيء للخَلق الإنساني، أي: متى ما حلّت بين النَّاس المعلومات الخاطئة، حلّ الفساد ديارهم، وساد بينهم الانحراف، ولهذا دائمًا المقدّمات الخاطئة تؤدّي إلى نتائج خاطئة.

ومع أنّ الوسّوسة كانت لأبينا آدم كونه النّبي الذي أنبأه الله بما لم ينبئ به الملائكة، فإنَّ الأكل من الشّجرة المنهي عنها كان من أبوينا معا (آدم وزوجه) اللذين أكلا منها؛ (فَأَكَلَا مِنْهَا).

---

[38] الانفطار 6 ـ 8.

[39] طه 121 ـ 122.

ولأنَّ ما حدث معهما هو درس لهما ولمن حولهما (ملائكة وجن)؛ فهو الدّرس الباقي لمن يأتي من سلالتهما من بشر، فمن يتّعظ يتجنّب المنهي عنه، ويمتنع عن المحرّم والمجرّم، ومن لا يتعظ؛ فسيكون الثّمن لا مقدرة على دفعه، والزَّمن كفيل بذلك، وحتى لا يغفل النَّاس عمّا يجب، بعث الخالق الأنبيَّاء والرّسل منذرين ومبشرين ومذكرين، ليكونوا على حُسن التقويم قوّة: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}40.

وعليه:

فلا كمال للنّشوء الزّوجي (نشوء الجنّة)، ولا كمال للنّشوء التزاوجي (نشوء الحياة الدّنيا)، بل الكمال لله وحده؛ فالنّشوء بنوعيه هو نشوء حاجة، غير أنّ النّشوء في الجنّة نشوء مشبع على التمام، أمّا النّشوء الدّنيوي؛ فهو نشوء الحاجات المتطوّرة التي يحفّها العوز بين الحين والحين؛ ولذلك فالحياة الدّنيا ستظل على الحاجة التي كلّما نقصت جعلت عدد المطالبين بما يشبعها متزايدا، وكلّما اشتدت عوزا جعلت من البقاء عدما.

ومن هنا، ترتبط مصائر البشر بالحاجات ومشبعاتها، ولا بقاء صالح لمن خُلق في أحسن تقويم ما لم تكن مشبعات الحاجات المتطوّرة متطوّرة، ومن يتحكّم في مشبعات الحاجات المتطوّرة، يتحكّم في مصائر البشر، ومن ثمّ، تصبح آلام الحاجة وضرورات البقاء محفّزة على التمرّد والمواجهة مع قبول دفع الثّمن من أجل الحياة.

ارتقاءً الإنسان:

خَلق الله آدم في أحسن تقويم من غير أب ولا أم (من تراب الجنّة) حيث لا إنس من قبله، ولأنّه كذلك، جعله الله على الارتقاء نبيًّا؛ فسجد له

---

[40] الغاشية 21.

الملائكة طائعين، إلّا إبليس، ومع أنَّ آدم قد خُلق في الجنّة والأرض مرتقة في السّماوات، ولكن بمخالفة أمر الخالق أهبط به والأرض ومن كان سببا في إغوائه ومعصيته، وكذلك من قَبِلَ الإغواء معه معصية، وهنا تكمن القوّة التي دعت آدم ندما واستغفارا وتوبة، ولكنّ قرار الهبوط نافذ، {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}41.

ومع أنَّ آدم تاب لربّه، ولكنّ توبته لم تَحُلْ بينه وبين الهبوط على ظهر الأرض إلى الحياة الدُّنيا بعد أن كان على أرض النّعيم قمّة وارتقاءً؛ فآدم عصى ربّه، ثمّ تاب؛ فتاب الله عليه، ثمّ اجتباه نبيًّا، لِيُنبئ من بُعث إليهم نبيًّا، {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}42، ومن هنا، يكمن أمل آدم، في العودة إلى الجنّة ارتقاءً؛ تلك الجنّة التي فقدها ولم يعد يراها نعيما على الأرض المغبرّة التي أهبط بها أرضا، ولكن كيف يعود آدم إلى ذلك النّعيم الوافر؟

لا سبيل له إلّا الاستغفار عن معصيته، والتوبة إلى خالقه؛ ففعل ذلك عن قلب؛ فاجتباه ربّه نبيًّا، وعلّمه ما لم يكن يعلم؛ فأدرك آدم أنّ فرصة العودة إلى الجنّة بعد توبته أصبحت ممكنة إن عَمِلَ وأتقن عمله عن رغبة وقوّة مع قبول تحدّي الصّعاب.

ولذلك؛ فَمِن بعد آدم أصبح العمل هو المِمكّن من إحداث النُّقلة وتحقيق الارتقاء رفعة؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم لم يرها ابناه؛ فهما ولدا في الحياة الدّنيا (السُّفلية)، ولكن إنباء أبيهما أصبح بينهما حُجّة وموعظة وعبرة؛ فبدأ العمل ارتقاءً من أحدهما، وهو يأمل بلوغ ما أنبأه به أبوه الذي شهد ذلك النّعيم؛ فأخذ بالنبأ قوّة وأمل الارتقاء إلى النّعيم نصب عينيه، وفي المقابل أخوه أخذته الشّهوة ضعفًا وسُفليّة؛ فقتل أخاه في الوقت الذي يبسط إليه أخوه يده

41 الأعراف 24.

42 طه 122.

محبّة: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}43.

وعليه:

فالارتقاء مؤسّس على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، ارتفاعا عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الانحدار والسُفليّة، وذلك من أجل بلوغ ما يُمكّن من إحداث النُّقلة الممكّنة من بلوغ الجنّة عيشا رغدا.

ومن هنا، وجب العمل المحقّق للعيش النّعيم الذي فيه الوفرة تغذي الرّوح، وتطمئن النّفس، وتخاطب العقل، وترضي القلب، وتشبع البدن، وتزيد الذّوق رفعة وارتقاءً فتمكن من الأخذ بأسباب القوَّة.

فآدم خُلق في الجنّة، وشهد على نعيمها، وفيها تمتّعَ، ثم حُرم منها وأهبط به والأرض دُنوّا، ولكنّه لم ينس ذلك العيش الرّغِد، والوفرة التي لا تُحصى، والتنوّع المتّسع جمالا، وبخاصّة بعد أن أصبح على الأرض التي لم تأخذ أيّ صفة من صفات الجنّة سوى الماء الذي يبقي على الحياة، ولا يُبقي على النّعيم؛ فأصبحت الحاجة تملأ نفس آدم وزوجه بعد أن حُرما من مشبعاتها المنقوصة في الحياة الدّنيا.

إنّ الحياة الدُّنيا، إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا؛ فهي حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر؛ فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارا من البعض، في مقابل ارتقاءً البعض رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة

43 المائدة 28. 30.

إليه، ولذلك؛ فقد سعى استغفارا وتوبة أهلّته لأن يكون نبيًّا ينبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه، ومن ثمّ؛ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنّة، التي لا تبلغ ارتقاءً إلّا بالعمل وبكلّ قوّة ورفعة.

ومن أجل ذلك، وجب العمل الممكّن من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسا من تروس عجلة الحياة العامّة، ذلك لأنّ الارتقاء الممكّن من السّعادة لا يمكن أن يتحقّق والغير يتألم، ولذلك؛ فالعمل وفقًا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ، وهو: إحداث النُّقلة، وغرض عام، وهو: تحفيز الأخرين ودفعهم تجاهها، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية.

القوّة في دائرة الممكن:

قوّة بني آدم في دائرة الممكن هي: (بين متوقّع وغير متوقّع)، أي: أنّهم بين متوقّع الارتقاء قوّة، ومتوقّع الدّونية ضعفًا؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء قوّة، ومنهم من يتخلّى عنه ضعفًا ولذلك، فمن أجل التغيير إلى ما يجب أن يكون، ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه قوّة وقمّة، وعليهم أن يعرفوا أنّ ما يختلفون فيه هو نتاج اختلافهم وفقًا لمشيئة الخالق تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[44].

إنّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب أن

[44] هود 118، 119.

تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الضعف يؤدّي إلى الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاءً.

فمن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف ارتقاءً، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة؛ فالنّدم يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاءً تذكّر؛ فاتعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراض، والغاية من ورائها قمّة.

ولذلك؛ وجب التدبّر بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين: (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة؛ فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف ضعفًا ووهنًا، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة.

فرجالات الدّولة ارتقاءً هم من لا تأخذهم العصبيّة، ذلك لأنّ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون؛ فرجالات الدّولة ارتقاءً كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كبروا تواضعوا، أمّا المدّعون لذلك؛ فهم مع كلّ هبة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وعلّة الدّولة.

فالدّولة ارتقاءً تستهدف رجالات بعينهم وفقًا لما هم عليه من مكانة، ومع ذلك، تخضعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك هم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن القيم والفضائل الخيّرة، بهدف إعادتهم إليها ارتقاءً.

ومن ثمّ؛ فمن ير نفسه رجل دولة؛ فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كراما هم يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو: الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنية، أو الإنسانية، أو يمسّ معتقدا دينيا.

ولكن من بني آدم من يجهل ويغفل؛ فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين التي تزداد ضيقا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنّ للألم أوجاعا، وللتأزّم أوجاعا ولكن أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك، وجب أخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمّا الحقد بين بني آدم؛ فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: أنّ نار الحقد تحرق أوّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)، ولذلك؛ فالحقد

يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره هو في حاجة لمن يطفئ عنه النّار التي بها نفسه تحترق. ومن ثمّ؛ فمن يعتقد أنّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها؛ فلا شكّ أنّ عضّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا؛ فإنّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم؛ فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُفلية المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب ترتقي علمًا ومعرفة وتسامحا وخبرة وتجربة؛ فتغزوا الأرض سلاما، والسّماء بحثا وارتقاءً.

فبنو آدم الذين بلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله؛ فسيبقون على أملهم وكأنّهم بلا أمل، أمّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل؛ فلا شكّ أنّه سيُسهم في إحداث النُّقلة ارتقاءً، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا، هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس. ولذلك؛ فلا ينبغي أن يكون بنو آدم سمّاعين فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظا، وعليهم بالتدبّر تحليلا وتفسيرا وتخطيطا وسلوكا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر من أجل ما يجب، حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاءً بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبيَّاء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا؛ فهم يأملون العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه، ولأجل ذلك فمن آمن منهم يسع ويعمل من أجله ارتقاءً، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها، ولذلك، هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك؛ فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك، المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعا وتمدّدا.

وهنا، أقول لبعض علمَاء الفيزياء وعلمَاء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم؛ فقد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار من الكون، ولذا؛ فَلِمَ لا تتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله لعلكم ترشدون إلى المزيد من الاكتشاف العلمي، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النَّاس جميعًا). فإن كنتم أهل موضوعية؛ فلا يليق أن تتجاهلوا كتابا يملأه العلم والبيّنة؛ فأنا لا أقول لكم ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية وراء آية.

ولهذا؛ فلا ارتقاءً لبني آدم إلّا والبحث العلمي مصدره، والفضائل الخيّرة مصدره، والقيم الحميدة مصدره، ومن يغفل عن ذلك ليس له من خيار إلّا الانحدار على بلاطة الدّنيا.

ومن ثمّ؛ فالارتقاء بالنّسبة لبني آدم هو: أمل قابل لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمّا الدُّنيا؛ فهي: الأرض، وما عليها من مخلوقّات وزوال الحياة وبين هذا وذاك، وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، وبين التّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير: (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحا أو تعمل طالحا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمّا التّسيير: فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة، هو: ما يمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا؛ فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاءً.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاءً.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب العمل، بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) حيث تُرتق الأرض في السّماء بعد أن فُتقت منها.

فيجب الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود، ذلك لأنّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم. ولهذا؛ فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكان له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعًا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك؛ فالغنى رحمة؛ والفقر أزمة ومواجع، ولأنّهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاءً.

فالغنى ارتقاءً حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر ليس بحقّ، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال. أمّا العجزة والقصّر؛ فحقوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير؛ فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق المسؤولين في الدّولة.

إذن؛ فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤولياته. وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفلية لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقّا وواجبا ومسؤولية.

ولذلك، ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل ارتقاءً.

الارتقاء قيمة تفضيلية خصّ الله بها الإنسان خَلقا وخُلقا؛ فهو في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمّا في خُلقه؛ فينبغي أن يكون على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي أمر بها الخالق، وفضّلها النّاس، {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[45].

ومن هنا؛ فالفرق كبير بين تلك الزّواحف ومكبّة الأوجه، وبين من يمشي سويّا (مقوّما)؛ ذلك هو أمر الخالق؛ فلا يتبدّل، أمّا المتبدّل فهي الأخلاق التي هي بيد المخلوق.

ولذا؛ فلا إمكانية لتلك المخلوقّات أن تتطوّر وترتقي كما يظنّ البعض لتصبح غير زاحفة، أو غير مكبّة الأوجه وفي المقابل يمكن للإنسان الذي يمشي سويّا أن ينحدر خُلقا؛ فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقا.

وهذا ما حصل مع الإنسان الأوّل (آدم) الذي خُلق في أحسن تقويم، ولم يُخلق على الكمال، إنّه الإنسان بين التسيير والتخيير الذي (يصيب ويخطئ)، وبين هذا وذاك يستغفر؛ فيتاب عليه، ومن ثمّ؛ فمخالفة أبينا آدم هي مخالفة تخييريّة ذات علاقة بالإرادة والرّغبة والشّهوة، وهذه مكامن العلل والضّعف النّفسي التي تجرّ لما لا ينبغي (للمخالفة) كما تجرّ لما ينبغي (الطّاعة والاتباع)، ولذلك؛ فحسن التقويم لا يتغيّر، أمّا حُسن الأخلاق في دائرة الممكن؛ فيتغيّر بين سُفلية وارتقاءً.

---

[45] الملك 22.

ولأنَّ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع رُقيّا؛ فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب ألَّا يصحّح ولا يقوّم، كما صحّحه أبونا آدم وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة كشف علله: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}46؛ ذلك لأنّ الكلمات الصّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة، وهذه تتعلّق بارتقاءً الأخلاق، ولا تتعلق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

ومن ثمّ؛ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لا بدّ وأن يقع الإنسان في الخطأ، أمّا الاستثناء في دائرة الممكن ألا يُصححه؛ ولهذا أخذ أبونا آدم بالقاعدة: وهي متى ما وقع الخطأ وجب التصحيح الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصّائبة.

وعليه:

فالارتقاء قيمة خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}47 ولأنّ الإنسان الأوّل خُلق من تراب الأرض المرتقة في السّماء جنّة، كان خلقه في أحسن تقويم، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}48.

ولذا؛ فأساس خلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمّا الاستثناء ألا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه خلقا. وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: ألا يأكلّ من تلك الشّجرة: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا

---

46 البقرة 37.

47 الأنبياء 30.

48 التين 4.

مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}49.

ومن هنا، جاء انحدار أبينا آدم عوضا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خلقا: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}50، حيث الهبوط على الأرض التي فتقت من السّماوات؛ فأصبحت أرضا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍ (في السّماء). ولكن آدم الذي خُلق على حُسن التقويم تدارك أمره فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}51. ولهذا؛ فقد استثنى آدم من الوجود السُفلي كونه تاب الله عليه بسبب استغفاره ورُقي إيمانه: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}52.

وعليه:

فالإنسان الأوّل (آدم) كونه قد خُلق في أحسن تقويم؛ فتقويمه الخَلقي لم يتغيّر، بل الذي تغيّر هو عدم أخذه بما يبقي الأخلاق ارتقاءً، وذلك حينما أخذ بما يغوي، وهو: المنهي عنه، (ألا يأكل من تلك الشّجرة)؛ فحاد آدم عن الخُلق الذي هو بيده تخييرا، ولكن لم يحدّ عن خَلقه المقوّم تسييرا، حيث لا إمكانية له في ذلك.

فالارتقاء خَلقا سيظل باقيا ومميّزا لبني آدم، ولن يتطوّر أكثر من حُسن التقويم، وكذلك لن ينحدر عنه؛ فهو الخَلق الذي لا يتبدّل كونه بيد الخالق، أمّا المتبدّل؛ فهو: الذي بيد المخلوق، وهي: الأخلاق، ومن هنا، أكل آدم من

---

[49] البقرة 35، 36.

[50] التين 5.

[51] البقرة 37.

[52] التين 6.

تلك الشّجرة، حيث الرّغبة والإغواء المزيّف للحقيقة، وهو الذي شوّه الأخلاق انحرافا.

تميّز الإنسان قوّة:

ولأنَّ الخَلق بيد الخالق؛ فلا تخيير، ولأنّه لا تخيير؛ فسيظل من خُلق مكبّ الوجه مكبًّا، وسيظل الزّاحف زاحفًا، وسيظل من يمشي سويًّا على قوامه في أحسن تقويم، ومن ثمّ؛ فسيظل القرد قردًا، والإنسان إنسانًا، والسّمك سمكًا.

ونظرًا لأهميَّة الإنسان في الوجود الخلقي جاء خَلقه من عجلٍ: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}53 والعجل هو الشيء الذي نجهله صفة، وندركه شيئا؛ فقوله: (من عجلٍ) أي: من شيء مميّز، ولم يقل: (على عجلٍ) أي: لم يقل (على تسرّعٍ)؛ فالخالق تعالى يخلق بالأمر لا بالجهد، ولهذا؛ فخلقه لا تسرّع فيه، ولأنّه لا تسرّع، قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}54. مع العلم أنّ العَجل في كلام أهل حمير يعني: الطّين. وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ}55؛ والسّلالة، هي: النّوعيّة الرّاقية من طين الجنّة حيثما كانت الأرض مرتقة مع السّماوات في علاها، وذلك، لأنّ خَلق الإنسان لم يكن على الأرض الدَنيا، بل كان خَلقه على الأرض قبل أن تُفتق، ويُهبط بها دُنيا، ولهذا؛ فالسّلالة تدلّ على أصول الخلق الآدمي من تراب الأرض المرتقة في السّماوات حيث رُقي طين الجنّة.

ومن هنا؛ فسلالة خَلق الإنسان خاصّة به، والسّلالة تعني الجّودة الرّاقية ذات الخاصيّة المتميّزة (جنس ونوع)، ولذا؛ فلا عجل، ولا عبثية في خَلق

[53] الأنبياء 37.

[54] التين 4.

[55] المؤمنون 12.

الإنسان الذي خُلق من طين الجنّة، والذي جودته تصلصل ارتقاءً: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}56.

ولأنَّ الإنسان الأوّل (آدم) قد خُلق في أحسن تقويم على القوّة؛ فهو من حمإ مسنون، (من مادّة ذات جودة عالية) حيث لا شائبة، ومن ثمّ؛ فلا طين يماثلها؛ فالطّين الذي خُلق منه الإنسان من صلصال (أرقى أنواع الطّين).

فخُلق الإنسان مفضّلًا على جميع المخلوقّات بما فيها الملائكة والجنّ: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}57.

ولأنّ الإنسان هو المفضّل خَلقا؛ فعلّمه الله نبأ ما لم يعلمه الملائكة: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}58.

ولأنّ خلق آدم كان أكثر ارتقاءً من غيره، سجد الملائكة إليه طاعة لأمر الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}59، أي: بأسباب الخَلق ارتقاءً والنّبأ العظيم الذي تلقاه آدم من ربّه، كان آدم قوّة؛ فسجد الملائكة له طاعة للنبأ الذي أنبأه الله به قوّة.

---

56 الحجر 26.

57 البقرة 30.

58 البقرة 31 ـ 33.

59 البقرة 34.

ولأنَّ الجنس الآدمي هو المفضّل ارتقاءً، كان آدم نبيًّا للملائكة والجنّ والإنس جميعًا، (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ). فلمّا أنبائهم سجد الملائكة إِلَّا إِبْلِيسَ (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ). وإلّا هل هناك من يشكّ في أنّ الذي سجد الملائكة له، لم يكن على الارتقاء مفضَّلًا؟

أمّا الخَلق الثاني: فهو الخلق المؤسّس على النّطفة (الماء الدّافق): {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}[60]. وهذا الخلق هو الخَلق التزاوجي، الذي يختلف عن ذلك الخلق المصلصل، ممّا جعل السّلالة الثانية تختلف عن السّلالة الأولى؛ فالسّلالة الأولى: من طينٍ لازب، والسّلالة الثانية: من ماءٍ دافق ومَهين: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}[61].

ولأنّ الإنسان خُلق على الارتقاء؛ فينبغي أن يكون عليه قمّة وكأنّه كبد الكون: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[62]، أي: خُلق الإنسان على المحبّة؛ فينبغي أن يكون عليها كبدا تتألم مع من يتألم، وتأمل الخير مع من يأمله، وتعمل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع على تحقيقه، وكذلك ينبغي أن تسعد مع من يسعد، وتسعى استقامة واعتدالا ولا مظالم؛ فتجمع ما تفرّق من أجل إعادة قيمة الإنسان وحفظ كرامته، وما يؤدّي به إلى الرّفعة والارتقاء.

قوّة الإنسان خُلقًا:

تعدّ الأخلاق نتاج القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف ارتقاءً، بها يرتقي الإنسان قوّة من أجل علاقات اجتماعية وإنسانية مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

[60] النحل 4.

[61] السجدة 8.

[62] البلد 4.

فالإنسان أساس خلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) وغايته الارتقاء خُلُقا إلى ما يجب؛ ومع أنّ الأخلاق بيد النَّاس، ولكن البعض يخسرها بلا ثمن.

ولذلك؛ فالإنسان الأوّل قد خُلق قوّة من تراب الجنّة؛ وظل على قوّة خَلقه سلالة بشرية تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده؛ فالإنسان هو الإنسان. ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فآدم وزوجه خُلقا في الجنّة من تراب الجنّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن القيم، حيث عدم التزامهما بالأمر النّاهي عن الأكل من تلك الشجرة: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[63].

إذن؛ فالبقاء في الجنّة بقاء قوّة فضائل خيّرة وقيم حميدة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم عليه الصّلاة والسلام الذي خُلق في الجنّة خَلقا، أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا، وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنَّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة؛ فبعد أن تلقّى آدم كلمات من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[64]، ومع ذلك صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍ وارتقاءً إلى سُفليّة ودونية: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جميعًا}[65].

[63] البقرة 36.
[64] البقرة 37.
[65] البقرة 38.

ولأنَّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم؛ فهو خروج من الجنّة، حيث ظلّت الجنّة في العلو رُقيّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس والجن) يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علو الجنّة ارتقاءً، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدّنيا إلّا تنزيلا لأداء مهمّة تربط أمرا بين السّماء والأرض، نحن نجهله: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}66.

ولأنّها الأرض الدّنيا، وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء، إذن؛ فلا إمكانية لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة والنّاهية والآمرة والمحذّرة والمنذرة والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة، وذلك من أجل علاقات إنسانية تنظّم أساليب الحياة ارتقاءً وتلفت المختلفين إلى ما يؤدّي إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من إحداث النُّقلة وبلوغ القمّة.

فأنزلت الرّسالات تأمر وتنهى: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}67. بمعني: يجب أن يكون الإنسان على الأخلاق الكريمة أينما كان، سواء كان آدم وزوجه في الجنّة ارتقاءً، أم أصبحا وبنوهم على الأرض انحدارا، غير أنّ الحياة العليا بعد تلك الإغواءات قد جُرّدت من النقائص والحاجات التي أثّرت انحدارا على الإنسان الأوّل (آدم) ومن شاركه في المعصية أو حرّضه عليها، وأصبحت الحياة هناك ارتقاءً كاملًا.

أمّا بعد الهبوط؛ فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر، فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك؛ فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا هو بغاية الاتعاظ وأخذ العبر

66 القدر 3. 5.

67 البقرة 190.

من ذلك الإغواء الذي كان سببا في هبوط المخالفين من الحياة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه: (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنّة)؛ فظلّ هذا الدّرس شاهدا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنّة. أي: بما أنّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنّة، إذن؛ فكيف لبني آدم من دخولها؟

أقول:

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[68].

ولأنَّ أمر الهبوط كان أمرا حاسما لمخالفة جرت في الجنّة؛ إذن، ألا يعد أمر الهابطين أمرا حاسما في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مخرج من هذه الأزمة، ومعظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدّونية؟

أقول:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعًا}[69].

ولأنَّ الدّين مصدر الفضائل والقيم؛ فلا إكراه فيه، وهذه عين الأخلاق؛ فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ولذا وجب قول الحقّ وترك النَّاس أحرارا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فوجب الإصلاح الذي

[68] الأنعام 160.

[69] الزمر 53.

يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم: (جهلا أو تعلمًا)، وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاءً.

ولأنّ الأخلاق ارتقاءً هي أساس المعاملة الحسنة؛ فالأخذ بها، لا شكّ أنّه يجعل الإنسان على المحبّة بدلا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}70. أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنّ مشيئة الخالق هي الفاعلة: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا}71. لذلك، كان محمّد عليه الصّلاة والسّلام داع إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق ارتقاءً؛ فالأخلاق تُعدّ قيمة ارتقاءً في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السّلوك يصبح سلوكها قمّة. إذا؛ فمن أراد أن يكون قمّة؛ فعليه بالأخلاق الحميدة ارتقاءً72.

الفرد قوَّة والجماعة أقوى والمجتمع أكثر قوَّة:

الإنسان قوَّة هائلة، تُحقق نجاحات إذا ما استثمرت استثمارا أمثل يستمدها من القيمة التي قوّمه الله بها. هذا التقويم هو الذي جعل من الفرد قوَّة، ومن الجماعة قوَّة مضاعفة ومن المجتمع أكثر قوَّة.

وبما أنّ الإنسان خُلِق في أحسن تقويم.

إذن هو مقوّم بما هو عليه من قوَّة.

---

[70] يونس 99.

[71] يونس 99.

[72] عقيل حسين عقيل، من معجزات الكون (الخلق ـ النشوء ـ الارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م، ص 171 ـ 189.

ولهذا كل ما نراه قويا هو ضعيف أمام قوَّة الإنسان العقليَّة والفكرية والمعرفية والعلمية والذّوقية. وأيضًا مهما نظر للإنسان بأنه قوَّة، فهو الضعيف أمام قوَّة خالقه.

فالإنسان بقوّته يتفكّر ويتذكّر، ويتدبّر ويستقرأ ويستنبط، ويخطط ويقدم فينجز، ثم يُقوّم فيُصحح أو يُطوّر ثم يبلغ خلق الخوارق وهذه قوَّة لا مثيل لها.

ولذا فالقاعدة: الإنسان قوَّة في دائرة الممكن.

والاستثناء: الإنسان ضعف في دائرة الممكن.

ولأنّ الضّعف والوهن هو خروج عن القاعدة، لذا يعمل المتخصصون في التنمية البشرية والخدمة الاجتماعيَّة والتربية وعلم النفس على دراسة الحالات، لأجل تحويل أصحابها من حالة الضّعف إلى حالة القوَّة وفقًا لقاعدة الممكن.

وعليه:

متى سيكون الأفراد أو الجماعات قوَّة؟

أقول:

. عندما يندمجون بقوّتهم مع قوَّة الآخرين بإرادة.

. عندما يتمكّنون من ممارسة حقوقهم.

. عندما يلتزمون بتأدية واجباتهم.

. عندما يكونون قادرون على حمْل مسؤولياتهم.

. عندما يكون لسان حالهم (نحن سويا). كقولهم لا للفساد، نعم للإصلاح- لا للكسل، نعم للعمل.

. بعدما يتمكنون من استيعاب بعضهم بعضا دون تفرقة ولا تحسّس.

. بعد أن يتمكنون من التطلُّع للآخرين.

. عندما يتهيؤوا إلى أحداث التغيير إلى ما هو أفضل وأحسن وأجود.

. عندما يلعبون أدوارا وصلاحيات واختصاصات بمهارات متنوّعة ومتميّزة.

. عندما يستثمرون إمكاناتهم المادّية الاستثمار الأمثل، تمشيا مع كلّ حلقة من حلقات التطّور والتقدم التقني والعلمي.

. عندما تُشبع حاجاتهم المتطوّرة.

. عندما تسود العدالة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات، ويقدر الأفراد والجماعات حق قدرهم.

. عندما يكون التطلّع للمفيد والنافع قيمة في السّلوك والفعل.

. عندما تصبح الثّروة ملكا عامّا لأفراد المجتمع دون أي حرمان من الملكية الحرّة والاستثمار الحرّ.

. عندما تلغى من القواميس السياسية والاقتصادية والاجتماعيَّة كلّ كلمات الإكراه والإجبار والإقصاء والهيمنة بغير حقّ.

. عندما تكون الثّروة قوّة تمكّن الأفراد والجماعات من تجاوز الحدود.

. عندما يكون التعليم قوي ويمكّن من التغيير.

. عندما يرتفع المستوى الصحي للأفراد والجماعات؛ فالصحة قوَّة، والأفراد الذين يغفلون عن هذه القوَّة، يضعف مستوى أدائهم وإنتاجهم، ومتوسط أعمارهم. ولذلك فكلما كانت قوَّة الإنسان وصحته سليمة، تمكّن من تجاوز الصّعاب، والتطلّع بدون تردد إلى الأمام، بما يمكّن من تحقيق أهداف، وإنجاز أغراض، وبلوغ غايات.

ولأنَّ الإنسان كمفردة يعدّ قوَّة، إذن يجب أن يكون لكلّ فرد دور يؤدّيه، ومن ينحرف عن دوره تصبح قاعدة الوجوب إصلاحه ليعود إلى مركزه الطّبيعي الذي ينبغي أن يكون عليه قوَّة. ونظرا لوجود الفروق الفردية في القدرات والاستعدادات والمهارات والتخصصات، فإن الأدوار تتنوع وفقًا لذلك.

وعليه؛ فللإنسان قوَّة في ذاته من حيث:

ـ قوَّة العقل.

ـ قوَّة الحواس.

ـ قوَّة النّفس.

ـ قوَّة العاطفة.

ـ قوَّة الإرادة.

ـ قوَّة القرار.

ـ قوَّة التنفيذ.

ـ قوَّة المتابعة.

ـ قوَّة التقويم.

ـ قوَّة التصحيح.

ـ قوَّة التحدّي.

ـ قوَّة الإنجاز.

ومن ثمّ؛ فالإنسان يستمدّ قوّته من قوَّة خلقه على القوَّة، ويستمدّ قدرتهُ من قدرتهِ، وكل معطيات القوَّة يمكن أن تكون بيده إذا عرف أنّ عقله قوَّة،

وقدراته قوَّة، ومهاراته قوَّة. ومن هنا؛ فإذا فكّر وخطّط، ورسم الاستراتيجيات أنجز أهدافه بكل قوَّة، وإذا لم يستثمر ذلك فلن يكون إلّا ضعيفا.

ولأنَّ الإنسان قوَّة في خلقه كمفردة بشرية؛ فهو أقوى على المستوى الجماعي والأكثر قوَّة على المستوى المجتمعي.

وعليه؛ فالقاعدة:

ـ الفرد أقوى بمشاركته الجماعة.

ـ الفرد أكثر قوَّة بمشاركته المجتمع.

والاستثناء هو:

ـ الفرد ضعف إذا ما قورن بقوَّة الجماعة.

ـ الفرد أكثر ضعفًا إذا ما قورن بقوَّة المجتمع.

ولهذا فإن القوَّة الاجتماعيَّة تكمن في الآتي:

ـ قوَّة العلائق وترابطها.

ـ قوَّة المشاركة وحجمها.

ـ درجة التفاعل وتماسكها.

ـ قوَّة الدستور وتشريعاته.

ـ قوَّة الدّين وتسامحه.

ـ قوَّة العرف وأصالته.

ـ قوَّة القوانين وشفافيتها.

ـ ممارسة الديمقراطية بإرادة.

. اتخاذ قرارات واعية.

. تنفيذ القرارات بوعي.

. حمْل المسؤوليات وتحمُّل ما يترتّب عليها من أعباء.

. التطلّع للأفضل والعمل على إحداث النُّقلة وصناعة الخوارق.

المجتمع مكمن القوَّة:

ولأنَّ المجتمع مكمن القوَّة، فقوّته تُستمدّ من توافقه، وكذلك تستمد من زيادة إنتاجه وجودته، ومن حُسن إدارة مؤسّسات الدّولة خدميّة وإنتاجيّة، ومن تقدّمه علمًا ومعرفة؛ أي: تستمد القوَّة من حُسن التنظيم الاجتماعي من حيث قوَّة القيم والفضائل التي تجعل أفراد المجتمع وجماعاته في حالة وحدة لا في حالة تجزئة وانقسامات، وكذلك التنظيم الاقتصادي من حيث قوَّة الإنتاج المشبع للحاجات المتطوّرة، والمنافسة التي تُمكِّن أفراد المجتمع وجماعاته من التطلُّع إلى كل مفيد ونافع وأيضًا التنظيم السياسي من حيث قوَّة اتخاذ القرار وتنفيذه ومتابعته وتقييم النتائج المترتبة على تنفيذه.

وعليه:

فالقاعدة البنائية تكمن في:

. قوَّة التنظيم السياسي.

. قوَّة التنظيم الاجتماعي.

. قوَّة التنظيم الاقتصادي.

والاستثناء هو:

. ضعف التنظيم السياسي.

. ضعف التنظيم الاجتماعي.

. ضعف التنظيم الاقتصادي.

ولذا إذا أرِيدَ للمجتمع أن يكون قويّا؛ فعليه بتمكين أفراده من ممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي في المجالات الآتية:

المجال الاجتماعي.

المجال الإنتاجي.

المجال السياسي.

المجال النفسي.

المجال الذوقي.

المجال الثقافي.

وعليه فالقاعدة هي:

. اعتماد القوَّة في الكلمة.

. اعتماد القوَّة في الفعل.

. اعتماد القوَّة في السّلوك.

والاستثناء هو:

. عدم اعتماد القوَّة في الكلمة.

. عدم اعتماد القوَّة في الفعل.

. عدم اعتماد القوَّة في السّلوك.

العقل قوَّة:

ولأنّ ملكة التمييز قوَّة، فإنّ تنميتها تجعلها في حالة فطنه، ولذا فتنميتها تُمكّن الإنسان من التمييز والتبيُّن. ولهذا في ملكة التمييز الفطنة دائمًا في حالة تأهب واستعداد للإقدام واتخاذ قرارات صائبة، وتحقيق نجاحات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

وعليه فالقاعدة هي:

. ملكة التمييز قوَّة.

. تنمية ملكة التمييز فطنة.

والاستثناء هو:

. ملكة التمييز ضعف.

. عدم تنمية ملكة التمييز غفلة.

ولذا فإنّ تنمية ملكة التمييز تؤدّي إلى الآتي:

. زيادة درجة الوعي والفطنة.

. التبيُّن عن ثقة.

. معرفة ما يجب والإقدام عليه.

. معرفة ما لا يجب والإحجام عنه.

. استبصار مكامن القوَّة ومكامن الضّعف.

وتكمن قوَّة العقل في الطريقة التي يُفكّر بها الإنسان، وفيما يفكّر وإذا ما تمكّن أخصائي التنمية البشرية والاجتماعيَّة من فهم الطريقة التي يُفكِّر بها

الإنسان، وفيما يفكِّر، واكتشف مكامن القوَّة والضعف، يستطيع أن يرشده إلى كيف يُفكر بقوَّة فيما هو أصح.

إنّ عقل الإنسان، هو الذي يمكِّنه من استقبال المعلومات عن طريق الأعضاء الحسية، ونقلها إلى الدّماغ ليقوم بتحليلها وترجمتها في سلوك وفعل مُشاهد وملاحظ.

وعليه:

وجب خلق النُّقلة في عقل الفرد أو عقل الجماعة؛ لتكون النُّقلة في كيفية التفكير وفيما يجب أن يكون التفكير، لتكون العوائد منافع ومكاسب معرفية ومادية وهذا الأمر يتطلّب الآتي:

- تنتظم المعلومات في عقل الإنسان في شكل مسارات عصبية متّصلة، وكلّ معلومة أو فكرة تتحرّك في مسارها الخاصّ، بما يُعطي ترابط عصبي بين المعلومة المخزّنة في الدّماغ مع ردود أفعال كلّ إنسان، فعلى سبيل المثال: الإنسان الذي سبق وأن سُجن وأفرج عنه، فهو كلّما مرّ بأسباب مشابهة بالتي جعلته بين الجدران سجينا تفكره بترابط عصبي في تلك الأعوام التي قضاها وهو مسلوب الإرادة.

- في كلّ مرّة يحدث فيها ترابط عصبي، يبحث عقل الإنسان عن السّبب الذي جعله يشعر بالألم أو المتعة، ويُسّجله في جهازه العصبي، بحيث يتمكّن من اتخاذ قرارات أفضل حول ما سيفعله في المستقبل. ومثال على ذلك: ذلك الفرد الذي قام بفعل السّرقة وعوقب على فعلها، فحدث له ترابط عصبي قد يمنعه من تكرار حدوث هذا الفعل.

- أمّا الفعل أو السّلوك الذي يسلكه الإنسان لأوّل مرّة، ولم يقم بتكراره، يُولّد عنده رابطة عصبية سرعان ما تضمر وتفشل في إرسال إشارات

عصبية تُحفِّز على تكرار السّلوك والفعل، وهنا يكون التغيير في السّلوكيات والأفعال المنحرفة بصورة أكثر فاعلية.

لذا يأتي دور المتخصّص، الذي يسعى إلى إحداث تغييرات في سلوكيات الفرد أو الجماعة المنحرفة انحرافا سالبا، حيث عليه أن يدرك أنَّ أي تغيير في السّلوكيات المنحرفة التي تسلك لفترة طويلة من الزَّمن، تحتاج إلى طريقة فعّالة لإحداث التغيير؛ ذلك لأنّها كوّنت روابط عصبية قويّة في العقل البشري، ما يجعل الضّرورة تُلحّ على إيجاد بدائل في الأساليب، منها:

- تغيير الأساليب.
- تبديل الأساليب.
- تعديل الأساليب.
- تنوّع الأساليب.

عليه:

- قوّي إرادتك.

. صحّي نفسك من غفلتها.

. نمّي قدراتك.

. هيئ استعداداتك.

. استثمر إمكاناتك.

. استرجع ماضيك وأخضعه للتقييم.

. استقراء حاضرك وقارنه مع أهدافك.

. تطلّع لمستقبل أفضل.

. تحدى الحاضر واقبل بتحدي الصّعاب.

. أقدم على العمل ولا تتوقف عند التخطيط فقط.

. فكّر حتى تصنع خارقة.

الحواس قوَّة:

الإنسان مقوَّم بحواسه، فبها يُميّز ويدرك ويشعر ويسمع ويشم ويلمس وينظر ويشاهد ويُلحظ ويحب ويكره ويفرح ويحزن.

ولذا فإن القاعدة هي:

قوَّة الحواس.

والاستثناء هو:

ضعف الحواس.

ولأنّ الحواس قوَّة؛ فهي تكمن في الآتي:

- قوَّة البصر.

. قوَّة البصيرة.

- قوَّة الاستماع.

. قوَّة الإنصات.

. قوَّة الإحساس.

- قوَّة الذّوق.

- قوَّة اللمس.

- قوَّة الحاسّة التامّة.

وبما أنّ الإنسان قوّة فليس له علاقة بالضّعف إلا إذا قورن بخالقه ومن ثمّ؛ فالذين يركنون إلى الضّعف هم الذين اختاروا الجلوس في قاعات الاستثناء التي لا يليق الجلوس فيها لمن خُلق قويّا. ولأنّ الأفراد والجماعات قوّة مندمجة بوحدتهم، فهم بها قادرون على إحداث النُّقلة كلما تمكّنوا من اكتشاف القوّة فيهم.

البصر قوّة:

البصر نعمة من نعم الله علينا، فهو القوّة، التي تمدنا بقوّة النّظر والمشاهدة، حتى تُمكننا من الانتقال والامتداد الحرّ، وتمكّن البحاثة والأخصائيين الاجتماعيين من متابعة ردود الأفعال واستقرائها بوعي وتقصي دقيقين، حتى الوقوف على العلل والمسببات الكامنة والظّاهرة التي تؤثّر على المتغيرات ذات العلاقة بالموضوع قيد الدّراسة أو البحث.

ولذا كلما نظر الأخصائي الاجتماعي للعميل أو الفرد أو للجماعة، وأعينهم تنظر إلى أسفل وهم في حالة خشية يعرف جيدا أنّ ما في أعينهم من خشية هي القوّة التي تُمكّن العملاء من مشاهدة الأخصائي ولو خلسة ما يستوجب الفطنة من الأخصائي الاجتماعي والمشاهدة الواعية حتى لا تتم الغفلة عن كلّ مهمّ ونافع لدراسة الحالة سواء كانت حالة فردية أو حالة جماعية أو مجتمعية.

وهكذا عندما ينظر إلى الفرد والجماعة والعملاء وهم في حالة من الارتخاء، عليه أن يعرف أنّهم في حالة تجميع قوّة قد تكون خارقة، فتمكّنهم من إخفاء الحقيقة عنه. لذا ينبغي ألّا تغفل عن أهمية المشاهدة وقوّتها، وأن يعرف بأنّه أمام قوّة، وحتى وإن اعتبر نفسه قوّة فعليه أن يعرف بأنّه أمام قوّة تمتلك المشاهد مثلما هو يمتلكها؛ فلا يستهان بمن هو أمامه من هم قيد الدراسة، ولا

يغفل عن عنصر المفاجأة الذي قد يضعه في دائرة غير المتوقّع؛ فعلى سبيل المثال: من يدّعي المرض لكي يتحصّل على ضمان اجتماعي من الدّولة، يتظاهر بعدم المقدرة على العمل والإنتاج، إلاَّ ما يمكِّنه من التحرّك في خطى غير ثابتة. وبمشاهدة الأخصائي الاجتماعي له في المؤسّسة خلال فترة المقابلة، فقد لا يشاهد منه إلّا سلوك الكسالى الذي يتظاهر به بغرض استدرار عاطفته أو عاطفة العاملين في المؤسّسة. وبمشاهدته عن بعد في الزّمان والمكان اللذين لا يتوقّع أنّه يخضع فيهما للمشاهدة قد تجده من الذين يركضون ويحملون الأثقال. ولذا ما كان يظهره من سلوك مصطنع هو فقط لأجل حصوله على معاش ضماني (المعاش الذي يدفع لغير القادرين).

ولهذا فإنّ القاعدة هي:

قوَّة المشاهدة والملاحظة.

والاستثناء:

ضعف المشاهدة والملاحظة.

وعلى الأخصائي الاجتماعي أن يعرف إنّ من يستطيع أن يُظهر الضّعف والوهن أمامه من العملاء؛ فهو قوَّة، فلو لم يكن قوَّة ما تمكّن من إظهار ضعفه أمام الأنظار، لأجل أن يحقّق غاية في نفسه، ولذا على الأخصائي أن يكون يقظا وفطنا وواعيا بمن هو أمامه من قوَّة وإلّا سيقع في دائرة الممكن غير المتوقّع.

وعليه فإنّ الضّعف والوهن ليس دائمًا في المكوّن الكمي للزّبن أو العملاء أو الجماعة أو المجتمع، بل الضّعف في معظم الأوقات يتمركز على العقول التي تفكّر، والعيون التي تنظر، فمن المهم أن يعرف الأخصائي كيف يفكر الأفراد وكيف تفكر الجماعة؟ وفيما يفكّرون؟ وكيف يستطيعون تحديد

أهدافهم؟ وكيف يخططون لإنجازها؟ وكيف يُهيئون أنفسهم لذلك؟ وكيف يستثمرون إمكاناتهم؟

فالمتخلفون اجتماعيًّا أو ثقافيًّا أو اقتصاديًّا أو نفسيًّا أو سياسيًّا، يكمن الضّعف في الأهداف التي حددوها، والطموحات التي رسموها لمستقبلهم؛ ولهذا ينبغي إحداث التغيير في الطموحات الضّعيفة، إلى طموحات قويّة، تستمدّ قوّتها من قوَّة المشاركين في إنجازها. فاقتناع الفرد أو الجماعة أو المجتمع بأنهم قوَّة تُمكنهم من إعادة صياغة قوّتهم فيما يجب.

البصيرة قوَّة:

البصيرة هي مرتكز قوَّة الذّاكرة التي يستمدّ البصر منها قوّته؛ ولذا فهي التمييزية التي بها يتمكّن الإنسان من التمييز بين ما يجب ويقدم على أدائه، وبين ما لا يجب وينسحب عن أدائه، أو يمتنع عنه.

والقاعدة:

قوَّة البصيرة.

والاستثناء:

ضعف البصيرة.

ولذا؛ فالبصيرة مُدرك عقلي وليس مُدرك بصري، فيها موازين العقل ومميزاته ومدركاته، بها يتمكّن الباحث من التحليل والتشخيص والتعليل؛ حتى اكتشاف نقاط الوهن، ومن ثمّ يعمل على تقويتها أو تغييرها.

إنَّ الغوص في هذا المدرك العقلي يُمكن من امتلاك الفطنة واليقظة التي بدورها تُحفّز على ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات دون تردد ولا تأخير.

وعليه:

. فكّر بعمق حتى لا تضمر بصيرتك.

. قارن بين الدّقيق والأدق منه حتى تقوى بصيرتك.

. فكّر في دائرة الممكن غير المتوقّع مثلما تفكر في دائرة الممكن المتوقّع.

. تمرَّن حتى تمتلك القوَّة التي تُلفتك لنفسك وتُمكنك من ملاحظة الآخرين وما يدور من حولك.

. شخّص كلّ حالة تطّلع عليها لتكتشف خفاياها، وتختبر مقدرتك التي بها تتغذى البصيرة.

. استرع محفظتك من الذّاكرة وأخضعها للتقييم، ثم قوّم حالتك حتى تستبصر ما كنت عليه، وما يجب أن تُغيره بقوَّة الإرادة.

. استوضح نفسك مثلما تستوضح شخصيات العملاء والأفراد الذين تتولّى حالاتهم بالدّراسة حتى تتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة، وإحلال محلها قوَّة البصيرة، وتُسهم معهم في كشف الخفايا التي تُعثر أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم حتى تنير الدروب المظلمة أمام بصائرهم، حتى يرشدوا إلى سبل الحياة الاجتماعيَّة والإنسانية وفقًا لقاعدة ما يجب، لأجل إحداث النُّقلة إلى ما هو مُفضّل.

. اكشف قوَّة البصيرة للعملّاء حتى يتمكّنوا من استقراء واستنباط الألم النفسي الذي يقع على الضحايا وذويهم (ضحايا الانحرافات السّالبة) حتى يستيقظوا من الغفلة التي انغمست أنفسهم فيها.

. لا تترك البصيرة ملكة عقليَّة للتخزين فقط، بل اجعلها في حالة حركة ويقظة مع ما يجري ويدور من تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية وذوقية وثقافية في المحيط الاجتماعي والإنساني.

. اصحى وصحي العميل من الغفلة حتى يتمّ التعرّف على النفس وما يجري من حولها، واجعل العميل يستبصر أمره بكلّ موضوعية حتى يتذكّر الماضي الذي أسهم في غفلته عمّا يجب، واعمل على إعادته بكلّ ود إلى البيئة والمحيط الاجتماعي والإنساني.

. فتّش نفسك ببصيرة مثلما تفتّش شخصية العميل، وأكشف أسرارك بتجرّد أمام نفسك واسترها أمام الآخرين، وهكذا كُن مع العملاء حتى يستبصروا ما بهم دون خجل.

. تنزه في نفسك حتى تستبصر من أنت، وتستبصر ما لك وما عليك، وتعمل على الإصحاح.

. تحدّى عقلك بالتفكير فيه حتى تستبصر بصيرتك.

. اعرف أنّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، فلا تغفل عنها، وإن قبلت بالإغفال عنها ستجدها السبّاقة على ذلك وتكون أنت من الخاسرين ولذا فالبصيرة تضعف عندما تدخلها الغفلة، ولهذا عليك بالانتباه والتيّقظ؛ فالغفلة تجعلك لا تعي بما فيك، وما لك من قوّة (قدرات واستعدادات وإمكانات وحيويّة). ولا تجعلك تعي بمن حولك من الناس، أفراد وجماعات ومجتمعات أو حكومات ولا تعي بما تحاط به من ظروف ومواقف وإمكانات وما يحيطك من أفكار ومعلومات.

الاستماع قوّة:

قوّة الاستماع تكمن في دقة التتبع وتوجيه حاسة السّمع عن وعي لكلّ كبيرة وصغيرة تُقال، ولذا فهي ترتبط بقوّة الإدراك حيث الاستماع القوي يؤدّي إلى المزيد من الإلمام بالموضوع.

وعليه:

. عليك بالاستماع إذا أردت أن تعرف ما يجري، أو أردت أن تعرف الحقيقة، فما يرويه المبحوث أو العميل قيد الدّراسة لا تستهين به؛ فهو مهمّ سواء أكان صائبا أم أنّه على درجة من درجات الخطأ أو الكذب. فإذا كان صادقا: فالأخذ به يفيد كثيرا. وإذا كان كاذبا، فأخذ الحيطة والحذر منه هو الآخر يُفيد كثيرا، ولذا فإنّ مثل هذا الأمر يُفطِّن إلى أهمية الإصلاح بعد معرفة المستوى القيمي الذي عليه شخصية العميل أو المبحوث.

. استمع مباشرة لذوي العلاقات المباشرة بالحالة أو الموضوع المدروس، واستمع أيضًا لذوي العلاقات بهم، وعليك أيضًا أن لا تغفل عن الاستماع لِما يُروى من المحيط الاجتماعي حتى تعرف عن بينة، وإن لم تفعل ذلك فقد يُغرّر بك.

. تفهّم ظروف الفرد والجماعة والمجتمع، حتى لا تصدر أحكام غير موضوعية، وقدّر كلّ خصوصية ظرفية وفقًا للحالة والزّمان والمكان.

. هيئ العملاء للاستماع إليك، ولكن ليس كمستقبلين للمعلومات التي تصدر فقط، بل كمشاركين في عمليات الدّراسة. وعليك أن تعرف مثلما ترغب في استماع العملاء إليك هم أيضًا يرغبون في استماعك إليهم بكلّ عناية وانتباه.

. رتّب أفكارك وفقًا لأولويات ما تستمع إليه، ولا ترتبها وفقًا لأولويات الموضوع الذي أعددته مسبقا، ففي بعض الأحيان لا يقبل العملاء الرّوتين ما يجعل بعضهم يسرحون وهم على حالة من الملل.

. الاستماع والانتباه عن وعي قوّة تُشعر العملاء بقوّة التّتبع التي يلاحقهم بها الباحث، وفي مقابل ذلك إذا شعر العملاء بغفلة أو سرحان من قبل الباحث

أو الأخصائي الاجتماعي يصبحون غير مبالين بما يقال، وقد يستهترون بما يجري أثناء المقابلات معهم.

. الاستماع الجيد يهيئ العملاء للاستجابة؛ فاستمع جيد حتى يتهيؤون، وإلّا لن تبلغ المقاصد المهنية التي تسعى إليها، لذا فسلامة الحواس ضرورة بالنسبة للباحثين عن الحقائق بموضوعية.

الإنصات قوَّة:

الإنصات تقصي لما يمكن أن يُسمع؛ ممّا يستوجب السّكوت من أجل الاستماع، وسكون عن الحركة التي قد تؤثر على استقبال ما يُستمع إليه، ولذلك فالإنصات بقوَّة الانتباه هو إنصات بوعي وتتبع دقيقين. والسّكوت فيه تقدير للمتحدث، وهو متابعة بالعقل لأجل أن يتم استقبال الكلم.

وعليه:

. انصت بقوَّة حتى لا تخسر شيئا من الحديث الذي تنصت إليه، وتابع منطلقات الكلم وأساليب إخراجه ودرجة شدته ومدى علاقته بالمتكلم من حيث التفاعل مع ما يقال من عدمه.

. اسكت فالسّكوت في وجوبه يمكّن من تجميع القوَّة الشّاردة، حتى الإلمام بما يتضمّنه الموضوع وما يحتويه من متغيرات.

. انصت حتى يتمكّن العقل من استقبال المعلومات ويتمكّن من تبويبها وتصنيفها وترتيبها حسب أولويات الموضوع أو الحالة قيد الدّراسة.

. تجاوب مع ما تنصت إليه بالسّكوت والاستماع، واعرف أن السّكوت في محلّة قوَّة.

. انصت حتى تتبيّن، ولا تستعجل على الكلام؛ فالكلام في غير محله ضعف، والإنصات في محله قوَّة.

. تزامن في انصاتك مع بداية الحديث ولا تتأخر عن ذلك، حتى لا تفوتك بدايات الكلام، وحينها قد لا تتمكّن من معرفة القواعد التي يُبنى عليها ما تستمع إليه من حديث.

. انصت فالإنصات قوَّة انتباه تحقق التوافق بين المرسل للكلم والمستقبل له، كما تحقّق التوافق بين الكامن من الحديث والظّاهر منه.

. انصت من أجل معرفة الحقيقة ومكامنها وخفاياها، حتى تتمكّن من التحليل الموضوعي والتشخيص بكلّ مهارةٍ وفنٍّ.

الأحاسيس قوَّة:

الأحاسيس قوَّة إيقاظ المشاعر بما يدور في المحيط النفسي والمحيط الاجتماعي والمحيط البيئي، من خلال كلّ ما يُلاحظ أو يُشاهد أو يُسمع أو يُلمس أو يُشم أو يُذاق. إنّها القوَّة المعرفية التي تمدّ الإنسان بالطّاقة التي تجعله في حالة استيعاب أو في حالة إقصاء وتحديد مواقف قد تُتخذ في محلها وقد لا تتخذ في محلها.

وعليه:

. الإحساس قوَّة، تحقّق الفطنة وترتبط بالمدركات الواعية التي تجعل الأفراد والجماعات يميّزون ويتمكّنون من الاختيار الحرّ.

التمييز الحسّي قوَّة، تكمن في درجة التبيّن، التي تُمكّن من اكتشاف نقاط التداخل والخصوصية والاستقلالية بين المتغيرات المستقلّة والتابعة والدخيلة والمتداخلة.

. التمييز الحسي قوَّة مقارنة بها تُصنَّف المعلومات وفقًا للدّرجة والنّوع والجنس، وبما يميّز كلّ خصوصية عن غيرها، وبما يؤدّي إلى كشف نقاط التمركز المشتركة مع بعض الخصوصيات الأخرى وكذلك نقاط التشتت عنها.

. التمييز الحسي قوَّة استيضاح للكلمة التي تحمل دلالة ومعنى، ومدى علاقتها بالموضوع حتى يتمّ فرز المتشابهات عن غيرها من المخالفات.

. يستدل الأخصائي الاجتماعي بقوَّة الإحساس على ما يَقبله العملاء (أفرادا أو جماعات) وما يَرفضونه، قبل أن يبدأ في عمليات التشخيص.

. بقوَّة الحسّ يتم التعرف على ما هو سلبي والعمل على تفاديه، وما هو إيجابي والعمل عليه أو العمل به.

. الحسّ قوَّة استدلالية تربط المشاهد المحسوس بالملاحظ المجرّد الذي يُمكّن من ربط علاقات بين الأشياء كما يُمكِّن من فصلها بدلائل إثباتيه.

. الحسّ قوَّة برهنة، يستند على معطيات ويصل إلى نتائج تُدرك بقوَّة المنطق والحُجّة.

. الحسّ قوَّة لغة وتفاهم بها تُكتب الكلمات بالملامسة، وبها تُقرأ حتى من قبل فاقدي البصر.

. ترتبط الأحاسيس بالوجدان الكامن الذي يتألم بما يترك أثرا سالبا على النّفس، وبما يترك أثرا موجبا عليها، ولكلّ منهما استجابة تختلف باختلاف الأثر ونوعه ودرجة حدته أو درجة مرونته.

. الأحاسيس قوَّة تأهّب تستقبل المعلومة وتقدّمها للترجمة الفورية التي تمكّنها من التمييز لتستجيب سلبيًّا أو تستجيب إيجابيا، وفي كلا الحالتين فالعقل هو الذي يتّخذ القرار المناسب لكلّ فعل وفقًا لقاعدة (لكل فعل رد فعل).

. قوّة الأحاسيس قوّة دافعة لتكوين علاقات مع الآخرين؛ فكلّما سلمت الحواس التي بها يتمّ الإدراك تكوّنت علاقات موجبة بين الأنا والآخر.

ولذا فالقاعدة هي:

1 . اتزان الأحاسيس.

2 . قوّة الأحاسيس.

والاستثناء هو:

1 . عدم اتزان الأحاسيس.

2 . ضعف الأحاسيس.

الذّوق قوّة:

الذّوق ملكة عقليّة وقوّة يتمكّن من خلالها المتذوق من المعرفة الوافية، التي تُمكّنه من كشف العلاقات التي تتجسّد في المذاق، وكشف العلائق التي تربطه بالمجرّد، فهي لا تقتصر عند حد المشاهدة، بل تمتدّ لتشمل ما هو ملاحظ، ولذا ترتبط هذه الملكة الذّوقية بقوّة الإحساس مع ملكة التفكّر والتدبّر والتذكّر.

في الملكة الذّوقية تنعدم الغفلة وتسود الفطنة، حتى تتمكّن كلّ خلية من التناغم مع جميع الخلايا المتماثلة معها في المكون البشري، ما يجعل الذّوق محقّق الرفعة بين الأنا والآخر بالتماثل.

تتوحّد الأحاسيس والمشاعر مع الخيال الذي يسعى إلى طي الهوة مع الأمل حتى تتمّ ملامسة القيم التي تُعزز الإرادة، وتحقّق التفاعل الوجداني، بين الرّغبات والطّموحات التي تُمكّن الفرد من اكتشاف الحُسن الممتد في المسافة بين المشاهد والمجرّد.

الذّوق مكوّن قيمي، له من المعايير والمقاييس ما يمدّ الإنسان بوضوح الرّؤية ونضج القرار المترتّب على ذلك، ولهذا فالجمال قيمة ذوقية لا يكمن في ذاته، بل يكمن في الجميل مشاهدا أو مُجردا، حركة أو سكونا، إظهار أو إدغام، تجويدا أو لحنا، لونا أو نغمة، وعليه لا يمكن أن يوصف الجمال بذاته، بل يوصف بالجميل الذي توحّد أو اشتمل فيه.

وعليه:

. تذوّق وفطِّن الآخرين إلى ذلك، فالذّوق حاسّة عقليَّة وملكة تنمو كّما تُنشَّط وتُستثار، وتضعف وهي تنتهي كلّما تُهمل.

. لا تستغرب فالذّوق قوَّة ذهنية تستفز كلّ من يفكّر ذوقيًّا حتى تجعله متوّجًا على قمم التأمّل وتُمكّنه من التقييم الموضوعي بعد تعمّق وانتباه عميقين.

. ميّز بذوقٍ رفيع؛ فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يميّز بين ما فيه رفعة وبين ما لا رفعة فيه.

. عليك بمراعاة الذّوق العام واحترامه إذا أردت أن تنال الاحترام والتقدير من الآخرين.

. اعتبر الخصوصيات الاجتماعيَّة التي يرتسم الجمال فيها كما هو يرتسم بها، ولا تغفل عمّا يُدخل البهجة والفرحة في النفوس، ولا تُعمم معاييرك الاجتماعيَّة ومقاييسك الفنية الخّاصة وتفرضها على معايير ومقاييس الآخرين.

. اعتمد الذّوق قيمة لتبعث في نفوس العملاء القوَّة التي تمدّهم بالرّفعة ولا تنظر للعميل أو المبحوث بنظرة دونية خالية من كلّ ذوق.

. إبدأ مع العملاء من حيث هم بلطف ولباقة ذوقية إذا أردت أن تغيّر أحوالهم أو حالاتهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه.

ـ كُن فطنا فالذّوق قوّة قيمية يتمركز على كلّ الأشياء الجميلة التي نتفاعل معها.

ـ اعرف جيّدا أنّ الإحساس بأثر القيم التي تُشكِّلها ملكة الذّوق، تختلف من شخص لآخر ممّا يترتَّب عليه تفاوت في درجات التذوّق لها، فالشخصية الواقعية مثلا: هي التي تعتمد على العقل في تقدير وتقييم الأشياء فتقْدِم على أداء الأفعال بعد أن تتبيّن وتعرف ما يجب وما لا يجب، فتكون العلاقة بينها وبين الآخرين علاقة أخذ وعطاء. أما الشخصية الأنانية، هي التي تعتمد على المصلحة الخاصّة، تقيّم الأمور برؤاها دون مراعاة للمحيطين بها، ما يجعل علاقتها معهم علاقة مصلحة.

الحاسّة التامّة:

الحاسّة التامّة: هي التي تتداخل فيها جميع الحواس، البصر والبصيرة والاستماع والإنصات والذّوق والتذّوق والحس والإحساس والشّم واللمس.

ولذا؛ فهي العمليَّة التفاعلية للحواس، حول ما يُشاهد أو يُلاحظ أو يُدرَك أو يُستمَع له أو يُذاق أو يُشم أو يتمّ التفكير فيه.

إنّها الحاسّة (القمَّة) التي فيها تعمل جميع الحواس في وقت واحد وبكلّ قوَّة، حتى تتجسّد الحركة في الفعل والسّلوك الذي يجعل المتحرّكين في حالة نشوة، ويقوى الإدراك، وتقوى البصيرة، ويتحقّق التفاعل، ويتحقّق الرُّقي الذّوقي الذي يجعل الإنسان قمّة.

وعندما يتمّ التداخل بين الحواس، يكون الشيء الذي نفكّر فيه ذو قيمة. ولهذا لا تحدث النُّقلة بحاسة واحدة، بل تحدث بسلامة الحواس واكتمالها في وحدة واحدة تامّة.

وعليه، فالمس مع عقلٍ، واسمع مع بصرٍ، وشُم مع ذوقٍ، وتدبّر مع تذكّر وتفكّرٍ، وشاهدة مع ملاحظة حتى تكون في نُزهة ورفعة عالية وتنال الاعتراف والتقدير من الآخرين.

النّفس قوَّة:

النّفس قوَّة باطمئنانها، وبتأديتها للعمل الصّالح، وإقدامها على قول الحقّ وسلوكها لأفعال الخير، وكذلك عندما تحسن التصرّف والمعاملة وتهتدي إلى الطّريق المستقيم. وفي مقابل ذلك تأتي النّفس الضّعيفة الأمّارة بالسّوء وإلحاق الضّرر بالآخرين، وعندما تُظهر مالا تخفي، وعندما تَشُح في وقت ينبغي أن يكون فيه العطاء، وكذلك عندما تركُن إلى إصدار الأحكام الظّنية بغير حقّ.

ولهذا؛ فالفرد قوَّة بنفسه، والجماعة قوَّة بمجموع الأنفس التي تكّونها، والمجتمع أكثر قوَّة، ولذلك يعمل أخصائيو التنمية البشرية والخدمة الاجتماعيَّة على معرفة ماهية هذه القوَّة وكيفية عملها، من أجل استعادتها إلى القاعدة (الإنسان قوَّة).

وتكمن قوَّة الأنفس في قدرات قابلة للنّمو، واستعدادات مهيأة للعمل الفعّال، ومشاعرٍ يخشاها الخوف.

ولذا فالقاعدة هي:

1 . قوَّة النّفس.

2 . قدرات قابلة للنمو.

3 . استعدادات مهيّأة للعمل الفعّال.

مشاعر يخشاها الخوف.

والاستثناء هو:

1 . ضعف النّفس.

2 . قدرات غير قابلة للنّمو.

3 . استعدادات غير مهيّأة للعمل الفعّال.

4 . مشاعر يُداهمها الخوف.

ولهذا يجد أخصائيو التنمية البشرية والخدمة الاجتماعيَّة أنّ قوَّة أمامهم (موجبة وسالبة) الموجبة تسخّر في اتجاه ما يُمكّن من إحداث النُّقلة للأفضل. والسُالبة، تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة، ومن هنا، يجب أن يعمل الإخصائيون على تعديل السُلوك وتقويمه إلى ما يجب. ومع ذلك قد لا يُوفقون ما لم يتعرّفوا على مصادر القوَّة عند العملاء والأفراد قيد البحث والدّراسة.

وعليه تستمدّ النّفس قوّتها من قوَّة العقل وقوَّة الحواس وسلامتها؛ فالأفراد والجماعات الذين يُفكّرون بوعي سليما يستطيعون تحديد أهداف واضحة ويرسمون خططهم بموضوعية ويحشدون الإمكانات المتاحة ويسعون إلى البحث عن المزيد المفيد.

العاطفة قوَّة:

الحنان والمحبّة هما القوّتان التوأم مولودا قوَّة العاطفة، ولهذا لا مِحنة ولا محبّة لو لم تكن العاطفة سابقة عليهما؛ فالعاطفة قوَّة تقع في دائرة الممكن السّالب والممكن الموجب (المتوقّع وغير المتوقّع)، وهي التي تمدّ المولود بدفء الأمومة ودفء الأبوّة، وتمده بحرارة الالتصاق.

ومن باب الوجوب والضّرورة يسعى الإخصائيون إلى تقوية العاطفة الواعية بأهمية الأبوّة والأمومة والأخوّة والعمومة وحقّ الجيرة في الاحترام والمساعدة الهادفة.

ولأنّ العاطفة قوّة؛ فلا ينبغي الإغفال عنها أثناء تناول الحالات أو المواضيع بالبحث والدّراسة.

العاطفة إذا لم تستثمر في أوجهها تدخل في دائرة غير المتوقّع السّالب، ما يجعل الضّعف يدخل إلى نفوس الأفراد أو العملاء بدلا من دخول القوّة إليهم. ففي المواقف السّالبة عاطفيا لا يتمكّن الأفراد من اتخاذ قرارات واعية، ولا يتمكّنوا من رسم سياسات موضوعية، ولا يتمكّنوا من تصميم استراتيجيات لصناعة المستقبل النّافع والمفيد.

وعليه:

. كُن قويّا بقوّة عاطفتك لا بضعفها.

. كُن محبّا بصحوة نفسك لا بغيبوبتها.

. كُن حنونا بمودّتك لا بجحودك.

. ثق أنّك قوّة.

. تحكّم في عاطفتك دون أن تطمسها.

. ميّز بين المحبّة الثابتة والعاطفة المهتزّة.

كيف تصنع أملًا:

ومع أنّ الإنسان ارتقاءً خُلق مسيّرا في أحسن تقويم، لكنّه اختيار انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنًا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليّة

أخلاقيَّة أخذته الصّحوة والحيرة تملأ نفسه ندمًا؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكن لم يتمّ ذلك إلّا بعد نفاذ الأمر وهو الهبوط به والأرض أرضا ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقية، التي خُلق فيها الإنسان الأوّل (آدم) جنّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها؛ حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاءً.

فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خلقًا، أصبح الارتقاء بالنّسبة له مجرّد أمل، ومع ذلك؛ فالأمل لا يتحقّق إلّا عملًا؛ فمن عمل من أجله بلغ مأموله، ومن لم يعمل؛ فلا ارتقاءً.

ومع أنَّ الأمل بالنّسبة لبني آدم يرتبط بالمستقبل، ولكنّه بالنّسبة لآدم؛ فهو يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقا، ولهذا؛ فالأمل بالنّسبة لآدم هو العودة إلى تلك الجنّة التي فقدت في لحظة غفلة.

ومن هنا؛ فالأمل مع أنَّه من حيث المفهوم واحد، ولكنّه من حيث الدّلالة ليس كذلك، ولذا وجب التفكير في الزَّمن وضبطه بين ماض لن يعود وماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدون أنّ الجنّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍ، أمّا الأمل فظل منقطعا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دُنيا.

وعليه:

ـ فكّر فيما تفكّر فيه حتى يصبح أملًا يشبع رغبة مرضية ولا تكون على حساب الغير.

ـ جمّع قواك العقليّة والفكرية وخطّط بما يمكّنك من تفادي الصّعاب وأنت تعمل من أجل بلوغ المأمول.

ـ حشّد الإمكانات وعدّ العدّة المناسبة لبلوغ المأمول.

. انزع التردّد من نفسك وتقدّم قوّة تصنع المستقبل.

. استعن بمن يمدّك قوّة تُسهم في اختصار الزَّمن وتقليل الخسائر.

. اعرف أنّك كلّما أنجزت هدفا، وجب عليك تحديد أهداف أخرى أكثر أهمية حتى تحدث النُّقلة إلى الأفضل المرتقب.

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة، هو: ما يُمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يُمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العلّية (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا؛ فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاءً.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل؛ فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاءً.

ولذلك، ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطا من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا، أصبح الصّعود للقمّة مطلبا وأملًا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن؛ {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[73]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة

[73] الكهف 29.

لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدّونية، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه. ومع ذلك؛ فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبا إلى جنب مع القصاص الحقّ.

فالإنسان ينبغي أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف إنّ العمل ارتقاءً وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفلية؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعدّ هينا؛ حيث لا عودة إلّا بالعمل الصّالح المِمكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قِبل بني آدم أملًا وعملًا؛ فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه إرادة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاءً.

وعليه:

.كلّما تكتشف أنّك على شيء من الخطأ؛ فاعرف أنّ معلومات خاطئة قد علقت بك؛ فتخلّص منها؛ فصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة ولا تتردّد.

ـ الخلّق وحده يمكّنك من الصّمود الموجب، وانعدامه يجعلك في سُفلية؛ فعليك بالخلّق ولا تفارق.

ـ الأخلاق تجعلك على الارتقاء وتمكّنك من بلوغ ما هو أكثر رُقيّا.

ـ ثق في نفسك إن أردت التحدّي، ولا تلتفت لمن يريد إغواءك عثرة من بعد عثرة.

ـ أعمل والأمل لا يفارقك؛ فالإنسان بلا أمل لا فرق بينه وبين من خُلق في دونية.

ـ ضع الدّروس نصب عينيك؛ ولا تنس ذلك الدّرس الذي تركه لنا أبونا آدم عليه السّلام، فهو بعد أن عصى ربّه بأسباب الأكل من المنهي عنه، عرف أنّ ما يُنهى عنه لا يكون إلّا مخالفا للفطرة الخلقيّة (في غير مرضاة الخالق)، أي: أنّ المنهي عنه، لا يكون إلّا لضررٍ، سواء أكان نفسيًّا، أم صحيّا، أم خُلقيّا؛ فآدم بعد أن أكل من تلك الشّجرة المنهي عن الأكل من ثمارها ندم وتألم، وظل على ما ألمّ به من ندمٍ وألمٍ حتّى غفر الله له ذنبه؛ ومع ذلك صدر عليه حكم الهبوط من الجنّة ارتقاءً، إلى الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا.

ولذلك؛ فبأفعال المخالفة والمعصية يتمّ استشعار الذّنب؛ فيلد النّدم والألم في نفس من يأمل الارتقاء عمّا وقع فيه من معصيّة، ومن ثمّ، ليس للإنسان إلّا أن يلتفت إلى نفسه استغفارا وتوبة تخرجه من التأزّم إلى الانفراج، وتعيده إلى حيث ما يجب أن يكون عليه ارتقاءً؛ فآدم بعد الهبوط على الأرض الدّنيا لم يظلّ له أمل سوى أمل العودة إلى تلك الجنّة التي خسرها بعلل الشّهوة والرّغبة والإرادة.

ومع أنّ الزّمن في أذهاننا مقسّما بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، ولكن التفكير تدبّرا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ

فيه يقينا ولذلك؛ فالزَّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاءً؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم أنّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، ولكنّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنّ العلّة قد المت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطا دونيّا، ندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا، نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك القمّة الماضية وهي بالنّسبة لهما هي الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاءً.

وهنا يتداخل الزَّمن؛ فما يأمله آدم وبنوه المصلحون هو: تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنّة خُلقت وجودا في الكون المرتق حيث لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه، حيث لا مجال للشّروق والغروب، ولأنّه كذلك؛ فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيّام إلّا الزَّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيّا لن يجد شيئا مسجّلا إلّا في الزَّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك؛ فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها، ويتمّ استدعاؤه من الذاكرة لا يكون إلّا حاضرا في الزَّمن الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرًا.

فالزَّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي ذات الوقت تعدّ نقطة نهايتها، وهنا، يعدّ الزَّمن كلّه حاضرا، أمّا الأعمال في الزَّمن؛ فهي الشّاهدة على من يقوم بها، ولهذا؛ يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرا.

ولهذا؛ فالآمال هي ما يحتويها الزَّمن كلّه؛ فلا تقصر أمالك على المستقبل وحده؛ فهناك من الآمال ما قد أنجز، ممّا يستوجب الأخذ به عبرة وموعظة، أو العودة إليه كنز لا يفنى.

وعند ما تتاح لك فرص الاختيار؛ فلا تتسرّع، وكذلك لا ينبغي أن تتأخر؛ فلكلّ حسابه؛ فلا تغفل.

وعليك أن تعرف أنّ زمن تحديد الأهداف ليس زمن حصاد نتائجها، فزمنها زمن الزراعة والبذر؛ ولذلك؛ فالنَّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ، يعملون على إنجازها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزَّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني أنّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنّ الزَّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماض، وهو في ذات الوقت بالنّسبة لإنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلًا.

ومن ثمّ؛ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماض، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنّ الماضي سيظل ماضيًا ولن يعود؟ وإذا كان كذلك؛ فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا؛ فمن يعمل، ثمّ يزداد نمّوا وارتقاءً؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا، نقول:

إنّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه؛ فمن شاء بلوغه؛ فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاءً؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الورى، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوء وإبداعا منتج لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنَّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم قمّة.

فالزّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمّى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا يزيد عن كونه فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملًا وارتقاءً، وبين من خفّت موازينه انحدارا؛ حيث لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلًا.

ولذا؛ فَخَلق الكون مُرتقا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاءً، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة. {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[74].

يُفهم من هذه الآية، إنّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونا أوَّلًا (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا؛ فأوّل المغتنمين لها استغفارًا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

[74] العنكبوت 20.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة؛ إذن؛ فلا ارتقاءً إلّا إلى حيثما هي كائنة، ولأنّها قمّة كائنة وجودا؛ فهي وجود سابق على من يرغبها أملًا لاحقا، ومن هنا؛ فالزَّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله، ما يحتويه الزَّمن وجودا؛ ولذلك؛ فالزَّمن هو الزَّمن؛ فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرا.

ومن ثمّ؛ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثية في الزَّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزَّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورًا يوم تحديدها وصياغتها.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاءً يُمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرّع بحركة إحداث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا، لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاءً أن تصمد أمام التسارع ارتقاءً تجاه إحداث النُّقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضا.

ومن هنا؛ كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك حتى أسقط بها أرضا في الزَّمن غير المتوقّع؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن العب بذيلي بدلا من أنْ العب برأسي؛ فأنا عندما العب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

هكذا هي الرّؤوس بلا أمل يُلعب بها، وهكذا هي الفئران تفكّر؛ فتنجو، ولذلك فالعيش بلا أمل ممكن، ولكن لا حياة بلا أمل، ذلك لأنّ الحياة لا تكون إلّا والأمل يملؤها، أمّا العيش فلا فرق فيه بين حيوان وإنسان، ولكن ما هي الحياة أمل؟ ومن هو الإنسان أمل؟

أقول:

الحياة الأمل هي التي لا يهدّدها الزّوال، وهذه لا تُبلغ إلّا إذا تجسّد الأمل عملًا محفّز بالرّغبة والإرادة. ولهذا فمن يعمل من أجل بلوغها يصنع لنفسه أملًا لا يموت حتى يورّثه لمن خلفه.

أمّا الإنسان الأمل؛ فهو الذي يولِّد من الفكرة فكرة تخرجه ومن معه من التأزّمات وتصنع لهم مستقبلًا يحدث لهم نقلة تمكّنهم من عمل الخوارق حتى يعرفوا أنّ المعجز معجز.

ولذلك فالواعون دائمًا هم السبّاقون والمبادرون بصناعة الأمل الذي يقرِّبهم من رتق الأرض بالسّماء ارتقاءً.

وعليه:

. فكّر فيما يجب قبل وجوبه حتى تكون سبّاقا قبل غيرك.

. اعرف أنّ الأمل لم يكن غاية، بل الغاية بلوغ المأمول؛ فاعمل من أجله إن أردته حقيقة بين يديك.

. تحدّى كلّ محيّرٍ حتى تتجاوزه معرفة، وتصبح السُبل أمامك بلا عوائق ولا معيقين.

. اصنع أملًا؛ فالأمل لا يصنع نفسه، ولا يأتيك من الغير، واعرف أنّ المسافة بينك وبينه وإن كانت بعيدة فهي غير مستحيلة.

. فكّر في نفسك حتى تستكشف نقاط ضعفها، لتتجاوزها قبل أن يشار إليك من الغير بما يمكن الإشارة به إليك إحراجا.

. اعمل بحيويّة وتفاعل إن أردت القضاء على الملل المعيق لك من بلوغ المأمول.

. عرّف من لك علاقة بهم أنَّ الصّعوبات لا تصمد أمام الصّامدين في سبيل تحقيق أمالهم، وحفّزهم على التحدّي، ذلك لأنَّ قبول التحدّي لما يؤلم يمكّن من بلوغ ما يدخل البهجة.

. تجاوز بهم قصور التفكير عند المتوقّع رتابة إلى ذلك غير المتوقّع الذي تملأه الحيوية بما يرشد إليه من جديد أكثر وضوحا.

. لا تصدّق ما تسمع؛ فإنْ صدقت ما استمعت إليه وكأنّه المسلّمات فقد تقع في السُفلية والدّونية كما وقع فيها أبونا آدم عليه السّلام حينما غرّر به إبليس؛ فكانت النتيجة مؤلمة (خروجه وزوجه من الجنّة).

. تأكّد أنّ وراء كلّ هدف أهدافا أخرى لا يمكن أن تعرف إلّا بعد إنجاز ما قد حدّد هدفا.

. تأكّد أن وراء كلّ هدف من الأهداف التي تمّ تحديدها غرضا ووراء كلّ غرض أغراضا جديدة.

. تأكّد أنّ وراء الأغراض غايات، ووراء الغايات غايات أعظم منها؛ فلا تملّ ولا تقنط.

. تأكّد أنّ التقدّم خطوات فاسرع تقدّمًا دون التسرّع.

. اعمل على صناعة الأمل؛ فالأمل يصنع بلا يأس.

. تأكّد أنّك على القوّة، ولكن عليك بمعرفة أنّ قوّتك لن تخرج عن دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) ولهذا؛ فلا إطلاق لقوتك، ومن هنا يكون الضّعف والوهن، ومن هنا، يجب الاستعانة بالغير لاستمداد أفعال القوّة الممكّنة من إنجاز ما يفوق القوّة الفردية، ولذلك فالآمال العظام تحتاج لتكاتف الجهود، ولا استغراب.

. الأمل دائمًا لا يتحقّق إلّا بتهيؤ الآملين (تهيؤ نفسيًّا وعقليا وبدنيا وصحة وتعليما وتأهيلا وتدريبا؛ فعليك بمزيد من ذلك إن أردت بلوغ أمل عريضة.

. اعرف أنّ الأمل لا يأتي إليك أبدا، بل الأمل تسعى إليه؛ فاسع فهو ممكن التحقّق، ولكن عملًا.

. بلوغ المأمول يستوجب عدة وإعداد لها، فعليك بإعداد العُدة الممكّنة من بلوغ المأمول.

. الأمل يستوجب حوافز ودوافع حتى لا يتسلّل الملل إلى العقل والقلب والنّفس البشرية، وخير الحوافر والدّوافع (الرّغبة) حيث لا عمل ولا أمل بلا رغبة، ذلك لأنّ الأعمال والأمل بدونها تصبح أمنيات ليس إلّا. ولهذا فالأمنية شيء لا يستوجب الإقدام عملًا، أمّا الأمل لا يكون إلّا والعمل أداته تخطيطا وتنفيذا مع وافر الرّغبة.

. الأمل عمل يستوجب الاستعداد إليه تأهّبا وعدة وإعداد ومن ثمّ استعدادا يُمكن الآمل من بلوغ أمله.

. الأمل يستوجب متأهّبا للإقدام على الفعل الممكن منه أملًا، وذلك من خلال تنفيذ ما رسم من خطّة أو استراتيجية قد أعدت من أجل بلوغه.

ولسائل أن يتساءل:

الا تكون العلاقة بين الآملُ وأملهِ علاقة غاية؟

أقول: لا.

الأمل لا يزيد عن كونه شعور مرغوب، ولكنّه في حاجة لما يشبعه، أي: هناك علاقة بين الآمل وأمله، وهذا الأمر يجعل من الأمل حلقة وصل بدونه يكون اليأس هو ما تمتلئ به المسافة بين الآمل وما يمكن أن يكون له من آمال، ولذا؛ فإن حدث ذلك؛ أصبح الفرد أو الجماعة في مراحل الأمنيات وليس في مرحلة الآمال.

إذن: وجب الارتباط بين الآمِل والمأمول بأمل لا يأس فيه، ومن أراد مزيد من الآمال؛ فعليه بمنابعها؛ فهي لا تستمدّ إلّا منها. إنّها الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي يرتضيها النَّاس.

كن متهيّأ فالتهيّؤ يقظة:

التهيّؤ التفات الإنسان لنفسه وما يجب أن تلتفت إليه، وهو صّحوة العقل والفكر لما ينبغي أن يوليه اهتمامًا، به تتولّد الفكرة من الفكرة، والحُجّة من الحجّة، والبرهان من البرهان، إنّه منبع الأمل المولّد لقيمة التفاني في العمل والإخلاص فيه.

فالتهيّؤ يقظة بما يجب أن يتمّ الإعداد والاستعداد له قبل أن يأتي، وهو تحفُّز لإظهار الأمل المتهيئ للظهور، إنَّه الحالة التي يبدو عليها الإنسان في حالة امتداد تجاه الآخر في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فالتهيّؤ نضج طبيعي ونضج معرفي بما سيأتي لأن يُفعل، كنضج الثمار لأن تُجنى أو تُقطف، وكالبلوغ عند الإنسان الذي به يتهيأ للزّواج؛ وكالتهيّؤ للصّلاة والصّيام قبل أن يأتي موعدهما؛ فالتهيّؤ لا يتمّ إلا بمجموعة من التفاعلات المحفِّزة للقوى الكامنة في

الأفراد قبل الاستعداد إرادة لفعل مخصوص؛ إنَّه الحركة بعد السّكون، واليقظة التي لا تغالبها الغفلة.

وهذا التهيّؤ ما هو إلا تجاذب بين المتوافقات والمتباينات في آن واحد، ممّا يجعل المتوافقات في أشدِّ حالات التلازم، والمتباينات في أقصى درجات الافتراق، وما بين التلازم والافتراق تصبح القوى الكامنة في حالة انتباه تجاه المرغوب فيه ممّا يجعل التهيّؤ بإرادة مرحلّةً متكاملة قبل الاستعداد والتأهُّب لأداء الفعل الذي كان مأمولا.

ولأنَّ التهيّؤ قبلي؛ فهو الذي يسبق صورة الشيء قبل أن يصبح شيئًا مفعولًا؛ ولذا فلو لم يكن الشيء متهيئا للظهور ما كان ذلك الشيء ماثلا أمام المشاهدة والملاحظة؛ فالتهيّؤ هو المؤسّس للهيئة التي سيكون الشيء مصوَّرا عليها بالتمام؛ وكلُّ فعل لا يكون فعلا إلّا بعد أن يتهيأ ذلك الفعل في ذهن وعقل الذي سيفعله، فإذا أراد أحد أن يُظهر مشكلة بين النَّاس لا بدَّ أن يُهيئها للفعل، ومع ذلك لن تكون مشكلة إلّا إذا تهيأ لها فاعل بإرادة مع وافر الاستعداد ثم التأهّب لأجل الإقدام على أداء فعلها بسلوك على أرض الواقع؛ فالإرهاب لو لم تتهيأ معطياته وظروفه وأفعاله في ذهن فاعليه ليكون بين النَّاس مفعولا ما كان له وجود بينهم، وبعد أن وُجِدَ الإرهاب ظاهرة مهيأة لأن تتحقّق بالقوَّة أصبح الأثر الإرهابي ذو وطأة على أنفس المرتهبين ممّا جعل أفعالهم تميل إلى التوازن والاعتدال بدلا من ميلها انحيازا بغير حقّ.

ولأنَّ التهيّؤ دائمًا يسبق إعداد العُدّة والفعل والسلوك والعمل، لذا فإنَّ صور المصنوعات لا تتحقّق على أرض الواقع إلّا بعد أن يكون لها هيئة في أذهان وعقول المبدعين لها، وعليه: لا يمكن أن يصنع الإنسان شيئا إلا بعد أن تتهيأ له صورته متكاملة؛ فالسكّين على سبيل المثال: لو لم تتهيأ صورته في عقل من صوَّره بعد تهيّؤ، ما كان السكّين على الصورة التي هو عليها دليل شاهد

بين أيدينا؛ فقد تهيأ في عقل صانعه من حيث كونه صلبا ومتينا وحادّ أحد الطّرفين أو حادّ من طرفيه، وله مقبض يُمسك به من أجل وظيفة تؤدّى أو سلوكٍ يمارس أو فعلٍ يُفعل، وهكذا كلّ مصنوع لا يمكن أن يُصنع إلّا بعد تهيّؤه في ذهن العقل البشري، وكلّ فعل لا يُفعل إلّا بعد تهيّؤه في العقول، ولذلك فإنَّ أفعال الإرهاب لا يمكن أن تسبق تهيّؤاتها؛ فهي لو لم تكن قد تهيأت من قَبل في العقل البشري ما كانت أفعال متحقِّقة على أرض الواقع، ولذا فبعد أن تنضج الفكرة تُرسم لها الخطط المنفّذة ممّا يجعل المتهيئ في حالة انتظار ارتكاب الفعل بعد استعداد و تأهُّب لفعله.

ولسائلٍ أن يسأل:

كيف يتهيّأ الإنسان لإظهار الأثر الإرهابي في أنفس الأعداء؟

مع أنَّ الإرهاب لم يكن مادّي الصورة حيث لا شكل ولا مظهر له سوى الأثر السلبي الذي يمسّ النّفس الإنسانية، إلا أنَّ أثره لا يكون سائدا في النّفس البشرية إلّا بعد الإعداد له إعدادا ماديا، أي: إعدادا لِما يُظهِره وليس إعدادا لإظهاره. ولهذا فالإرهاب تُظهره العُدّة المرهبة للنفس المخيفة التي تعتقد أنّه لا مخيف لها، فتتفاجأ بأنَّ هناك من يُرهبها عتادا وعُدّةً و تأهبا.

إذن يتهيّأ الإنسان لإظهار الأثر الإرهابي بالقوّة العقليَّة التي بها يستطيع أن يُدرك أنَّ الخوف سيضل سائدا بين قوي وضعيف إلى أن يمتلك من كان ضعيفا القوّة المرهبة للذين يعتقدون أنَّهم يُخيفون ولا يخافون، وبامتلاكه القوّة عُدّة وعتادا واستعدادا واستيعابا مع وافر التدريب والمهارة يصبح ما وصل الإنسان إليه من قوّة مرهبة قادر على إعادة التوازن بين الأنا والآخر دون سيادة للمظالم.

ومن هنا كان أمل البعض اكتساب القوَّة القاهرة للإرهاب بغاية استتباب الأمن وإعادة التوازن، وهذا الأمر يستوجب إيقاظ القوَّة العقليَّة ولفتها للمخاطر بهدف تجنّبها وتفادي أضرارها.

والتهيّؤ للفعل لا مكان فيه للتردُّد في نفس المتهيئ لأداء الفعل، ولا خوف في نفسه ممّا يجعل الإرادة مولِّد القوَّة الدّافعة لتنفيذ الفعل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فدائرة الممكن هي دائرة تيسير الفعل أو تعسيره، ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء الفعل أمرُ ميسَّرا قد تواجهه صعاب تحول بينه وبين تنفيذه بنجاح، وكذلك إذا أحد من البشر يرى أنّ فعلا ما لا يمكن أن يُفعل، ولكن أقدم آخر على فعله بنجاح، يوصف هذا النجاح بأنّه نجاح غير متوقّع فعله، ولكن لو لم يكن ممكنا ما فُعل، ولهذا الأفعال في دائرة الممكن قابله لأن تُفعل ولو تعسَّرت على البعض، ومن هنا تلد الخوارق من الخوارق.

فالتهيّؤ كونه إيقاظا عقلي؛ فهو يسبق القول والفعل والسّلوك والعمل؛ الذي بدونه لن يكون العمل أو الفعل إلّا وظيفة لا تؤدّى إلا بمقابل ولا تُقدَّر إلّا به؛ ممّا يجعل للإرادة مكانة تجعل التهيّؤ إيقاظ هو المحدِث للفعل والمحقِق للرّضا وإن كان على حساب الآخرين وما يحقّق لهم من طمأنينة، وفي مثل هذه الحالة وإن وُصِفَ الإرهاب من قِبَل الآخرين بما لا يتطابق مع مفهومه كما جاء في الكتاب الحكيم؛ فيظل هو المحقّق للتفاخر من قبل المقدِمين عليه إرادة.

ولأنّ الإرهاب فعل مقلق ولا إنسانية فيه فَلِمَ لا يلتفت العقل الإنساني يقظة إلى ما يُمكّن من تفاديه بسلام؟

قد يرى البعض إنّ هذا القول لا يزيد عن كونه أمنية، ولكن ألا يكون في دائرة المتوقّع وغير المتوقّع أنَّ كلّ شيء ممكنا؟ فالمعطيات التي جعلت العقل يتهيأ للفعل الإرهابي، ألا تجعله يتهيأ يقظة إلى الحياد عنه أو القضاء عليه؟

وعليه: التهيؤ يقظة يلفت الإنسان إلى أهمية خلقه في أحسن تقويم، ومن ثمّ يلفته إلى المحافظة على حسن تقويمه بما يتشرّبه من قيم حميدة وفضائل خيّرة تمكّنه من تقبّل الآخر (هو كما هو)، كما تمكّنه من احترامه وتقديره واعتباره واستيعابه وذلك بهدف غرس الثقة المتبادلة وبغاية صناعة الحاضر والمستقبل المأمول.

التهيّؤ في مواجهة التهيؤ:

ولأنَّ لكلِّ فعل ردّة فعل فكما يتمّ التهيّؤ لأداء الأفعال؛ فكذلك يتمّ التهيّؤ يقظة لمواجهتها، وكما تُرسم الخطط لتنفيذ الفعل كذلك تُرسم الخطط لمقاومة الفاعلين له، فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أفعال الإرهاب بإرادة في معظم الأحيان يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أفعال المرهِبين بإرادة همّ الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكل قوَّة، أمَّا أولئك الموظفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ الإرهاب أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين بقدر ما تكون أيديهم على الزّناد مرتعشة في حالة ما إذا كُتبت الحرب عليهم أو تمّ إعلان المواجهة بين الأنا والآخر ممّا يجعل أفعال المنفِّذين للإرهاب تبوء بالفشل كما تبوء به أفعال المقاومين له.

ولذلك فمن تهيّأ واستعدَّ لفعل وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ يقظة لِما يُغيّره عن الاستمرار فيه إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لا تُصحّح إلا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، أي: دائمًا عندما يتوفّر حُسن النيّة تكون المعلومة الصّائبة وحدها هي القادرة على تصحيح المعلومة الخاطئة، ولكن إذا لم تتوفّر النوايا الحسنة فستظل المعلومات دائمًا تحت أثر التزوير الذي به ينتشر الانحراف عن الحقائق.

إنّ الوقوف على حقيقة التهيّؤ وتهيُّأته التي يقوم عليها، تتوقّف على معرفة المصادر المغذية له، والفَلك الذي يدور فيه، فمدار فلكه يكمن بين العقل والقلب والرّوح والنفس، ومصادر تغذيته هي الأفكار والعواطف والانفعالات والغرائز بصرف النّظر عن سالبها وموجبها.

وكلما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عمليَّة التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا فإنَّ التهيّؤ لا يكون إلّا بمعطيات خَلقيّة وخُلقيّة، ومزيج من الوعي والمعلومات والأفكار، وما لها من علاقة وطيدة مع العواطف والأحاسيس فالتهيّؤ في نفس العاقل هو حالة من انعكاس الإدراك على الشّعور الداخلي من قضية خارجية، والإنسان يمتلك مزيجا من القوى العقليَّة والجسمانية والرّوحية وهي في آنٍ واحدٍ تُعِدُّ حالته في لحظة التهيّؤ المطلق قبل الاستعداد لأيِّ فعل من خلال تناسق قوى العقل والجسد والرّوح لتكون متهيئة على البدء لأنْ تستعدّ للفعل متى شاءت وأينما شاءت في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

وتُحدّد لحظة التهيّؤ يقظة من خلال العلاقة القائمة بين العقل والعواطف، إذ أنّ التهيّؤ لدى الإنسان يكمن في المساحة الحرّة بين العقل والعاطفة، وذلك عندما تستثار الغريزة بدافع من العاطفة، وهنا يكون الإنسان في وضع التهيّؤ، والذي يحجب التهيّؤ عن الاستعداد وصولا إلى الفعل هي الإرادة التي تتحكّم به لحين اتخاذ القرار.

وأمَّا مصادر التهيّؤ بالنسبة للإنسان؛ فهي الأفكار المكتسبة والممكِّنة من ذاكرة العقل، إذ أن العقل هو الميزان المعتدل بين سلسلة الأفكار السّالبة والموجبة التي تتأثّر بالحاجات وأساليب إشباعها، كما أنَّ الإرادة هي سلسة

المـِمكِّنات من اتخاذ القرار الذي به يتمّ الاستعداد والإقدام على تأدية الأفعال المماثلة في السّلب والإيجاب.

إنَّ الأفكار التي تغذي العواطف وتستفزّ المشاعر وتُوَجِّه الأحاسيس، هي التي تدفع الإنسان فكريًا ثمّ تدفعه سلوكيًا ليكون على ما يكون عليه من تهيؤ وإرهاب. لذلك فمتهيئات اليقظة كامنة في العواطف بتعدّد الأفكار فعندما يكون العقل في أوجِ نشاطه يسيطر على عواطفه ويجعلها في حالة اعتدال متوازن فلا تؤثّر سلبيًّا عليه، وأمَّا إذا اشتدّت العاطفة فإنّها تستدعي معظم الأفكار الخاصّة بالحدث بمؤثِّرات خارجيّة عن طريق الإدراك الذي ينعكس شعورا داخليا يؤجّج العاطفة بحيث تصبح أكثر نشاطا من العقل.

فنشاط العواطف يُضعف من نشاط العقل قدرا يناسب قوَّة العواطف وكذلك العقل يُضعف من نشاط العواطف درجة تناسب قوّته ونشاطه كلّما تهيّأ لمواجهتها يقظة من الضمير الذي يُقدِّر الأنا والآخر دون تحيُّز، ولذا عند ما يُصرف النّظر عن الفكرة المنشِّطة للعاطفة تتلاشى في العقل وتهدأ العاطفة فيزول التأثير على الغريزة التي تدفع التهيّؤ للظهور إلى حين ظهور المؤثّر الخارجي مرّة أخرى أو استدعاء الفكرة من الحافظة عن طريق الذّاكرة.

ولهذا فالتهيّؤ للقول أو الفعل يسبق اتخاذ القرار الذي بدوره الطبيعي لا يُتَّخذ إلّا بإرادة؛ فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، والتهيّؤ للفعل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

مكوِّنات التهيّؤ

للتهيّؤ مجموعة من المكوِّنات منها:

تهيؤ مادي عقلي:

إنَّ التهيّؤ المادّي العضوي هو تهيّؤ فطري، والمقصود به ما يتمتّع به الإنسان من أعضاء يستطيع أن يمارس بها أفعالا معيّنة؛ فنجد هذه الأعضاء مهيأة لذلك قبل مباشرة الفعل كالحواس جميعها؛ فالعين مهيّأة للنّظر والأذن مهيّأة للسّمع، والقدم مهيّأة للمشي واليد مهيّأة لاستعمالات كثيرة، وكذلك العقل مهيّأ لتقبُّل العلوم والتمييز والاستنتاج والاستنباط والاستقراء والتدبُّر، وباجتماع إحدى ملكات العقل مع إحدى هذه الأعضاء يتولّد تهيّؤ ثنائي جديد بين الأداة المادّية والجانب الذّهني.

تهيّؤ مادّي نفسي:

وهو اشتراك الأعضاء المادّية مع الجانب النفسي من انفعالات تدخل في تشكُّلات التهيّؤ، فعلى سبيل المثال: إذا شاهدت أفعى فسوف ينتابك شعور معين لا نستطيع أن نحكم عليه هو كما هو، بل هو على احتمالات منها:

أ- أن تكون خائفا؛ فتفكّر في الفرار؛ فأنت في حالة تهيّؤ.

ب- أن تكون حذرا؛ فأنت مهيّأ لتركها وشأنها.

ج- أن تكون مرتهبًا؛ فأنت مهيّأ لمواجهتها إمَّا للإمساك بها أو لقتلها.

ومع أنَّها ثلاثة احتمالات إلّا أنَّ الاحتمال الأوّل لم يُعدّ من طبيعة ما يوصف به الثُعبان، فالثّعبان لا يخيف، بل الثُعبان مُرهب، أي: أنَّ العاقل هو

الذي يُخيف لأنَّه عاقل قادر على التفكّر والتذكُّر والتحايل ومع ذلك فهو قابل للحوار والجدل الذي يؤدّي إلى معرفة وإدراك قد يؤدّي إلى مراجعة أو حُسن تصرّف، أمّا الثّعبان فهو غير عاقل وبالتّالي القاعدة تنصّ على أنَّ (العاقل يخيف وغير العاقل يُرهب) أي: أنَّ الصّاروخ والقنبلة النّووية وأيّ قنبلة أو سلاح فتّاك، وأيّ حيوان مفترس أو سام هو مُرهب، أمّا العاقل فمجال التفاوض والتسامح حيّزه واسع والمواقف تتغيّر وتتبدّل في مُعظم الأحيان من سيء إلى أحسن كلّما أيقظ الإنسان عقله75.

أركان التهيؤ:

- مُهيئ:

وهو الذي يقوم بتهيئة الأشياء للقيام بما أراد لها أن تقوم به أو لما أراد أن يفعل هو بها فالله سبحانه وتعالى هو المهيئ المطلق لكلّ ما في الكون من مخلوقًات من أجل ما أراد أن يكون كما أراد هو؛ فالملائكة مهيأة لأن تكون على طاعة الله وتقوم بكلّ ما أمرها به من توزيع أرزاق وحفظةٍ وكتبةٍ وحملة عرش وغيرها من الأعمال التي يريدها عزّ وجلّ منها، والذي هي من الطبيعة التي هيأت عليها، وليست مهيأة للمعاصي وعدم الطّاعة، {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}76.

- المُهَيَّأ:

وهو من يقع عليه فعل التّهيؤ من المهيئ من أجل فعل الفعل أو الغرض الذي يُراد منه.

---

75 عقيل حسين عقيل، الإرهاب بين قادحيه ومادحيه، ص 26 . 35.

76 التحريم 6.

- مُهَيَّأ له:

وهو الفعل الذي حصل من أجله التهيؤ؛ فالإنسان مهيأ لأن يصلح الأرض ويعمّرها، وهي مهيأة كذلك لأن تستجيب لكلّ رغباته، وتكون مستقرّا له ومستقرّة كذلك؛ فلا تثور إلّا عندما يريد منها المهيئ المطلق ذلك.

. مُهَيأ به:

وهو ما يتمّ به تهييئ الشّيء لاستقبال المهيئ له أو للقيام بالشّيء المهيأ له.

كما أنّ الإنسان الذي خلقه الله تعالى هو أيضًا مهيأ لأن يكون خليفة في الأرض فقد هيّأه المهيئ المطلق للأفعال التي يريدها من بعدة أشياء منها:

. العقل، الذي بواسطته يستطيع الإنسان أن يصل إلى حقائق الأمور ويدركها هي كما هي، وبه يفرّق بين الصّواب والخطأ، وعن طريقه يتخذ القرار بترك الأخطاء وما فيه ضرر له.

. الإرادة، التي بها يفعل كلّ ما يريد وكلّ ما اتخذه من قرارات عن طريق العقل سواء أكانت سلبية أم إيجابية، فيكون بذلك جزاؤه عليها عادلا لا ظلم فيه، فهو قد استحقّه بأفعاله التي اقترفها بمحض إرادته.

. القدرة والقوّة، والتي بدونهما لا يتسنى له أن يفعل ما قرره عقله وانعقدت عليه إرادته.

. الضّمير، الذي هو بمثابة الرّقيب على الإنسان والمحاسب له والرّادع عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى ضرر.

. حُسن التقويم، وهو المتمثل في هذه الهيئة التي عليها الإنسان من قامة منتصبة.

مستويات التهيؤ:

تهيؤ بمستوى الحدث حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[77] إنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام موقن بقدرة الله تعالى لعلمه أن الذي يخلق ويُميت قادر على أن يحي الموتى، وهذه القناعة إنّما هي تهيؤ للوقوف على الحدث لعلمه بأنّ الله قادر على إحياء الموتى، ولكنّه طلب من أجل الاطمئنان "أي أبصرني كيفية إحيائك للموتى بأن تحييها وأنا أنظر إليها، إنّما سأل ذلك ليصير علمه عيانا، وقد شرّفه الله بعين اليقين بل بحقّ اليقين الذي هو أعلى المقامات.

إذن هذا تهيؤ عن طريق اليقين المتولد عن الإخبار الذي مكمنه القلب وليس العقل، والسّبب في ذلك أنّك لا تستطيع أن تجمع بين صورة الموت والحياة في وقت واحد، إذ ليس لملكات العقل أفكار عن هذه الصّورة المكتسبة من الخارج، وليس له القدرة على تشكيلها في الدّاخل، أي لا في الذّهن ولا في الواقع، لذلك هذا النّوع من التهيؤ يقيني.

ومثل ذلك أيضًا في التهيؤ بمستوى الحدث قوله تعالى: {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ

[77] - البقرة 260

عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}78 عندما سأل الحواريون عيسى عليه الصّلاة والسّلام هذا السّؤال، فما كان منه إلّا أن قال اتقوا الله، وهذا دليل التهيؤ واليقين، فهو متهيء لمثل هذا الفعل، وموقن بأنّ الله تعالى قادر ومستطيع على أن ينزل عليهم مائدة من السّماء، وأكثر من المائدة، فجوابه لهم عليه الصّلاة والسّلام، ولّد لديهم تهيؤ للحدث، بدليل أنّهم أجابوا مباشرة بقولهم: (نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا) فالتهيؤ الذي تولّد في نفوسهم كان تمهيدا لعذر وبيان الأمر الذي دعاهم إلى السؤال، وبهذا التهيؤ أزالوا الشّبه في قدرة الله تعالى على تنزيل المائدة، أو في صحة نبوّة عيسى عليه الصّلاة والسّلام، حتى لا يقدح ذلك في الإيمان والتقوى.

2- تهيؤ أعلى من الحدث ومثال ذلك قوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاس عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}79 فالتهيؤ عند نبي الله سليمان عليه الصّلاة والسّلام، أعلى من مستوى الحدث، لأنّه عندما سمعها تبسّم ضاحكا، وهذا التبسّم المباشر دون استغراب هو دليل التهيؤ المسبق ضمن دائرة الممكن المتوقّع، لأنّه مهيأ لمعرفة ما هو أبعد من منطق النملة، فقد أوتي من الله ملكا ما ينبغي لأحد من بعده، وذلك لما علّمه الله تعالى من منطق الطّير وحشر

78 - المائدة 112- 114

79 - النمل 16-19

له الجنود من الجنّ والإنس وآتاه من كلّ شيء ما لم يؤته لأحد من خلقه، لذلك كان التهيؤ عنده أعلى من الحدث في سماعه ما تقوله النّملة لبني جنسها، لأنّه مهيأ لأكثر من هذا وأكبر منه بما آتاه الله من فضله.

وهذا النّوع من التهيؤ نقف عليه لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر في تثبيت المؤمنين وحثّهم على القتال وتبشيرهم بالنّصر حيث قال تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}80؛ فالرّسول عليه الصّلاة والسّلام مهيّأ من ربّه لما في يقينه من قدرة الله تعالى من الإمداد من أجل النصر، وهو يريد أن يصل بأصحابه إلى أعلى درجات التهيؤ للنّصر الذي وعده به ربّه عزّ وجلّ، ولذلك أخذ يهيئهم لاستقبال الملائكة الذين يكونون لهم مدد من أجل النّصر الموعود.

. تهيؤ أدنى من الحدث كما في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}81.

إنّ موسى عليه الصّلاة والسّلام كان مهيّأ لأن يكلمه الله تعالى بما هيّأه به، علمًا أن الله تعالى لم يكلم بشرا إلّا وحيا أو من وراء حجاب: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ

80 آل عمران 124- 125

81 - الأعراف 143

مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}82 فلما كلمه من وراء حجاب اشتاق موسى لرؤية ربه تعالى وطلب منه ذلك.

غير أنّ التهيّؤ لسماع الكلام غير التهيؤ لرؤية الحقّ عزّ وجلّ، فقد سبق القول من الله تعالى أنّه لا أحد من خلقه يستطيع أن يراه في الحياة الدّنيا؛ فهو عليه الصلاة والسلام قد هيأه الله بقدرات يستطيع أن يسمع كلام الله تعالى، ولكن هذه القدرات من التهيؤ لا تقوم لرؤية الحقّ تعالى، فلمّا تجلّى الحقّ عزّ وجلّ للجبل وليس لموسى جعله دكا، علمًا أنّ التجلّي غير الظهور وهو أقل درجة منه، واختيار الله تعالى للجبل، لأنّه مهيأ أكثر من موسى عليه الصّلاة والسّلام، من حيث الحجم والشدّة وقوّة التحمّل. فموسى كان تهيؤه أقل من مستوى الحدث.

وهذه المراحل الثلاث توضح الاختلاف في مستو التهيؤ عند الإنسان، مع وجود ثوابت تدعم التهيؤ للحقّ وبما يجعل الإنسان المستخلف بمستوى الحدث نذكر منها:

أوّلًا: كثرة المفاسد تهيئة للخروج من المفاسد، حيث أنّه مع كثرة انتشار المفاسد يصبح الكلّ متهيئ للإصلاح متطلع له فيكون هناك تهيؤ لاستقبال الرّسل والمبشّرين الذين يأخذون النّاس من الضّلال إلى الهداية، ومن الفساد إلى الصلاح.

وهذا لا يعني أن ينتظر المخطّطون وراسموا السياسات والإخصائيون الاجتماعيون أن تتّسع دائرة المفاسد حتى يتيسر لهم أمر الإصلاح، بل يجب أن يكونوا سبّاقين لها قبل حدوثها كي لا يحدث، أي: ينبغي ألا ينتظر المجتمع حتى

[82] - الشورى 51

تنتشر فيه المفاسد ليتم الإصلاح، بل يجب ألا يقع المجتمع في المفاسد أبدا، ومن هنا يجب تحدّي الصعاب من أجل الأفيد والأنفع والأعظم.

ثانيًا: إرسال الرُّسل مبشّرين بالجنّة ومنذرين من النّار: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}83؛ فقبل أن يهيئ الله تعالى الجنّة والنّار لاستقبال كلّ ما خلق؛ فقد هيّأ المخلوقين لذلك بأن أوضح لهم الحقّ والباطل، وترك لهم سلك الطريق الذي يختارونه؛ فمنهم من يتّبع الحق، ومنهم من يتّبع الباطل، ولكلّ حسابة ثوابا أو عقابا.

ثالثًا: بالعلم الذي حث الإنسان للسعي وراءه لأنّه أصل الوصول إلى الحقّ والهداية، فالمولى عزّ وجلّ هو العليم المطلق وجعل من أبرز صفات الإنسان التي من شأنها أن تهيأه لأن يكون خليفة هو سعيه الدّءوب وراء العلم النافع والمعرفة الحقّ، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعلمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}84، فمن الآية الكريمة السابقة يتضح ما للعلم من أهمية ودرجة كبيرة في تهيئة البشر للتعرّف على الخالق العظيم والوصول إلى مرضاته، وكذلك يجب على المتّصف بالعلم أن يسعى بين البشر به لكي يكون مهيئًا لهم بتعليمهم تغذية عقولهم بما يجعلهم مدركين لكلّ ما يدور حولهم وتبصيرهم بما ينفع ويضر.

رابعًا: بتوضيح العلاقة الصحيحة التي لا بدَّ أن يكون عليها البشر، فمنذ بدء الخلق تهيأت النّفس البشرية لأن تقبل الحقّ أو الباطل، وهذا ما تؤكده قصّة قابيل وهابيل كما جاء في قوله عز وجل: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ

83 الأنعام 58: 60.

84 فاطر 28.

إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[85].

نستطيع من الآيات الكريمة السّابقة أن نستنتج قانون الحياة الذي يجعلنا مهيئين للخلافة في الأرض، وذلك من قول الأوّل (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) وهو الخوف من المولى عزّ وجلّ والسعي وراء السّلم والخير.

ففي هذه القصة تهيئة للبشر بتعليمهم أن الفوز ليس بالقوّة والعنف وأن الخليفة يجب أن يكون مهيئا للسّلام ومهيئا له.

وعليه:

. تهيأ لما يجب والأمل لا يفارقك.

. انزع الخوف من نفسك بالخوف ذاته؛ فالخوف يمكّنك من أخذ الحيطة والحذر ويجنبّك الوقوع فيه، وعليك أن تميّز بين الخوف الذي لا يكون إلّا موجبا، وبين الجبن الذي لا يكون إلّا سالبا.

. استشعر ما يحقّق الرضاء لك وللغير، فالاستشعار به يهيئك لما يجب تجاهه.

[85] المائدة 27: 31.

. التّهيؤ صحوة عقليّة؛ فنبّه النَّاس وألفتهم إليه عبرة وموعظة لعلّهم يستنهضون ممّا هم فيه من كسل ويأس إلى ما يبعث الأمل في أنفسهم، ذلك لأنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم: {إِنَّ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}86.

. التهيؤ يقظة من الغفلة المميتة للعقل والنفس إلى ما يحقق النُّقلة ويصنع المستقبل.

. وثق إنْ تهيأت لأملٍ وفيه النَّاس يتنافسون، فقد لا تفوز به إن لم تكن متهيّئا لهيئاتهم حتى تتجاوزها إلى الأمل وكأنك في الميدان لوحدك.

. الأمل يقظة يلفت الإنسان لنفسه وما يأمل؛ فاعمل على يقظة النَّاس لما يجب أن يتوجّهوا إليه صحوة.

التهيؤ للحدث الخارجي:

وهو إمّا أن يكون موافقًا مطابقًا له، وإمّا أن يكون مخالفًا:

1 – التهيؤ المطابق في قوله تعالى: {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}87 لقد وافق يوسف أباه يعقوب عليهما الصّلاة والسّلام في تهيؤ كلّ منهما للآخر، ذلك أنّ يعقوب لم يصدّق إخوة يوسف فيما ادعوه من أن الذّئب قد أكله، فقال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}88؛

---

[86] الرعد 11.

[87] - يوسف 93-96

[88] يوسف 18.

لذلك عندما فصلت العير قال: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ}89 وهنا؛ فهو مهيّأ لأن يجد ابنه رغم ما قيل له، وبالتّالي فإنّ يوسف عليه الصّلاة والسّلام كان يوافق أباه في تهيؤه، لذلك قال: {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا}90، ونحن لا نقول أنّ هذا من توارد الخواطر كما اصطلح عليه نقاد الأدب عندما تتوافق الفكرة لدى أديبين، وإنّما هو نتيجة الأفكار المشتركة التي تتولّد منها قناعات معينة، والذي أطلقنا عليه الاستنتاج المؤدّي إلى التهيؤ.

2 -التهيؤ المخالف كما في قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ، وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ}91.

إن تهيؤ يوسف عليه الصّلاة والسّلام عندما دعته امرأة العزيز، كان نابعا من أفكار كان قد اختزنها ممّا أسداه إليه العزيز من معروف في كفالته وتربيته ورعايته، وجلّ اهتمامه كان ينصب في هذا النّوع من التهيؤ الذي يريد أن يجازي الإحسان بالإحسان، وأمّا امرأة العزيز فإنّ الأفكار التي اختزنتها عن يوسف عليه الصّلاة والسّلام كانت قد سخّرتها في قضية أخرى وحوّلتها في اتجاه معين ممّا أجّج العاطفة التي استثارت الغريزة، بحيث أنّ شدّة العاطفة امتصت قدرات العقل ممّا سمح للإرادة باتخاذ القرار في أنّها غلّقت الأبواب وقالت هيت لك، قال معاذ الله، فإرادته عليه الصّلاة والسّلام اتخذت قرارها وفق ما كان مهيأ له،

89 يوسف 94.

90 يوسف 93.

91 - يوسف 23، 25

وإرادتها اتخذت قرارها وفق ما كانت مهيأة له أيضًا، لذلك وقع التنافر بين التهيؤين لعدم تطابقهما، فكانت النتيجة أن قدّت قميصه من دبر.

إذن: فالتهيؤ يستوجب موضوعا يتمّ التهيؤ من أجله، وهو: (المأمول) ممّا يجعل الأمل حيويّة من أجل بلوغه، ولهذا، ينبغي أن يكون الموضوع لا ضرر فيه للغير، فإن كان الضّرر مترتبًا على الأمل؛ فلا يعدّ الأمل امل، بل يعد عملًا مشينًا وفيه من المعيبات ما فيه؛ ولهذا يجب تجنّبه، والنّهي عنه، وهذه من مسؤوليات المربّين والمعلمين والوعاظ وأصحاب التخصّصات المهنية بغاية مهن تؤهل إلى المفيد.

تهيؤ الأشياء:

هو انعكاس شعورنا الدّاخلي على الواقع الخارجي لإدراك تهيؤ تلك الأشياء بما نمتلك عنها من أفكار، لأنّ إدراك تهيؤاتها خاضع لإدراك ما وراء الحسّ، ذلك أنّ حقيقة هذه الأشياء أعمق من ظواهرها التي تبدو لحواسّنا. لهذا وجب على العقل أن يركّب أشتات ما يبدو له من أعماقها ليقف على تهيؤاتها، وهذا واضح تماما كما في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ}92 .

إذ أنَّ الماء عندما يتحلل إلى عناصره الأوّليّة في حالته الغازية من الأوكسجين والهيدروجين يكون في حالة تهيؤ ليتحوّل إمّا إلى حالة سائلة وهو الماء، وأمّا إلى حالة صلبة وهو التجمّد، فعدم رؤيتنا للأوكسجين والهدروجين

[92] - النور 43

هي من إدراكات ما وراء الحسّ، ولكن لامتلاكنا أفكارا عنها نستطيع أن نقف على تهيؤاتها التي لا تبدو لحواسّنا.

وكذلك فإنّ للحي غير العاقل تهيؤه، وهذا التهيؤ يختلف عن تهيؤ العقلاء والأشياء، لأنّ معطيات التهيؤ لنوع الحيوان غير النّاطق قائمة على الأعضاء والغريزة؛ إذ نجد التهيؤ لدى الطّير بجميع أنواعه يعتمد هذين العنصرين، فإذا وقعت عينك على غراب ستجده يبحث في الأرض بمنقاره ورجليه، لذلك لم يهتدِ قابيل لما اهتدى إليه الغراب لأنّه غير مهيّأ لمثل هذا الفعل: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}93 فهو مهيّأ لدفن غراب آخر.

ولأنّ الطير مهيّأ بخواص معيّنة فقد اختاره سليمان عليه الصّلاة والسّلام كي يوصل كتابه إلى ملكة سبأ لأنّه مهيأ لمثل هذه المهمّة: {اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}94؛ فالهدهد له جناحان تؤهّله للطيران، أمّا اختياره دون غيره من الطّير، لأنّه مهيّأ لهذه المهمّة بالذّات، علمًا أنّ هناك من الطيور ما هو أقوى منه في البنية وأشدّ سرعة كالنّسر والصّقر والعقاب، و سبب اختياره أيضًا لأنّه هو الذي أتى بالنّبأ: {فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}95 فهو مهيّأ من هذا الجانب كونه رأى المكان والملكة وقومها وسمعهم يتحدّثون، وكذلك شكل الهدهد وجماله وكونه طائرا وديعا، وهذا يعني أنّه يتمتّع بمواصفات تهيؤه لأن يقوم

[93] - المائدة 31

[94] - النمل 28

[95] - النمل 22

بمهمّة إيصال الرّسالة، فاختار سليمان عليه الصلاة والسلام من وجد فيه التهيؤ لأن يكون رسولا.

وكذلك بقية الحيوانات من الوحوش وغيرها مهيأة لما خلقت له، ومصدر تهيئها هو الأعضاء والغريزة، فالسّباع والحيوانات المفترسة مهيّأة لأكل اللحوم، وتهيؤها لهذا العمل معلوم لدينا بما نمتلك عنها من أفكار، لذلك قال يعقوب عليه الصّلاة والسّلام: {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ}96؛ فهو لعلمه تهيؤ الذّئب للافتراس وأكل اللحم خشي على يوسف منه، لذلك وجدنا إخوته عندما جاؤوا أباهم عشاء يبكون كان جوابهم له ضمن دائرة التهيؤ: {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}97.

ومن ناحية ثانية أن السباع لديها تهيؤ للافتراس وأكل اللحم، وتهيؤها مصدره الغريزة والأعضاء، إلا أنها لا تأكل أوّلَادها، فهو تهيؤ ضمن التهيؤ بأن لا تأكل أوّلَادها، مع أن ذلك قاعدة استثناء، لأنَّ هناك من الحيوانات التي تأكل أوّلَادها.

إنَّ تهيؤ الإنسان هو نتاج العاطفة التي تدفع الغريزة لإشباع الحاجة، كما أنَّ صيّادًا يتهيّأ لصيد الطّريدة، أي: مرحلة ما قبل الاستعداد للرّمي، فإذا وصل إلى مرحلة الاستعداد، خضع لقرار الإرادة، وبالتّالي فإنّ الطّريدة تتهيأ من خلال استعداده لأنّها تشعر بالخوف عن طريق الغريزة، وهذا الخوف هو تهيؤ من أجل الاستعداد للفرار، ومعنى هذا أن جنس الحيوان يستمدّ تهيؤه من غرائزه.

أمّا الانتقال من التهيؤ إلى الاستعداد ثمّ مباشرة الفعل؛ فهو مرتبط بالعقل لدى الإنسان بما تكون عليه النتائج وفق الأخلاق التي يحملها، وأمّا

[96] - يوسف 13

[97] - يوسف 17

بالنّسبة للحيوان فذلك مرتبط بالغريزة وردّة الفعل للانتقال إلى الاستعداد والتصرّف.

فالتّهيؤ لا يقتصر فقط على البشر، بل يتعدّاه لجميع الكائنات والمخلوقّات الأخرى، فمثلا الحشرات تتهيّأ لاستقبال الشتاء والبرد بتخزين الطّعام لعدم قدرتها على التّحرك خارجا في البرد، فتهيئ نفسها على ذلك كالنّمل مثلا، وكذلك النّحل؛ فهو يتهيّأ لإنتاج العسل وصنع الخلايا، واتخاذ الجبال بيوتا: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[98]،

والتهيؤ شعور يسبق أيّ ردّة فعل أو انفعال أو تصرّف يصدر عن المخلوقّات بصفة عامّة وعن الإنسان بصفة خاصّة، لأنّ من شأن التهيؤ إذا كان في الاتجاه الصّحيح أن يجعل من الإنسان قويًّا وحكيمًا لا يضعف ولا يفاجأ في الحياة فلا يحسن التصرّف في معالجة الأمور؛ ولهذا كان لا بدَّ من التهيّؤ حتى في أدق أمورنا وفي تفاصيل حياتنا اليوميّة كأن يتهيّأ الرّجل حتى في دخوله بيته لتتهيأ أسرته بالتالي لاستقباله، وكذلك كلّ شيء إذا ما أتيحت له الفرصة قادر على أن يتهيّأ وفقًا لما هو متوقّع وغير متوقّع.

امتلك الإرادةُ:

الإرادةُ امتلاك زمام الأمر بلا سُلطان خارجي، بها يتمكّن الإنسان من الاختيار الحرّ، وبدونها يُقهر، وهي الوعي بما يجب وبما لا يجب مع وافر الحرّية، حيث لا إرغام من أحدٍ، ومن هنا؛ فهي منبع الأمل للذين يأملون بلوغ غاياتهم بلا تدخّلات على حساب القيمة والكرامة الإنسانية.

[98] النحل 68: 69.

والإرادة بدون تمكين الأفراد والجماعات من ممارستها تظل مفهوما مجرّدا ليس إلّا، ولهذا؛ فأهمية الإرادة هي أن تجسّد في الأفعال، حتى يتمكّن النَّاس من بلوغ ما يأملون عملًا وسلوكا، ومن ثمّ؛ فالتمكّن من الإرادة إرادي، أمّا التمكين منها فمسؤولية من يتولّى مسؤولية سواء أكانت أسرية أم اجتماعية أم وطنية أم إنسانية.

ولأنَّ الإرادة وعي بما يجب وبما لا يجب؛ فهي قرار يصدر للإقدام الاختياري دون إكراه على ما يجب أو ما لا يجب، مع تحمُّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسؤوليات، والإرادة وثيقة الصّلة بالوعي بفعل يحقّقها ويخرجها من المعنوي إلى المحسوس، الذي يُظهر العلاقة القويّة عن ثقة مع الموضوع الذي به ظهرت إلى حيّز الوجود المشاهد والملاحظ.

والإرادة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع تكون مسؤولة وقد لا تكون؛ فعندما تكون مسؤولة عن الأخذ بالبديل تحقّق للفاعل وللموضوع الاعتبار والاعتراف والتقدير، وعندما لا تكون مسؤولة عن اختيار البديل لا تحقّق لصاحبها الاعتبار ولا الاعتراف ولا التقدير، بل تحقّق له النّدم يوم لا ينفع.

فالإرادة قرار يحمل مسؤولية، والمسؤولية لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمَّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب على ما سيقدم عليه من عمل أو سلوك حيث لا إجبار من أحدٍ، ومن هنا؛ فالإرادة تمكين هي: منبع أمل لمن قوّضت حرّيته أو حرم من ممارستها بإجراءات تعسّفية من قِبل الغير.

ولأنَّ الإرادة تمكين فهي منبع أمل؛ فهي نتاج قرار قابل للتنفيذ، وهي بعد التنفيذ في دائرة المتوقّع تُمكِّن الإنسان من تحمُّل أعباء المسؤولية دون تردّد، أمَّا الإقدام على الفعل بدون توافر الإرادة؛ فقد لا يحقّق للفعل إنجازا بأسباب الخوف والتردّد، وإن تمّ إنجازه إكراها فلن يكون مثالا.

والإرادة المسؤولة الواعية هي التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب عليها من أعباء جسام، ومن ثمّ فلا يترتّب عليها ندما، ولهذا؛ فلكلِّ شيء قاعدة إصلاحية واستثناء إفسادي. والاستثناءات هي التي يقدم على أفعالها المارقون أو المنحرفون، وبخاصّة أولئك الذين يتربّعون على قمّة السّلطان ولا يحيدون عنه، وكأنّ الأوطان لم تنجب غيرهم من بني الوطن أو وكأنّ الشّعب (كلّ الشّعب) لا يوجد فيه أحد مؤهّل لممارسة الحرّية.

ولذلك؛ في مقابل هذه القواعد المنظّمة للممارسة الحرّية تظهر الاستثناءات من قِبل الأنا (الشّخصانية)، ممّا يجعل مَنْ وضع نفسه على قمّة سلّم السّلطان مهيمنا على كلّ أمر سياسي واقتصادي واجتماعي في خانة الاستثناءات مطاردا، حتى وإن نصَّب نفسه شرطيًّا مدَّعيا سلامة الوطن والأمن العام وتنفيذ القوانين بحزم، أو حتى وإن نصَّب نفسه واعظا ومرشدا بما أنّه في دائرة الاستثناءات لن يكون إلّا مطاردا حتى النّهاية.

ولهذا؛ فكلّما اشتدّت المطاردة واشتدّت التأزّمات بين قاعدة الاعتبار وقمّة سلّم السّلطان، وهُدّد الآخرون بالموت من قِبل من هم في دائرة الاستثناءات، أصبح الموت عندهم مطلبا مع توافر الرّغبة، ولهذا؛ يفقد من هو على قمّة سلم السّلطان مكانته، ويفقد الشّرطي سلاحه، والواعظ حُجَته التي بها يلاحق الآخرين، ويكون كلّ منهم ضحية مستبدلا بلا ثمن.

وعليه: فأنَّ الموت الذي هو سلب الحياة يتحوّل إلى قيمة مقدّرة إجابا بها يتمّ نيل الاعتراف والتقدير والاعتبار عندما يكون عملًا يرجو الإصلاح أمل وارتقاءً.

والبعض من النَّاس يتصوّر أنَّ الإرادة هي حُسن الاختيار، لكن لو كان الأمر كذلك، لكان المسميان لمعنى واحد، والدّليل على ذلك أنّ الإرادة عندما تكون أمام أمرين فإنَّها تختار أحدهما أو تستبدله دون الآخر، وكذلك؛ فإنَّ

الإرادة عندما تتخذ قرارها يكون هذا القرار في اللحظة نفسها اتجاه هذا الأمر، أمّا الاختيار فيكون من أمور متعدِّدة يقع الاختيار على واحد منها يتمّ دفعه للإرادة التي تتّخذ قرارها فيه.

فالاستبدال، إمّا أن يكون بين أمرين، أو بين اختيارين وفقًا لِما تمليه القيم، أو ما تمليه المصلحة، أو حتّى ما تمليه الأطماع، وإمّا أن يكون الاستبدال الإرادي من متعدّد البدائل؛ فالإنسان بإرادته الحرّة يستطيع أن يختار أو يستبدل ما يشاء وفقًا لتفضيلاته، أو وفقًا لِما هو أقلّ ضررا، أو لِما هو أكثر ضررا من غيره؛ فأصحاب الشرّ لا يفضِّلون غيره بإرادة، وأصحاب الحقّ والخير لا يفضّلون غيره، وهكذا كلّ شيء بإرادة، ومن بين هذا وذاك في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، يستطيع الإنسان أن يُرتِّبَ بدائله وفقًا للمتاح مع مراعاته للظرف الزّماني والمكاني ولكلٍّ خصوصية لا تتطابق مع خصوصيات الآخرين وإن تماثلت معها.

ولأنّ العلاقة قويّة بين الإرادة والاختيار والرّغبة في الاستبدال، ودرجة التفضيل بين ما هو قابل للاختيار منه، أو قابل لاستبداله بالكامل، فإنَّ التقييم للاستبدالات أو الاختيارات والتفضيلات يُسهم في تهذيب الإرادة وتطويرها وتغييرها من أجل استبدال ما هو أفضل أو أنفع، وهكذا تتحسّن الأحوال وتقوَّم من قِبل الواعين بما يجب وبما لا يجب لتكون السُبل ممهّدة تجاه غايات مستنيرة بالحقّ وموجبات إحقاقه.

فالاستبدال الإرادي هو في واقع الأمر تقديري، بمعنى أنّه يقوم على تقدير الأنا للقيمة المفترضة، ثمَّ تقييم تلك القيمة وصولا إلى قرار الضّرورة الإرادية للاستبدال؛ فالتعويض مثلا، هو استبدال إرادي لفاقد يجب تعويضه لضرورة أو لرغبة أو حاجة[99].

[99] عقيل حسين عقيل، الهوية بين متوقع وغير متوقع، ص 178 . 180

ولهذا فالإرادة قرار اختياري يؤخذ بوافر الرّغبة تجاه كلّ ما من شأنه أن يحقّق الرّضا في حدود الوعي بما يجب وبما لا يجب، مع تحمُّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسؤوليات، ولذا فالإرادة وثيقة الصلة بالوعي بعزيمة تحقّقها وتخرجها من المعنوي إلى المحسوس الذي يُظهر العلاقة القويّة عن ثقة مع الموضوع الذي به ظهرت إلى حيّز الوجود المشاهد والملاحظ.

والإرادة في دائرة الممكن قد تكون مسؤولة وقد لا تكون؛ فعندما تكون مسؤولة تحقِّق للفاعل وللموضوع الاعتبار، والاعتراف، والتقدير، وعندما لا تكون مسؤولة لا تحقّق لصاحبها الاعتبار ولا الاعتراف ولا التقدير، بل قد تضعه في السّجن أسيرًا بين الجدران، ومع ذلك لكلٍّ مبرّره، والمهم في هذا الأمر بما أنَّها الإرادة؛ فهي المعبّر عن الحقيقة ولو تمَّ إنكارها اضطرارًا.

وعليه: ينتفي الإرغام والإكراه وكلّ أساليب الإجبار المهينة كلّما وعي الإنسان إرادة بما يعمل أو يفعل أو حتى فيما يفكّر ولِما يتهيأ ولمن يستعدّ؟ ومتى يتأهّب؟ وبماذا؟

فالإرادة هيّ: قيمة تحقيق المكانة التي يسعى النَّاس إليها، ممّا يجعل المستهينين بالآخرين مستهان بهم سواءً أكانوا على دراية بذلك أم لم يكونوا، ومن يجعل للآخرين مكانة يجد له عندهم مكانات، ومن يعتبر ويتّعظّ لن تكون له حاشية إلّا من المتّعظين، ومع ذلك في دائرة الممكن كلّ شيء متوقّع فلا داعي للغفلة، ولا داعي لاستغفال الآخرين، ولا داعي لسلب إراداتهم.

ولأنَّ الإرادة حقّ؛ فينبغي أن تمارس بحرّيّة في دائرة ترسيخ الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، ولأنّها حقّ ينبغي الاعتراف بممارستها، ولهذا يسعى الإنسان دائمًا لنيل الاعتراف لأجل تبوأ مكانة اجتماعية أو علمية وإنسانية.

وهنا ينبغي أن نميّز بين الإرادة الفرديّة والإرادة العامّة؛ فالإرادة الفردية هي في حدود الخصوصيّة التي تتساوى فيها مع خصوصيات الآخرين دون اختلاف وإن كان هناك تنوّع وتعدّد.

أمّا الإرادة العامّة؛ فهي التي يتمُّ توصيفها بصلاحيات واختصاصات تشريعية وقانونيّة، وهي القابلة للتقييم والتقويم وفقًا لمعايير موضوعيّة متّفق عليها بمقاييس الجودة. ذلك لأنّ الإرادة قرار يحمل مسؤولية، والمسؤولية لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمَّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب عليه:

ولأنَّ الإرادة نتاج قرار قابل للتنفيذ؛ فهي بعد التنفيذ تُمكِّن الإنسان من تحمُّل أعباء المسؤولية دون تردّد، أمَّا الإقدام على الفعل بدون توافر الإرادة قد لا يحقِّق للفعل إنجازا موجبا أو لم يُنجز أصلا بأسباب الإجبار والإكراه أو بأسباب الخوف والتردّد.

ومن ثم فإنَّ الإرادة المسؤولة هي الإرادة الواعية التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب من أعباء جسام، ومن هنا فلا يترتّب ندم في نفس من أقدم على أدائها، ولهذا يكون لكلِّ شيء قاعدة إصلاحية واستثناء إفسادي.

ولذا فمن يقرّر أن يواجهك عن إرادة؛ فعليك ألّا تستهين بالأمر؛ وعليك أن تعرف أنَّ الإرادة كفيلة بأن تُنجز في دائرة الممكن غير المتوقّع ما لم يكن في دائرة الممكن متوقعا[100].

الإرادة قوّة:

الإرادة قوّة، من يمتلكها يمتلك زمام أمره؛ فهي النشاط الواعي الذي يَقدم عليه الإنسان الحرّ عن وعي وإدراك سابقين لأجل بلوغ غايات بعزيمة

[100] عقيل حسين عقيل، الإرهاب بين قادحيه ومادحيه، ص 39 . 43.

وإصرار وبدون تردّد، ولذلك فاتخاذ القرار عن وعي وتنفيذه بكلّ وعي وتحمّل ما يترتّب عليه من أعباء يدلّ على ممارسة الفعل الإرادي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات البشرية، ومع ذلك لا إرادة إلّا بقدرة وقرار، وتنفيذ، ومسؤولية، وتهيئ نفسي.

ولهذا قوّة الإرادة will هي التي تُمكِّن الإنسان من ممارسة الحرّية.

وعليه فالقاعدة هي:

. قوّة الإرادة.

. اتخاذ القرار.

. تنفيذ القرار.

. حمْل المسؤولية.

. تنمية القدرة.

. التهيؤ النفسي.

والاستثناء هو:

. ضعف الإرادة.

. عدم المقدرة على اتخاذ القرار.

. عدم المقدرة على تنفيذ القرار.

. التخلي عن حمْل المسؤولية.

. عدم تنمية القدرة.

. عدم التهيؤ النفسي.

قوَّة الإرادة تقوّي المناعة:

بما أنّ الإرادة تقوّي المناعة.

إذن: القاعدة هي:

. قوَّة الإرادة.

. قوَّة المناعة.

والاستثناء هو:

. ضعف الإرادة.

. ضعف المناعة.

وعليه:

وفقًا لقاعدة المتوقّع خذ بالقاعدة.

ووفقًا لقاعدة غير المتوقّع لا تهمل الاستثناء.

ولهذا؛ كلّما قويت إرادة العملاء قويت مناعتهم.

فالمناعة immunity سياج دفاعي يُحصِّن الأفراد والجماعات والمجتمعات من الانهيار، والاستسلام لِما لا يجب. ولهذا على الأخصائي الاجتماعي أن يعمل على تقوية مناعة العملاء حتى لا يستسلموا للمؤثرات السّلبية.

لذلك على الأخصائي الاجتماعي، أن يستثمر قوَّة الإرادة من أجل تقوية بناء شخصية الفرد والجماعة والمجتمع على مبادئ وقيم تجعلهم على حالات من الاعتبار والرّقي في المهارة والمسلك، حتى لا يكونوا على حالة انسحاب وضعف ووهن وركون إلى كلّ سالب.

ولهذا، يستثمر إخصائي التنمية البشرية والأخصائي الاجتماعي قوَّة الإرادة في تعطيل أنماط التفكير الخاطئة، وتنمية أنماط التفكير الصّائبة، التي تُمكّن الأفراد من أحداث النُّقلة إلى مستويات الطموح المتطوّرة عبر الزَّمن.

القرار قوَّة إرادة:

تكمن قوَّة القرار في اتخاذه بمسؤولية، وفي درجة الوعي والإلمام به وبالمعطيات التي تستوجب إقراره. ولذلك كلّ قرار يُتخذ سيظل نوايا وتصميمات مجردة إلى أن يتمّ الإقدام على تنفيذه، حينها يصبح القرار نافذا وذلك بتماثل العزيمة والإصرار مع الإرادة الفاعلة.

ولهذا فالقاعدة هي:

. قوَّة القرار بإيجابياته.

. الإلمام بالمعطيات.

. التنفيذ الإرادي.

والاستثناء هو:

. ضعف القرار بسلبيَّاته.

. عدم الإلمام بالمعطيات.

. التنفيذ غير الإرادي.

ومن هنا؛ فلا تحدث الأشياء إلا بقرار، ولا تنجز المهام والأعمال إلّا به، والقرار في دائرة الممكن المتوقّع هو الوعي بما يجب. أمّا في دائرة الممكن غير المتوقّع فهو عدم الوعي بما يجب. ما يجعل البعض يقدمون على أداء ما لا يجب. وهنا يفسح المجال أمام المتخصصين لممارسة أدوارهم المهنية.

كلّ شيء يقرّر إرادة:

ومع أنّ كلّ شيء بقرار ولا شيء بدونه، إلّا أنَّ القرار لا يخرج عن كونه متوقّعًا أو غير متوقّع؛ ولهذا كل القرارات هي في دائرة (الممكن).

وبما أنّنا نعرف أنّ كلّ شيء يقع في دائرة الممكن، إذن: لا داعي للاستغراب.

وعليه: (كلّ شيء بقرار)، يساوي (كلّ شيء ممكن)، وبما أنّه لا مستحيل في دائرة الممكن. إذن علينا بقبول تحدّى الصّعاب دون خوف ودون تراجع.

وعليه: من لا يتحدّى الصّعاب لا يُمكن أن يكون له مستقبلًا نافعًا ورفيعًا، ومن لا يُسرع قوَّة وتدبّر لتحدّي الصّعاب لن يجد له مكان ليضع قدميه عليه أمام الحركة السّريعة للمتنافسين، ممّا يجعل البعض على الرصيف جالسين في دائرة المستقبل.

ولهذا كلما كان القرار الإرادي قويّا وكان تنفيذه قويّا، تجاوز أصحابه العقبات التي تحول دون إحداث النُّقلة.

ولكي نتمكن من اتخاذ القرار عن وعي، علينا بمعرفة العلاقة التي تربط قوَّة القرار بقوَّة اتخاذه.

ولذا فقوَّة القرار تكمن في الآتي:

. ما يحقّقه وما يترتّب على إنجازه.

. قوَّة الالتزام بتنفيذه.

. استيعابه لكلّ من يتعلق الأمر بهم أفرادا أو جماعات أو مجتمعات.

. استيعابه للمتغيّرات ذات العلاقة بالموضوع.

. تجاوز محققاته لِما كان متوقّعا.

. إحداثه للمفاجأة الموجبة التي تُحدث استغرابا لكلّ من لا يتوقّعه.

أمّا قوّة اتخاذ القرار فتكمن في:

. قوّة القرار ذاته.

. قوّة المعايير والقواعد والأسس والمبادئ.

. قوّة التنفيذ.

. قوّة الهدف.

. قوّة الخطة.

. قوّة إعداد البرامج.

. وضوحه والمستهدف من ورائه.

. الإصرار على تجاوز السلبيَّات.

. الاقتناع وعدم التردد بمبررات اتخاذه.

. بما يتركه من أثر موجب.

وعليه؛ فالإرادة وثيقة الصّلة بالوعي والفعل الذي يحقّقها ويخرجها من المعنوي إلى المحسوس بفعل مادّي إرادي، وحينها يصبح الإنسان مسؤولا عما فعل بإرادته سواء أكانت مسؤولة أم أنّها غير مسؤولة.

– الإرادة غير المسؤولة: هي التي لا تحقّق لصاحبها الاعتبار والاعتراف والتقدير.

- الإرادة المسؤولة: هي التي تحقّق للفاعل وللموضوع الاعتبار، والاعتراف والتقدير.

ولذا فلا إرادة دون موضوع واضح؛ ولذلك فبوضوح الموضوع تتحقّق الإرادة بالقوَّة الدّافعة إلى الفعل بعد تهيّئ واستعداد وتأهّب.

فالإرادة مسؤولية والمسؤولية لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمّله الإنسان لأداء ما يناط به من مهام: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[101]، ولنا أن نقول: إنّ الأمانة هي خلافة الله في أرضه، وهذه هي المسؤولية التي تميّز بها الإنسان عن غيره من الكائنات، وليست العبادة فقط، لأنّ جميع الكائنات منقادة لله عابدة له تسبّحه وتقدسه، ومن ثمّ؛ فالإرادة تجعل الإنسان مسؤولا لأنّه لا بدَّ أن يكون على وعي بما يقدم على فعله[102].

وعليه: فالإرادة المسؤولة هي التي لا تكون إلّا عن وعي، وهي التي لا تحقّق النّدم لأصحابها، ولهذا فلكلّ شيء قاعدة إصلاحية واستثناء إفسادي.

القاعدة الإصلاحية:

- الدّفاع عن العِرض.

- الدّفاع عن الوطن.

- الدّفاع عن النّفس.

- تعمير الأرض.

- نشر الوعي بقيمة الإنسان في الحياة.

---

[101] الأحزاب 72.

[102] منطق الحوار ص 173.

- الحث على العلم النّافع.

الاستثناء الإفسادي:

- التفريط في الوطن.

. التفريط في النفس.

. هتك العرض إفساد.

. تخريب الأرض.

. تعميم الجهل.

ولهذا فالإرادة قوَّة تمكّن من حمل المسؤولية ولكن وفقًا لصلاحيات واختصاصات مع وافر الوعي بما يجب، ووافر الإدراك تجاه ما يجب مع معرفة ميسّرة لحمل المسؤولية عن إرادة ورغبة.

الاستعداد حيطة:

الاستعداد: جهد يبذل في تجميع القوَّة وترتيبها وتصنيفها من أجل الفعل أو العمل المستهدف إنجازه، وهو يدل على تجاوز الغفلة تجاه ما يجب الإقدام عليه أو القيام به، وهو الضرورة التي تسبق أيّ عمل أو فعل، وبدون الاستعداد لا تُبلغ الآمال، ولهذا فهو منبع أمل لفعل يُفعل، أو هدف ينجز، أو غاية تبلغ؛ فالاستعداد لا يكون إلّا عن دراية لما يجب، وهو أخذ الحيطة من الفشل، وتجنب الوقوع في السُفليّة.

الاستعداد مرحلة ما بعد التهيّؤ عن إرادة، وهو لا يكون إلّا مرحلّة لاحقة لهما ومعتمدة عليهما؛ فالاستعداد تجميع للقوَّة المِمكّنِة من تنفيذ الفعل مع أخذ الحيطة من الوقوع في الفشل أو الغفلة، ولا يكون إلّا من أجل أهداف يُراد لها أن تنجز بما أُسّست عليه من تهيّؤ وإرادة.

إنَّه استمداد للقوَّة المعنوية والمادّية من مصادرها، مع اختيار الأجود والأفضل لأداء الفعل ومراعاة الظّرف الزّماني والمكاني والتوقيت المناسب.

فالاستعداد يكون لأداء الفعل من الفاعل المتهيّئ الذي امتلك الإرادة وجمَّع متطلبات الاستعداد المحقّقة للأهداف، وهو المرحلة التي يتمّ فيها إعداد العُدَّة وحصر الإمكانيات بعد دراسة وافية وخطة مُحكَّمة لتنفيذ الفعل؛ ولهذا فالاستعداد لم يكن العُدَّة ولا الإعداد، بل هو الجهد المبذول تخطيطا وتجهيزا من أجل توفير ما يستلزم لتنفيذ الفعل أو خوض المعركة قبل أن تشتعل نيرانها وتشبّ، ممّا يجعل العُدّة والإعداد جزءا من الاستعداد وليس متطابقتان معه في الدلالة والمعنى.

فالعُدّة هي استحضار وسائل القوّة المادّية بأدواتها التي تُمكِّن من أداء الفعل، وهي مجموعة الوسائل التي يستعين بها الإنسان ليتوجَّه إلى ما يُمكن أن يحدث في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ ولذا فما يعدّه الإنسان لحوادث الدّهر من مال وسلاح لمواجهة ما يهدّده يجلب له نفعا أو يدفع عنه ضررا يسمى العُدّة.

أمَّا الإعداد؛ فهو الذي يُمكِّن من ممارسة الفعل بنجاح ويمنح المستعدّ الكفاية، وهو تدريب عملي على استخدام ما يمتلكه المستعدّ من عُدَّة تعينه على جلب نفع أو دفع ضرر.

والعلاقة وثيقة بين الاستعداد والفعل، فلا يقدِم على الفعل ويحقّق النّجاح أو الفوز إلّا المستعدّ بإعدادٍ جيدٍ؛ فإذا كان الهدف دخول الامتحان وتجاوزه بنجاح، فلا بدَّ من الاستعداد له قبل أن يأتي، أي: يجب القراءة والمراجعة والتعرّف على الممكن المتاح حتى لا تحدث المفاجئة يوم الامتحان. وكذلك إذا كان المستعدّ له دخول حرب؛ فلا بدَّ من الاستعداد النفسي والمعلوماتي

والتدريب والتأهيل ورسم الخطط الرئيسة والبديلة، وكلّ ما من شأنه أن يفاجئ الخصم ويقلل الخسائر وفي المقابل يحقّق نصرًا.

الاستعداد يستوجب اجتماع النيّة وتمام القصد في أداء الفعل مع تحمُّل نتائجه سلبا وإيجابا، وهذا يجعل (الاستعداد) من الرّسوخ في القلب بمكان، فإذا امتلك المرء أدوات الاستعداد أقدم على فعل يُنجز عنده، وقد يكون غير متوقّع الإنجاز عند غيره؛ فالفشل مفردة منزوعة من قلب من تهيّأ للنجاح بإرادة واستعدّ له.

فالاستعداد هو أخذ الحيطة والحذر واستحضار القوَّة العقليَّة والفكريّة والنفسيّة والمادّيّة التي تؤدّي إلى الإقدام على تنفيذ الفعل دون تردّد بعد اتخاذ الإرادة قرارها؛ فالأفراح والأحزان والحرب والسّلام والأعياد والمناسبات، كلّها مواقف ومناسبات يتمّ الاستعداد لها باستمداد القوَّة المادّية والمعنوية التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يسيطر على تلك المواقف، ويُسخِّرها وفقًا لإرادته كما يشاء ويرغب أو كما يُفضّل ويستحسن، وللاستعداد أنواع منها.

الاستعداد الذهني:

الانتباه لا يكون إلّا بعد فطنة واستعداد وإلّا سيجد الإنسان نفسه غافلا وسارحا وهو لا يدري عمَّا هو غافل وفيما هو سارح الذّهن، ومن ثمّ؛ فالاستعداد الذهني هو المؤسّس للقناعات التي لا تكون إلّا مع الإرادة أو بها، ولا يتمّ هذا الاستعداد إلّا بالانتباه والفطنة والوعي بمعطيات الأمور في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فالاستعداد الذّهني يحتوي على الإلمام الفكري والثقافي وفقًا للمدركات العقليَّة، ممّا جعل العقل البشري يختزن معلومات شتى من العقائد والعلوم والفنون والمهارات والبيئة والحياة العامة وكلّ ما له علاقة بحياة

الإنسان وما يتعلّق بهذه الحياة، وبخاصّة أنَّ الجانب الفكري هو عماد الأمور في جميع المسائل التي تصبّ في مصلحة الإنسان أفرادا وجماعات.

إنَّ القضايا المكوِّنة لمخزون الوعي الجمعي لمجتمع معين، إن تمّ تناسيها عند البعض فإنّ البعض ستظل عنده مركَّزة ومتمركزة في الوعي الشّخصي على مستوى الأفراد في ذلك المجتمع، وهذا الوعي هو سلسلة من الأفكار، وهذه الأفكار تُسخَّر استعدادا لما ترغب الإرادة وتفضّل القيام به من عملٍ في مواجهة حدث أو موقف أو ظاهرة أو مجموعة قضايا.

إنَّ الاستعداد الذّهني لا يُكتسب لحظة الحاجة إليه، وإنَّما هو ذلك الموجّه من قِبل الملكات العقليَّة، ينمو ويتطوَّر من التجارب والعلوم والمعارف والمشاهدات والخبرات والتاريخ الذي به تترسَّخ الهويّة التي بها تتوحّد الأمّة أو الشّعب حتى يصبح كلّ فردٍ وكأنّه الأمّة بكاملها أو أنّه الشّعب بكامله.

وهذا ما يُعبَّر عنه بسلسلة الأفكار التي أصبحت خاضعة للإرادة التي تخرجها إلى الاستعداد، بحيث يكون التركيز الذّهني منصبّ على استحضار الأفكار والمعلومات ذات العلاقة في المواقف أو الأحداث التي تخدم الإرادة في قضية ما.

إنّ الاستعداد لأجل حلّ أي قضية هو دائمًا موجود في الفكر الإنساني قبل استدعاء تلك الحلول، ولكن الذي يستدعيه ويستحضره طلب أو موقف خارجي، وهنا لا توجد قضية منطقية غير قابلة للحلّ؛ فالاستعداد لحلّ أيِّ قضية أو مواجهتها أو الحصول على الأسباب المؤدّية إلى نتائج إيجابية فيها، متوفّر دائمًا في العقل الإنساني المدرك للحقيقة هي كما هي إن أراد حلًّا لا ظلم فيه.

الاستعداد النفسي:

ومع أنَّ الاستعداد الذّهني ضرورة إلّا أنّه لم يكن كلّ شيء في معطيات الاستعداد؛ فالاستعداد النفسي والمعنوي من أكبر الضّرورات والمعطيات قبل الإقدام على الفعل، ولهذا فالهزائم في الحروب والمواجهات تلحق أوَّل من تلحق المنهزمين نفسيًّا ومعنويا؛ فمهما توفَّرت للجيوش من عتاد وعدّة لن يحقّقوا النّصر المنتظر ما لم يكن المقاتلون على درجة عالية من الاستعداد النفسي والمعنوي الذي لا يبلغ أشدّه إلّا عن إرادة ووعي بالمسؤوليات الجسام الواجب حمْلها كلّما اشتدّت شدّة أو تأزّمت الأحوال.

ومع أنّ الاستعداد النفسي غير الاستعداد الذّهني إلّا أنَّهما يتداخلان كما تتداخل متغيرات القضية الواحدة التي تؤثِّر متغيراتها على بعضها البعض؛ فالإنسان العاقل هو الذي يتأثّر نفسيًّا سلبا وإيجابا، ومن يحسن التفكير يحسن التدبُّر، ومن يحسن التدبُّر يدرك الحقّ ويلتزم بمعطياته، ويدرك الباطل ويخشاه ويجتنبه ويبتعد عنه دون خوف ولا تردّد، بل قد يصاحبه الخوف إن لم يجتنبه ويخشاه، وعنه يبتعد. ولذلك يكون الاستعداد النّفسي والمعنوي رافدا مهما للاستعداد الذّهني، وهو المحفِّز من حيث اجتماع قوى النّفس استعدادا لمواجهة الحدث.

إنَّ هذا الاستعداد لا يمكن أن يكون له صورة في الخارج، لأنّه لا يُستمدّ من الأشياء الحسية الواقعية وإنْ كانت مؤثّرة فيه، وليس له صورة في الدّاخل، ولهذا فالعقل لا يستطيع أن يرسم له صورة متخيِّلة، علمًا بأنَّنا نستطيع أن نقف على هذا الشّعور عندما ينعكس تأثيره على صفات المستعدّ؛ فالغضب والحذر والابتسامة والخجل والتعرُّق والعزم والحزم والهمَّة والخوف، إنّما هي انعكاسات قوى النفس المعنوية على الجانب العضوي استعدادا للحدث، فهذا الاستعداد

إنّما هو صورة مجرَّدة، فالإنسان يُدرك أثر الانفعال من تلك الصّورة على المستعدّ، وهو يدرك شعورا لا يستطيع أن يصفه أو يعبِّر عنه إلّا بانعكاسات الانفعال المولِّدة للاستعداد برغبة وتهيؤ.

ولهذا فالقوىَ النفسية الكامنة في الإنسان تستنهض استعدادا للحدث عن طريق تداعي أفكار معيِّنة في موضوع محدِّد أو مشاهدة بصريّة، ممّا يجعل بعض الغُدد تفرز عصارات مختلفة تجعل الإنسان على غير اتزان ولا توازن.

إنَّ سيلان الدّموع فرحا أو حزنا وحسب الموقف ودرجة تأثيره سلبا أم إيجابا، هو نتاج تأثُّرات النّفس الدّاخليّة، وإن أثّر ذلك تأثرا خارجيا كما هو حال احمرار الوجه أو اصفراره عند ما يلمَّ بالإنسان خوفا أو مرضا وكذلك في حالة الخشية والاحتشام، وما تتركه من أثرٍ على اللسان وما يلمَّ به من تلعثم عند الحديث، وارتعاش اليدين عند الحركة والسّكون وغيرها كثير؛ فكل هذه الظّواهر بأسباب الاستثارة الدّاخلية والفزع لا تتحقّق عند من تهيّأ واستعدّ عن إرادة وقصد وإيمان ووعي بأهمية القضية التي لها تهيّأ واستعدَّ بإرادة، ولذا فالمرتعشةُ أيديهم والطّامعون والضعفَاء لا يصنعون التاريخ ولا يسهمون في صناعته، الواثقون وحدهم هم القادرون على صناعته، وأين ما يحلّون تكون لهم الأمجاد؛ فمن يطلب الموت تُكتب له الحياة، ومن يطلب الحياة عليه بقبول المفاجئة في الوقت غير المتوقّع وحينها لن يفيد الاستغراب.

الاستعداد البدني:

مهما استعدَّ الإنسان معنويا (ذهنيا ونفسيًّا) لن يحقِّق النّصر المؤزّر إلّا بإضافة الاستعداد البدني وإعداد العُدّة إلى ذلك الاستعداد المعنوي؛ فينبغي ألا يغفل الإنسان عن أهميّة المران والتمرّن والتدريب والتأهيل واكتساب الخبرة والتعلّم حتى يكتسب لياقة ومهارة وفنّا بها يتمكّن من خوض المعركة إن كُتبت عليه.

ولأنّ أفضل الأفكار والنّظريات ما كان قابلا للتطبيق على أرض الواقع، لذلك فالعقل والفكر الذي يسعى لتوافر أدوات الاستعداد المادية مع تقدير الإنسان قيمة عالية هو الفكر الذي يدفع النَّاس إلى الإنتاج والعمل، دون أن يتركهم يجترُّونَ الكلمات التي لا تُغني ولا تشبع من جوع؛ فالفكر المنتج هو الفكر المبدع الذي من خلاله يتهيّأ الأفراد بإرادة إلى العمل الذي يُحدث النُّقلة ويحقّق لهم الأمل، ولهذا جاءت الأديان السّماوية عقيدةً وعملًا متلازمين (معنويا ومادّيا).

وعليه: مهما كانت الأفكار النّظرية إن لم تتجسّد في أفعال وسلوكيات وانعكست في مهارات وخبرات ومران وفنّ وحركة وصورة؛ فهي لن تُحقّق للإنسان غاياته في الحياة ولا يمكن أن تصنع له مستقبل ولا تولّد له أمل.

الاستعداد إعداد وعُدّة:

العدّة: تجهيزات وأدوات مادّية، تستوجب جهدا يبذل في سبيل جمعها، أو تهيئتها أو صُنعها، وعندما تكون فعّالة، تواكب زّمن التحدّي، ولكن إن لم تكن كذلك؛ فلا تُحسب لها أهمية إلّا بأسباب الحاجة والضّرورة.

فالعدّة إن لم تكن مجوّدة فلا فاعلية لها أمام تلك المجوّدة إن واجهتها منافسة أو تحدٍّ، ولذلك فتجويد العّدة يُمكّن مُعدِّيها من دخول ميادين المنافسة، وقبول التحدّي، وقد تبُلغ الخوارق بجودتها وحُسن إدارتها.

أمّا إعداد العدّة؛ فهو جهد يبذل لأداء ما ينبغي، وهو المهيّأ للمادّة المراد إعدادها وتوفّرها وعرضها منتظمة ومصنّفة وفقًا للنّوع والجّنس والجّودة والفاعليّة والعطاء المؤثّر إيجابيا على أرض الواقع؛ فالإعداد هو من أجل الملائمة المناسبة للمطلب والحاجة وذلك بغرض تحقيق الأهداف المرجوّة وبلوغ الغايات المأمولة.

فالعُدّة تجويدٌ، هي منبع من منابع الأمل؛ ذلك لأنّ التجويد وما يُبذل بسببه من جهد فكري وعقلي مع وافر التدبُّر من أجل النّهوض من المرحلة غير المتقدّمة تقنية إلى عصر التقنية المتقدّمة (التي تتجدّد بسرعة التقدّم العلمي). ومع ذلك فالعدّة وإن كانت مجوّدة لا تكفي للنّهوض والمنافسة وإحداث النُّقلة ما لم يكن مستخدموها مواكبين لها تعليما ومعرفة وتدريبا و تأهيلا.

ومن إعداد العدّة العمل على توفير المال والعتاد والوسائل المِمكِّنة من أداء الفعل وحصر البشر المؤهلين والمستوعبين لتقنيتها والقادرين على تحمُّل الأعباء وفقًا للقدرة والاستطاعة، ومن هنا يصبح تجويد العدّة منبع أمل لمستقبل أفضل.

العُدّة: هي تلك الوسائل والأدوات والتجهيزات التي تُعدّ من أجل إنجاز أهداف، أو تحقيق أغراض، أو بلوغ غايات، وهي التي تتنوّع وتتعدّد وتُطوّر تقنية، من أجل المنافسة الممكّنة من نيل المكاسب وتقليل الخسائر أو تفاديها قدر الإمكان. فهي إن حسنت إدارتها أدّت إلى نيل التقدّم وتحقيق النّصر، وهي كلّما كانت عالية التقنية وعالية الجودة كانت فعّالة في الميدان المنتج، وذات أثرٍ بالغ الأهميَّة في حالة المواجهة مع الخصوم، وفي الإعمار والبناء والإصلاح، ولذا فكلّما أُعدت وتمّ إظهارها استعراضا أمام العدو أرهبته وحقّقت الهيبة لمالكيها ومستخدميها والمرابطين بها على جبهات المواجهة.

والإعِداد ليس التهيئة، بل الإعداد سلوكي فعلي مادّي، أمّا التهيُّؤ فليس بمادّي، والإعداد ترتيب متكامل لِما يجب إظهاره أو الإقدام عليه، وهو يحتوي على الترتيب والتنظيم والتجهيز، وفي المقابل التهيؤ معنوي ونفسي ومعرفي.

ولأنَّه إعداد؛ فهو يحتوي على التنظيم والتدريب والتمرُّن على استخدامات العُدّة والتمرّس عليها بما يُمكّن العاملين من الإنتاج وحسن الأداء أو المقاتلين في ميادين المعارك القتاليّة من النيل من الخصم وإجباره على

الاستسلام أو التفاوض الذي يمكّن كلّ صاحب حقّ من حقّه ويعيد الحقوق لأصحابها بالقوّة.

إذن: هناك تلازم علائقي بين إعداد العُدّة، وبين التمرّن والتدريب عليها ومن يغفل عن ذلك عندما تُكتب الحرب عليه سيفاجأ بأنَّ العُدّة فاقدة للمقدرة على حسم الصّراع؛ فالصّراع والقتال لا تحسمه العُدّة وإن تطوّرت، بل يحسمه من يدير العُدّة بجدارة وتفوّق يُمكّن من الفوز ويُحقّق النصر ويُرهب الأعداء، ولذا فالتمرّن والمراس ضرورة لإدارة المعارك فن ومهارة.

إنَّ درجة الاستعداد المترتّبة على الإرادة والتهيّؤ تقوى بقوّتهما وتضعف بضعفهما، فإنْ قويت حقّقت نصرا، وإن ضعفت أدّت إلى هزيمة على المستوى الفردي أو الجماعي، مع أنَّ نتائجها على المستوى الفردي والجماعي قد ترتبط بأمرٍ خاصٍّ، ولكن على المستوى المجتمعي نتائجها تكون من أجل الجميع وبها تتحقّق الآمال ويُصنع المستقبل المشترك الذي به تصان حدود الدّول: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}[103].

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ) جاءت أمرُ من الله تعالى للعباد، ولذا فإنَّ إعداد العُدّة لمواجهة من يشكّل خطرا على النَّاس غايتها تحقيق السّلام الذي به تطمئن الأنفس، وتصان البلاد وأعراض العباد؛ فقوله: (وَأَعِدُّوا) هي: أمرُ مطلق مع وجوب السّرعة في الأخذ به وتنفيذه، ولذلك فإنّ الأخذ به طاعة لله تعالى الذي أمر عباده بإعداد العُدَّة التي تُرهب الأعداء الذين يشكّلون خطرا على حياة النَّاس وممتلكاتهم وعلاقاتهم وفضائلهم الخيّرة وقيمهم الحميدة اجتماعيًّا وإنسانيا.

---

[103] الأنفال 60.

وقوله (مَا اسْتَطَعْتُمْ) أي: يجب أن يُعدّ ما يُمكن أن يُعدُّ من عُدّة وفق الاستطاعة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فيجب العمل بكلِّ جهد وبكلِّ الوسائل الممكِّنة من امتلاك القوّة وتوفّرها والتدرُّب عليها والمران من أجل إدارتها حتى تتيسّر استخداما إذا ما كُتبت الحرب أو أُقدت نار الفتنة والاقتتال.

ومع أنَّ الاستطاعة محدودة إلّا أنَّ ورودها في هذه الآية الكريمة جاء وكأنَّها بلا حدود (مَا اسْتَطَعْتُمْ) أي إلى النّهاية التي لا تنتهي بعصرٍ من العصور، بل النّهاية التي تتجدّد في كلِّ عصر إلى النّهاية.

وقوله (مِنْ قوَّة) مع أنَّ (مِن) بعضيّة إلّا أنَّ ورودها هنا جاء للتنوُّع أي: تنوع القوّة الواجب تنوّعها وإعدادها لإرهاب العدو، ولهذا جاءت الاستطاعة غير محدّدة، وكذلك القوّة غير محدّدة (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوَّة) أيَّة قوَّة.

وعليه فإنَّ تنوُّع الصّناعات الحربيّة وتطوّرها وتحسين جودتها والتدريب عليها ضرورة لإرهاب الذين يُخيفون العباد تهديدا ووعيدا وظلما وعدوانا.

إنَّ معظم شعوب العالم الضّعيف تمَّ احتلال أراضيهم وتمَّ تقتيل وتهجير الملايين منهم، واستشهد أكثرهم في سبيل الحريّة وتحرير الأوطان، فهؤلاء الذين عانوا ويلات العذاب أنفسهم ممتلئة خوفا ورعبا من أولئك الذين سبق لهم أن احتلوا بلدانهم وقتّلوا من قتلوا من أجدادهم وآبائهم، وشرَّدوا من شرّدوا من أخوتهم، وشوهوا ثقافاتهم؛ فكيف لهم أن لا يعدُّوا العدّة التي تحميهم من تكرار الاحتلال والاقتتال والاستعمار مرّة بعد مرّة.

وقوله (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) جاءت (رباط الخيل) وكأنَّها لم تكن من ضمن القوّة التي نزلت في قوله (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوَّة)، في هذا الأمر نقول:

الله تعالى لم يقل: (ومن الخيل).

بل قال:

(وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ).

ولذا فالخيل في حدِّ ذاتها هي قوَّة من مجموع القوى المتعدِّدة التي يحتويها قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوَّة).

أمّا الرباط؛ فهو الذي به يطوّق من يريد قيده أو محاصرته، ولأنَّ الخيل لوحدها لا تستطيع أداء هذه المهمة؛ فنسب الأمر لمن يستطيع أن يفعل ذلك، وهم الفرسان الذين يمتطون الخيل وهم معدّون ومستعدّون لخوض المعركة إن كُتبت عليهم كرها.

وعليه: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) هذه كلمات ثلاثة مسبوقة بحرف عطف (و) الذي به مُيِّزَ الرّباط عن القوَّة، أي أنَّ الرّباط هو الذي لا يتمّ إلا بخطة وقرار وتدبّر وكيفية مناسبة، بها يتمّ استعراض القوَّة المحمولة على ظهور الفرسان الذين هم مرابطون على ظهور الخيل المرابط بها على الحدود، وهؤلاء الفرسان هم (المعدّون والمدرَّبون والمتأهبون للإقدام متى ما صدر لهم أمر التقدّم).

وقوله تعالى: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) لا تعني كلّ القوَّة، بل تدلّ على القوَّة المعدَّة والمستعدّة للاستخدام وهي الأمر الواقع أمام المشاهدة العينية والملاحظة العقليَّة والمعرفيّة التي بها يُدرك ويُميّز ما يُرهِب عمّا لا يُرهِب.

فالإعداد على مستوى الإنسانية، يدفع إلى الصحوة من غفلة الانكفاء على الذات والانفتاح على الآخر بما لا يمسّ الأصول والثوابت ضمن المنطلقات المشروعة في التأهّب لمواجهة العدوان حال وقوعه بكلّ قوَّة متاحة، ذلك أنّ الإعداد والعدّة لمواجهة الأخطار المحتملة يتمّ به استيعاب الواقع والمحيط الخارجي، ثمّ الصّحوة والانتباه إلى أنّ الأقوياء الذين سيطر الظلم عليهم لا يرحمون الضعفَاء، وأنّ المراهنة على جمعيات حقوق الإنسان والهيئات الدّولية، مجازفة قد لا تُمكّن من بلوغ الحلّ حتى وإن سوّقت له.

إذن: الإعداد دعوة أخلاقيَّة في تحقيق الإنصاف الذي يُؤمّن التوازن بين الأفراد أو الشّعوب، ومن ثَمّ يكون الإعداد في هذه الجوانب دافعا للصّحوة التي تحقّق المفاجأة في دائرة الممكن غير المتوقّع، فقوله تعالى: (أعدّوا) يحتوي الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولما كانت العدّة من الأشياء المادّية؛ فنادرًا ما تحقّق المفاجآت، لأنّها ضمن مجال الإحصاء والعَدّ، ذلك لأنّها أشياء حسيّة ومدركات مادّية يُمكن لأيّ أحد أن يقف عليها من خلال المعلومات، سواء أكانت هذه المعلومات عن طريق رصد الاستيراد والتصدير والتنمية والخدمات، أم أنّها معلومات يتمّ الحصول عليها بطرق متعدّدة سواءً أكانت مشروعة أم أنّها غير مشروعة.

وعن طريق هذه المعلومات يمكن إحصاء العدّة المادّية المعدّة والتعامل معها بأساليب تؤدّي إلى إبطال مفعولها أو منع مفاجأتها.

أمّا الجانب الآخر من (أعدّوا) الذي يتّسع مجاله في الجانب العقلي يشمل الفكر والمهارة والتدريب والتخطيط الذي يخرج عن الحيّز المادّي ويكمن ذهنا بين العقل والشّعور وردّة الفعل، الأمر الذي يجعله ممكنا غير متوقّع بما يحقّق من مفاجآت، وهذا الجانب من الصّعب إحصاؤه أو الوقوف على حيثياته الكامنة في الفكر، بحيث لا تظهر نتائجه إلاّ بعد تحقيق المفاجأة، وهو أعلى أنواع الإعداد.

فالإعداد الجيد على المستوى الفكري والنّفسي هو الذي يحقّق مفاجأة العدّة المعدّة، ومن جانب آخر إذا كانت العدّة شمولية لا تقتصر على السّلاح ورباط الخيل، بل تأخذ البعد الحقيقي للاستطاعة (ما استطعتم) الذي لا يعني التكليف التواكلي، وإنّما التكليف التوكّلي، الذي يدخل في مفهومه الاستطاعة والخزين الاستراتيجي من الطّعام والشّراب والسّلاح ومقوّمات الاستمرار ولا يقتصر على المواجهة فحسب، وإنَّما الاستمرار على إدامة الزّخم في التحكّم

بدورةِ عجلة الحياة ضمن الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لأنّ الماء والغذاء من أهم مكونات الاستطاعة ويتبع ذلك اللباس والمسكن والخدمات ووسائل الاتصال والمعلومات اللوجستية والمواقع البديلة والتمويه وحفر الخنادق والأنفاق، كي يصبح من السّهل تحقيق المفاجأة، وبالتالي التمكّن من تحقيق الأهداف.

فمثل هذا الإعداد هو المرهب للعدو، ولا يعني الاعتداء عليه بحالٍ من الأحوال، بل يجعله في موضع حدوده التي لا يستطيع معها أن يقوم بالاعتداء أو يمارس العدوان؛ فامتلاك العدّة بالإعداد ومن ضمنها السّلاح والعتاد الحربي توهن الخصم قبل أن ينفِّذ اعتداءه، وتدعوه لإعادة حساباته وتكبح جماحه؛ فيكون هذا النّوع من الإرهاب داعيا إلى السّلم ومانعا للقتل والتدمير، والدّعوة إلى إعداد العدّة التي وردت إرهابا للعدو في مواضع كثيرة من الذّكر الحكيم؛ فهي تختصّ بمنع حدوث العدوان، وهي ضرورة تقتضيها الحياة الآمنة.

أمَّا تفسير ما يحصل الآن في العالم من تفجير وترويع للآمنين وسفك للدّماء باسم الإسلام؛ فهو تصرُّف إمّا صادر عن إنسان أساء فهم الإسلام ونصوصه ممّا ينبئ عن وجهة نظر قاصرة وفكر ضحل، وإمّا أنّه يكون نتاجا لفكر يتستَّر بالإسلام، وإمّا بدفع من جهات لها مصلحة في هذه الأعمال والتصرّفات التي توقد نيران الفتن، ولذا وجب التمييز بين المنهج وأخطاء المنتسبين إليه، وبين المنهج والممارسات التي تقع باسمه، فهذا ليس من الإعداد في شيء، والعدوان دائمًا منهي عنه إلّا إذا حدث العدوان من العدو أو الظلمة؛ فيكون الاعتداء عليهم بمثل ما اعتدوا به: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}104.

وعليه: فإنّ إعداد العُدّة لا يكون إلّا لإرهاب العدو ومنعه من العدوان، ويشمل ذلك استثمار الأرض وزراعتها وتقديم الخدمات والنّهوض بالتعليم

104 البقرة 194.

والاقتصاد والرّعاية الصحية والاجتماعيَّة وحماية البيئة، حتى لا تمدّ الأيدي للآخرين، ليأكلوا من إنتاجهم ويلبسوا من مصانعهم حتى يتمكنوا من الاعتماد على أنفسهم ويتعاونوا مع الغير من أجل حياة آمنة مشتركة، وطالما أنّ الأمر كان ممكنا للغير؛ فبالضرورة لن يكون مستحيلًا لك؛ ذلك أنّ الذين يرون استحالة اللحاق بقافلة الحضارة، لحجم المشقة وبُعد المسافة وعمق الفجوة، قد تركوا إعداد العدّة وغفلوا عن اهميتها وهي منبع من منابع تحقيق الأمل الذي يمكّن العاملين على صُنع المستقبل من إحداث النُّقلة المأمولة[105].

التأهُّب فطنة:

التأهّب فطنة، هو: حسابات عقليَّة وبصرية مع شدّة الملاحظة والتربّص بأيّ حركة أو محاولة للتمدّد في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع من قِبل من أعدت له العدّة وتمّ التأهّب له مواجهة؛ فللتأهّب فطنة أمل تدفع إلى إنجاز ما يترك أثرا يُمكِن قياسه، مع قبول دفع الثّمن من قبل المتأهّب كونه عن وعي يدرك ما تأهّب من أجله.

ويعدّ التأهّب منبع أمل كونه الممكّن من دخول الفعل والإقدام على العمل؛ فالتأهبّ قيمة تلفت المتأهّب لما يجب الالتفات إليه حيث لا حيّز في ذّهنه للغفلة أو الانفلات، وللتأهُّب مفهوم لفظي علائقي مكوّن من المجموع القيمي لكلٍّ من:

. الانتباه، لِما يجب.

. الدّراية، كيف يجب.

. اليقظة، حول ما يجب.

---

[105] المرجع السابق، ص 49 . 58.

. الفطنة، لأخذُ ما يجب.

. التحفُّز، تجاه ما يجب.

. الإصرار، عزم على ما يجب.

. الرّغبة، فيما يجب.

. الحِرص، على سلامة ما يمكن تأديته تجاه ما يجب.

. الوعي، بما يجب.

. التيقُّن، تمسّك بما يجب.

. فرصة، للمشاركة فيما يجب.

. تحدّي، من أجل ما يجب.

. اشتياق، اشتياق الفاعل للحظة الانقضاض ورمي الهدف أو أداء الفعل والقيام بالعمل.

ولأنَّ التأهُّب لا يجعل أحدا يأخذ أحدا على حين غرة؛ فهو مرحلة ما قَبلُ الفعل (أيّ فعل)، وهو مرحلّة ما بعد الاستعداد المؤسّس على التهيّؤ والإرادة؛ فالمتأهّب هو من بيده القرار والأمر لتنفيذ الفعل بكلِّ حرصٍ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

والتأهُّب للفعل هو الذي يستدعي مرابطة تستوجب أن يضع المرابط أُصبعه على الزّناد قبل أن تشتعل نار الحرب والاقتتال، وذلك بهدف ألا تشتعل، وبخاصّة عندما يكون المتأهّب حريصا على ألا يكون سببا في إشعال نار الحرب بغير حقّ.

وعليه: فإنَّ قوله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) لا تخرج عن دائرة الاستطاعة، ولهذا جاء قوله (ومن رباط الخيل) أي: ما تستطيعوا أن تعدّوه من رباط الخيل فأعدُّوه، أي: لا ينبغي أن تستكثروا عدّتكم من رباط الخيل مهما كثرت؛ فبما أنَّكم تستطيعون إعداد أعدادٍ أكثر عدّوا دون تردّد، وذلك لأجل تحقيق الهدف من إعداد العُدّة وهو إرهاب الأعداء المخيفين لكم عِدّة وتهديدا ووعيدا، تصريحا وتلميحا.

والرّباط: هو الملازمة والمداومة، التي بها يلازم الفارس وسيلته ويداوم عليها متأهبا لخوض المعركة أن كُتبت عليه، سواء أكانت الوسيلة خيلًا أم أنَّها آلات حديثة ومتطوِّرة؛ فبالمرابطة تطوّق الحدود والحصون والقلاع والمعسكرات وتهدّد بالاعتداء إن ظهر اعتداء منها، وإذا ما تمَّ التفاهم والتفهُّم بين الأنا والآخر تحقّق الأمن والسّلام بين النَّاس أقارب على الحدود، وأباعد من وراء البحار والمحيطات.

أمّا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا}[106] تدلُّ على أهميّة قبول المعاناة في سبيل تحقيق السّلام بين النَّاس، ولذلك أمر الله عباده بالصّبر والمصابرة، أي: اصبروا على ما أنتم عليه حتى تعدّوا العدّة، وصابروا من أجل تحقيق فضائل أعظم، ثمّ بعد ذلك تأهبوا بالمرابطة التي تُرهب أعداءكم.

فقوله: (وَرَابِطُوا) أي تواجدوا متأهّبين مرابطين بعزمٍ وحرزٍ على صون حدود البلاد والعباد من الذين يهدّدون ويتوعّدون ويشكّلون خطرا عليكم في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولذا لا ينبغي أن تغفلوا عن تأهّبكم واعملوا على إظهار قوّتكم متأهّبين أمام مشاهدة وملاحظة عدوّكم لقواتكم التي اعددتموها لإرهابه لا للاعتداء عليه، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

[106] آل عمران 200.

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}107؛ فالمتأهّب عن حقّ لا يعتدي، بل يتأهّب لرد عدون أو ردعه، أو إعادة مسلوب ومنهوب ومغصوب.

الاعتداء بدون شكٍّ هو ظلم في غير طاعة الله الذي نهى عن الاعتداء على النَّاس بقوله: (وَلَا تَعْتَدُوا)، ولكن إن أُعتدي عليكم؛ فعليكم بالاعتداء على من اعتدى عليكم، وليكن اعتداء مماثلا لِمَا أُعتُدى به عليكم: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}108.

إنَّ إظهار القوَّة والمتأهبين بها على ظهور الخيل أو الدبّابات والطّائرات والعربات والمعدات المتطوّرة ضرورة استعراضية أمام مشاهدات وملاحظات الأعداء والأصدقاء، وذلك لأجل أن يُرهَب بها الأعداء؛ فيحسبوا حِساباتهم إن فكّروا في الاعتداءِ ظلما، وفي مقابل ذلك لأجل أن تطمئنَّ قلوب الذين أمنوا من الأصدقاء فتزداد أيمنا مع أيمانهم.

إنَّ إعداد العدّة مع وافر الاستعداد والتأهب يعدّ استعراضا بمقاليد القوَّة يُرهب كلَّ من تسوّل له نفسه أن يعتدي ظلما.

وقوله: (رابطوا) تحتوي في مضمونها ومفهومها ضرورة استمرار التأهُّب دون انفكاك عن المرابطة حتى ينتهي من أذهانكم كلَّ ما يخيفكم من أعدائكم.

فبعد أن يرى العدوّ تأهّبكم بالعُدّة الحربيّة والقتاليّة والخيل التي قد تأهبتم عليها ورابطتم بها ولم ينته عن عدوانه؛ فعليكم بمقاتلته، ولكن إن جنح للسلم فاجنحوا لها: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}109، أي وأنتم أقوياء وأراضيكم غير محتلّة، ولا مهجّرين؛ فإن جنح المعتدون للسّلم فاجنحوا لها، ولهذا لا جنوح

[107] البقرة 190.

[108] البقرة 194.

[109] الأنفال 61.

للسّلم إلّا بامتلاك القوّة، ومن لا يمتلك القوّة يجد نفسه غير مقدّرٍ من الغير (أصحاب المطامع).

ولهذا وجب إظهار القوَّة عُدّة وعتادا وفرسانا وخيلا وتنظيما واستعدادا وتأهُّبا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) أي يجب إظهار القوّة، لتكون رسالة ذات مضمون مفاده (لقد أعددنا العُدّة، وامتلكنا القوَّة، ونحن الآن مستعدّون عن إرادة، ومتأهبون لخوض المعركة؛ فخذوا حِذركم، وفكّروا قبل أن تقرّروا عن غير بيّنة، نحنُ نمتلك القوَّة المتعاظمة، ولكنَّنا لا نرغب قتالكم ولا الاعتداء عليكم، ولقد أعذر من أنذر) فإن سالمتم فنحن أهل السّلم، وإن اعتديتم علينا فليس لنا إلّا الاعتداء عليكم مثلما اعتديتم علينا: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[110].

إذن التأهّب والمرابطة دليل إثبات أنَّ الأمر لم يعدّ هيّنا؛ فخذوا حذركم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}[111] أي تيقّظوا وانتبهوا واحترزوا العدوَّ كي لا ينال منكم شيئا؛ فإن غفلتم واسترخيتم وألقيتم سلاحكم فلا تستغربوا أن يغدُر بكم أو يتمَّ الاعتداء عليكم ظلما؛ فخذوا حِذركم بكلِّ جدّية؛ فالأمر لم يعدّ هيّنا، وإن أخذتموه مأخذ الجدّ فإنَّ الخصم أو العدوّ سيأخذه مأخذ الجدّ أيضًا، وإن أخذه مأخذ الجدِّ جعل لكم اعتبارا يجعله جانحا للسّلم الذي يستوجب الجنوح إليه تحدّيا لا استسلاما (قوّة لا ضعفًا).

وكما أنَّ إعداد العُدّة حقٌّ لمن هو خائف من المخيف الذي لا يُقدِّر ولا يَعتبر الآخرين؛ فكذلك التأهّب بالمرابطة قوّة تماسك وحقٌّ به يُدمغ الباطل ويُزهق.

---

[110] البقرة 194.

[111] النساء 71.

وهنا يكون التأهّب تَوفُّر العزم مع وافر الإصرار على الإقدام على تنفيذ الفعل مع ترقُّب شديد ورصد للحركة والسّكون ممّا يجعل الأصبع على الزّناد استعدادا وتأهّبا للرّمي في زمن الانقضاض.

فالتأهّب يؤجّج في النّفس حرارة الانقضاض والاندفاع تجاه الهدف دون خوف ولا تردّد مع استماتة على الإنجاز في الوقت المحدّد للتنفيذ خوفا من التأخير الذي فيه تكمن المفاجئات، ولذلك دائمًا لا للاستعجال ونعم للإسراع دون التسرُّع.

ولذلك؛ يكمن في قيمة التأهُّب اشتياق الفاعل للحظة الانقضاض ورمي الهدف؛ فالرّامي عندما يكون متأهّبا تكون مشاعره وأحاسيسه منصهرة في بوتقة الفكر لفعلٍ قابلٍ لأن يُفعل والشكّ من ملكاته منتزع انتزاعا.

فذلك الصّحفي العراقي الذي رمى الرّئيس الأمريكي جورج بوش بنعليه في بغداد في 14 سبتمبر 2008م؛ فلو لم يكن متأهِّبا للرّمي ما رماه أمام أعين النَّاس وعلى شاشات التلفاز وأمام حرَّاسه وحرَّاس حرَّاسه والمدجَّجين والصّحفيين الذين هم في محيطه يتساءلون مع الرّئيس الأمريكي عمَّ حدث في العراق وعمَّ يحدث من رمي الرّامي في المؤتمر الصّحفي الموقَّر.

ولذا؛ فمن يتأهّب للشّيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع أن يُنفِّد ما يشاء كيفما يشاء بحذاء أم بعكازٍ أم حتى بمسبحةٍ أو ساعة يد أو أن يبصق على من يشاء، دون أن ينتظر رأيا أو توجيها من أحد.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل؛ فبدون شكّ سيكون للتأهّب تأهّب إن تمّت المعرفة، ولكن إن لم تتوفّر المعرفة فستكون المفاجئات سيدات الميدان والحاسمات للأمر.

فالتأهّب يعدّ منبع أمل لمن استعدّ وأعدّ وتهيأ لأداء الفعل المحقّق للأمل الذي طال زمن انتظاره؛ فالتأهّب للفعل يُمكّن من الإنجاز والنجاح وبلوغ الغايات التي لا تبلغ عملًا إلّا بحيوية الأمل.

تفطّين الذّاكرة:

الذّاكرة محفظة ذهنية تستوعب ما يُخزّن فيها من معارف وعلوم وتجارب وأحداث، وتمكّن أصحابها من التزويد بما يتسألون عنه وهي تحفظه، ولكن إن لم يكن قد حُفظ فيها فلا إمكانية للتزويد.

ولأنَّ الذاكرة هي مكمن الأسرار ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانية، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيد من الانتباه والدّراية من خلال عمليات التذكّر والتدبّر والتفكّر؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني وإجراء عمليات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين الدّقيق والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع ارتقاءً؛ فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتيسّر له مشاهدة وملاحظة الآخرين وردود أفعالهم تجاه الغير.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاءً؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الغير، حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح ويتحدّى عقله تفكيرا في نفسه حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ يعرف أنَّ

قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة، ولهذا؛ فالفكر ارتقاءً يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

ولهذا؛ فتفطين الذّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُّقلة لكلّ مأمول نافع فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، ويُمكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي الارتقاء فكرا وعلمًا ومعرفة وخُلقا، وأسلوبًا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، وبين الحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة أمل وارتقاءً.

ومع أنَّ الذاكرة حافظة، ولكنّها قابلة لأن توسّع معرفة، وتُنشّط تذكّرًا من خلال تمكّنها من معرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبّرا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيا، كما أنّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمّدها بالحيويّة المحفّزة على بلوغ الأمل ونيل المأمول.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيًّا حيث لا إمكانية للعيش منفردا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتدبّر أمره وأمر من تربطه به علاقات، ومع أنّ هذه قاعدة ولكن كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة، وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل، حيث لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النضج، فهما قد خُلقا على النضج خلقا، وبالتّالي ليس لهما ما يتذكّران، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛

فيُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[112]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجّة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافًا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلول علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يساهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرا فيها، لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُفلية ومؤدّيا إلى ارتقاءً مأمول.

وعليه:

. الذّاكرة مكمن الأسرار.

. الذّاكرة قابلة لأن تنشّط وعي وانتباه.

. الذّاكرة قابلة لأن تمرّن بمزيد من المستفزّات العقليّة والعلميّة.

---

[112] البقرة 33.

. الذّاكرة تنشّط تذكّرا.

. الذّاكرة قابلة لأن تنشّط تدبّرا.

. الذّاكرة قابلة لأن تنشّط تفكّرا.

. الذّاكرة تربط الأفراد بالتاريخ.

. الذّاكرة تربط الأفراد بالفضائل الخيّرة.

. الذّاكرة تربط الأفراد بالقيم.

. الذّاكرة تربط الأفراد بالمبادئ الإنسانية والأخلاقية.

. الذّاكرة تمكّن الأفراد من التمييز بين ما يجب وما لا يجب.

. الذّاكرة تنبّه بالمخيف والمقلق والمستفزّ.

. الذّاكرة لا شيء يضيع، ولكن قد يصعب الاستدعاء.

فالذاكرة محفظة المعارف والخبرات والتجارب الماضية التي يمكن الاتعاظ بها في زمن التدبّر، والوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي؛ فالتاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانية سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها؛ فيكون هذا الطلب فيما بعد حاجة ملحةً تكون حاضرة بشكلّ أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيا للبداية الافتراضية التي كانت السبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الذاكرة للماضي فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد رغم العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال

كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدائم متحقِّقا في كلّ زوايا الماضي، ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولا مهمة، إلاّ أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في بعض القضايا متحققا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ فتكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة تُمكّن الذاكرة وعى ويقظة.

ومع أنَّ في الذاكرة يدخل الماضي حقل التراث، ولكنّه لم يكن من باب الجمود كأيِّ أيقونة ممكن أن تكون، ولكن من باب التبصّر والتمعّن والإيضاح الموقظ لما يجب أن يكون في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فالإنسان يمر بظروف تكاد تتشابه كثيرا على مر العصور؛ فينتج من ذلك نهايات تكون مختلفة ممّا يطرح في الذاكرة وجود آراء مختلفة؛ تجر إلى منعطفات لم تكن في كثير من الأحيان بالحسبان، ولعلّ تحقّق الأحداث العظام في الماضي يمثّل أحد هذه الاختلافات؛ فالإنسان يختلف تصرّفه كثيرا حتى في القضية الواحدة، إذ تحكمه الكثير من الظروف التي تتنوّع فلا تقف عن حدٍ معين؛ فيكون الارتماء ممثّلا بتداعيات مختلفة تطرح من خلالها الحدود المفترضة التي تكون النّهاية عند أعتابها؛ فتنساق الأمور في الذاكرة إلى امتدادات وإن كانت في بعض الأحيان واهية إلّا أنّها ممثّلة لاتجاهات فكرية كانت وراءها، ولهذا لا يمكن أن تكون هناك قطعية في الحلول؛ فالذّاكرة تحمَل الكثير من الحلول المختلفة ممّا يحيل إلى انتفاء القطعية التي يمكن أن تطرح على أيِّ صعيد، فلم يكن هناك حلًّا واحدا لكثير من القضايا وإن تشابهت هذه القضايا إلى درجة التطابق.

وفي الذّاكرة يكتنف الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغه عليها من طروحات، ولهذا نجد يوما بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة، لكن هذا يدلل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشّاخصة التي تكون فيما بعد دروسا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان، ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تمرينها تدبّرا، وتنشيطها تذكّرا وتفكّرا.

ومع أنَّ للذاكرة علاقة بالتّاريخ من حيث أنّها محفظة أحداثه وقضاياه، ولكن التّاريخ دائمًا يطرح مغايرات مهمّة تكون عند أعتابها نهايات قد تتكرّر، وهذا يُسيّر عجلة الزّمن نحو إيجاد تعالقات متشابهة تكون أكثرها منتمية لبداية سعت دائمًا إلى حلحلت ما يمكن حلحلته في سبيل الوقوف على حدود واضحة المعالم، وهنا يكون السير في هذا الرّواق منكفيا على تجارب حاضرة وملبّية في الوقت نفسه للتساؤلات التي يمكن أن تُطرح، فتكون التبعات متحقّقة كونها تمثّل امتدادا مطلوبا، والتاريخ فيه من السّعة ما يجعل الكثير من المقولات شاخصة في كلّ زمان ومكان، فمقولة (التاريخ يعيد نفسه) تتكرّر على كثير من الألسنة لكنّها كما نعتقد أنّها لا تمثّل تشكيلا عاما في هذا النسق الإنساني، ولذا وجب تفطين الذاكرة لكي لا يضيع التاريخ ولا يزوّر، ومع أنّ الذاكرة حاوية التاريخ وحافظته، لكنّها لم تكن جزء منه، ولهذا أحداث التاريخ تتكرر والذاكرة لا تتكرر؛ فالتكرار قد يحصل لكنَّه هل يحصل كما حصل في الماضي؟

هذا التساؤل يفضي بنا إلى أن نقول:

إنَّ التاريخ يمكن أن يعيد نفسه، لكن هذه الإعادة لا تكون بالتطابق التّام، لأنّ هذا الأمر يكون من الصّعوبة بمكان أن يتحقّق، ومع ذلك فالتّجارب الإنسانية متشابهة ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب

البحث عن حلول علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يساهم بشكلّ أو بآخر في الوصول إلى حلّ حتى وإن كان افتراضيا، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها، فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وكلّ التشكيل الذي ذهبنا إليه يكون الخوف في الذّاكرة حاضرا فيه، كونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة، فالبحث عن حلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّزه ويرشده بطريقة أو بأخرى إلى البحث عن حلّ يكون من بعده سقوط أو تبدّد كلّ المخاوف القائمة، ولذا يكون الاستشعار في هذا التوجّه قائما على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف الأوّل الذي كان محفّزا بدرجة جعل من آليات البحث عن حلّ خاضعة لهذا الخوف، وما سبقه من أحداث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها من المتوقّع وما لم يكن متوقّعا، ونتيجة لما تحمله الذّاكرة من متناقضات تاريخية؛ فهي دائمًا في حاجة للتفطين والتنشيط حتى لا تُفقد العلوم والمعارف والخبرات والتجارب والعبر والمواعظ113.

ولّد من الفكرة فكرة:

الفكرة استقراء مسبق لما يمكن أن يحدث أو يتحقّق، ينتجها العقل، ويتمكّن من استخراجها من الكمون إلى الظّهور الممكّن من الاستقراء والتحليل والنقد والتطوير أو التحسين.

[113] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 124 ـ 127.

فالفكرة لا تكون إلّا من إعمال العقل، الذي بإمكانه أن يستمدّ الشيء المجرّد من الشّيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونية والطّبيعية، ولأنّها مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه وُلّدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النَّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

ومع أنّ الفكرة تخلّص من الحيرة، ولكنّها لا تكون ارتقاءً إلّا من بعدها فالحيرة بالنّسبة للفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة بدون حيرة تسبقها: هي ولادة قسرية؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتلد مشوّهة، وبالتّالي ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاءً.

ومع أنّ هذا الأمر يعدّ سالبا بالنّسبة للفكرة ارتقاءً، ولكنّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم.

ومع أنّ زمن الحيرة الفكرية مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، ولكنّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاءً، ولذلك؛ فالبحوث العلمية ارتقاءً تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّز على حيرة جديدة من بعدها حيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

ولا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يقتنص له حلًّا، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشّيء استحالة أو إعجازا أو ممكننا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له حلًّا.

ولا يعني ذلك أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها حلًّا، وهذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدّي المقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة تحدٍّ؛ فلا إمكانية لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

ولسائل أن يسأل:

هل الفكرة والحيرة ولدتا مع مولد آدم، أم أنّهما اللاحقتان عليه؟

بالنّسبة لآدم لم يكن مولودا، بل مخلوقًا خلقا مباشرا بلا أب ولا أم، وكلّ ما وُجِدَ معه فهو المخلوق معه خلقا، ولكن بنوه؛ فكلّ شيء فيهم خُلق سلالة من نطفة؛ فآدم خُلق في أحسن تقويم، وهذا يدلّ على أنّه معدّ للحياة لحظة خَلقه، أمّا بنوه من بعده؛ فحالهم حال الولادة والنّمو والتعلّم والتعليم، أي: أنَّ حالهم حال من لا يستطيع أن يفكّر لحظة الولادة، ومع ذلك في دائرة الممكن ينجز أهدافه تعلمًا وتعليما.

فآدم كانت علاقته بالخالق والمخلوقّات من حوله علاقة فطرة مباشرة، ولكن المحيّر بالنّسبة لآدم هو حياته في كونين مختلفين على التّمام، كون الارتقاء (الجنّة) وكون الدّنيا (الأرض)، فهو بعد أن كسب الجولة خَلقا، خسرها خُلقا، وذلك بعد أن أهبط به بسبب المعصية التي ارتكبها، ومن هنا، بدأ يفكّر كيف يمكنه الارتقاء ثانية من الحياة الدّنيا إلى تلك الحياة العليا؟ وفي ذلك اليوم وُلدت الحيرة، أي وُلدت الحيرة إنذارا بولادة الفكرة فكان الاستغفار والتوبة نتيجة الفكرة التي أخرجت آدم من حيرته إلى ما يُمكّنه من بلوغ الارتقاء إلى تلك الجنّة التي أهبط منها. وهي الحيرة ذاتها التي ألمت بابنه في لحظة قتله أخاه، ولكنّه وقف قاصرا عن المعرفة حيث لا فكرة له عمّا جرى بيديه؛ فبعث الله غرابا ليريه سلوكا وعملًا يمكّنه من المعرفة بلا فكرة من عنده.

ولهذا؛ فالفكرة ينتجها العقل، وتأخذها العقول، وتوظفها فيما يمكن أن يوظّف ويفيد.

وعليه:

لقد استلهم آدم الفكرة من أمورٍ منها:

الأمر الأوّل، من طبيعة الفطرة التي خُلق عليها واصطبغ بها وجوده في أحسن تقويم، ولكن لأنّه خُلق على التسيير والتخيير؛ فكان للتسيير الطبيعة الخَلقية، وكان للتخيير فسحة الإرادة التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها؛ فخالف أمر النّهي معصية؛ بأسباب قصور معرفته أمام كمال الخالق وإحاطته؛ ذلك لأنّ آدم وبنيه لا يعلمون إلّا ما يُعلّم، ومن هنا كان الإنباء لآدم مصدر المعرفة ومكمن الفكرة ارتقاءً.

فالفطرة التي فُطرت المخلوقًات عليها هي التي جعلت لكلّ زوجين خصوصية، دفعتهما تجاه بعضهما، وهي ذاتها التي حالت بينهما وبين الأزواج الأخرى إلّا بما يفيد، فكانت حياة الفطرة ميسّرة لكلّ الأنواع تيسير جاذبية نوعيّة، وغريزية؛ ومع ذلك ظلّ الإنسان مهيأ لما هو أعظم فكان عقله مقلّدا لما يراه في دائرة الممكن تخييرا.

الأمر الثاني التقليد: وهو الذي لا يكون إلّا عن عقلّ، ولكن القصور على التقليد لا يمكّن من توليد الفكرة، ذلك لأنّه لم يمرّ بزمن الحيرة الممكّن من التعمّق في التفكير حتى كشف اللثام عن الحقيقة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فآدم تقليدا: قلّد إبليس؛ فأكل من المنهي عنه، وكذلك ابنه قلّد الغراب؛ فعرف كيف يواري سوءة أخيه، وهكذا، هي الحياة تطوّرا من الخَلق، إلى الفطرة، إلى التقليد، إلى توليد الفكرة، التي توليدها لا ينقطع فكرة من بعد فكرة. ولكن يظل التقليد قاصرا، والفكرة في حيّز العقل مهما عظمت؛ فهي لا تخرج عن

دائرة الممكن؛ ولهذا، بعث الله الأنبيَّاء والرّسل بالنبأ العظيم مبشّرين ومحرّضين ومنذرين وداعين للتفكير ارتقاءً.

الأمر الثالث: النبأ العظيم: مع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، ولكنّه لم يُخلق على الكمال، ولهذا؛ فتفكيره لا يمكن أن يخرج عن حيّز دائرة الممكن؛ فكان الإنباء بما يجب من الخالق إلى المخلوق يمكّن المخلوق من الوقوف على المعجِز، ومعرفة المستحيل مستحيلا؛ فأنزلت الأحكام المنظمّة للعلاقات بأسباب الاختلاف والخلاف الذي حدث على الأرض الدّنيا، معصية واقتتالا، ليفتح آفاق التفكير فيما يجب أن يؤخذ، وما يجب أن يُجتنب، وما يجب أن يُنتهى عنه.

ومن ثمّ؛ تعدّ الفكرة هي الأمر الرّابع المِمكّن من المعرفة والبحث في دائرة الممكن، وهذا لا يعني: أنّ الإنسان قبل ذلك لا يمتلك الفكرة، بل قبل ذلك كانت حياة الفطرة هي السّائدة، ثمّ حياة التقليد، ثمّ من بعدها حياة الإنباء الذي جاء تنزيلا على الأنبيَّاء والرُّسُل عليهم السّلام، بهدف تقييم الأخطاء، وتقويم السّلوك والعمل، الذي ولّد الفكرة، وولّد منها أفكارا.

فالفكرة إنتاج العقل وإعماله، وهي بالنّسبة لمن تولّدت في عقله مثل البذرة، أو النّواة التي يراها المفكّر مخزّنة في محفظة ذاكرته وكأنّها الشّجرة متكاملة، جذورا وجذعا وأغصانا وأوراقا وثمارا؛ فهو يراها على هيئة الصّورة قبل أن تتجسّد في الشكّل والصّورة. ومن هنا، يكون مولود الفكرة هو الإبداع الذي يُسهم في إضافة الجديد النّافع ارتقاءً وأملًا.

والفكرة في ذاتها مجرّدة، حيث لا هيئة لها إلّا في ذهن المفكّر الذي نضجت في عقله مثلما تنضج النّواة من تربتها شجرة متكاملة، ولذا؛ فالهيئة تكون للصّورة التي أساسها فكرة، ومن ثمّ؛ فالفكرة ترتبط بالمشاهد والملاحظ

مثلما ترتبط بالمجرّد، والفكرة متى ما تكون نتاج تذكّرٍ، يكون التفكّر هو المهيأ لاصطيادها، أمّا التدبّر؛ فلا يكون إلّا نتاجها سلوكا وعملًا.

والفكرة وإن كانت مجرّدة في الذّهن، لكنّها على ارض الواقع تتجسّد في المشاهد والملاحظ، سواء أكانت معرفة قيم وفضائل ونظم وقوانين، أم أنّها معرفة ملموسة مادّيّا، ومن هنا، كانت هيئة الخلق سابقة على صورته مخلوقًا، وهيئة المصنوع سابقة على وجوده مصنوعا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة متلازمة مع التكاثر تكاثرا، فمع أنّها لم تكن مخلوقة، ولكنّها تتخلّق في عقل الإنسان تدبّرا من بعده تدبّر، وإنتاجًا من بعده إنتاج؛ فهي القوّة الموجدة لما لم يوجد من قَبل، وهي وإن لم تتطابق مع خلق الشيء من لا شيء، لكنّها تتماثل معه من حيث إيجاد الشيء من الشيء نشوءا؛ فالإنسان الذي خُلق نشوءا زوجيا، كان وجوده وفقًا لقانون الفطرة والتقليد، ولكنّه من بعد ذلك إنباء استطاع أن يتبيّن مكامن الحقيقة، التي لفتته إلى نفسه ومَن حوله، فاستكشف علاقات قابلة لأن تتطوّر ارتقاءً، فاستفزّت عقله يقظة زوّدته بالمعرفة الممكّنة من البناء والإعمار وتحدّي الصّعاب التي تواجهه كلّ يوم.

وكما أنّ الحيرة يقظة عقليَّة تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعدّ معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته، التي تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا، بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيلٍ ولا المعجز، حتى يستحال تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب هي فسيحة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا خوف من مواجهة الصّعب، بل الخوف ألا تحدث المواجهة معه؛ فالمواجهة العقليَّة معه كلّما حدثت عن تدبّر بفكرة، أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاءً، ولذا، ستظل

الفكرة عقليَّة إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشكّل أو الصّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، والذي يتجسّد في العمل والسّلوك.

ومع أنّ العقل مكمن الفكرة، ولكنّه أيضًا منبع الأمل، ومع أنّهما معا من إعمال العقل وفي محفظته، ولكن الأمل يتعلّق بالغايات الخارجية، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرا وإرادة؛ فمن يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار الممكّن من التدبّر وحمْل المسؤولية، ومن لا يمتلكها، فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك؛ وراء كلّ غاية فكرة ووراء كلّ فكرة شيء جديد.

ولهذا؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجية، عاش حياة الفطرة جنّة، إلى أن عصى ربّه؛ فأهبط به والأرض أرضا؛ فظلّ من بعد الهبوط على أمل العودة إلى تلك الجنّة، وظلّ بنوه من بعده، يسعون ويعملون كلّ ما من شأنه أن يرتقي بهم إلى المأمول غاية؛ فتولّد التفكير في عقولهم، فكرة من بعدها فكرة؛ فأنتجوا الثّقافات، وبنوا الحضارات، ومع ذلك؛ فهم يعلمون أنّهم كلّما أنتجوا فكرة واجهتهم صعاب تستوجب المزيد من إنتاج الفكرة، ولذلك؛ فهم قبلوا التحدّي والصّعاب كلّ يوم تُهزم صعوبة من بعد صعوبة ولا يأس.

ولذلك؛ فمرحلة الفكرة جعلت الإنسان على المعرفة الممكّنة من كشف العلاقة بين الخَلق والنّشوء والإعجاز والارتقاء، وفتحت أمامه آفاق البحث العلمي الممكّن من صناعة المستقبل وتجاوزه أمل.

ومع أنّ الفكرة مولود العقل، ولكن مستفزّتها خارجية: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[114]. ولذلك؛ فالفكرة لا

[114] الغاشية 17 . 21.

تستمدّ من العالم الخارجي كما كان يراها أرسطو، بل العالم الخارجي هو مصدر استفزازها؛ فيخرجها من الكمون إلى حيّز الوجود وكأنّها تُبعث من العدم.

فالفكرة في ذاتها هي مجرّدة، ولكن في مفهومها ومضمونها تحمل رسالة، أو مشروعا، أو رؤية، أو حلًّا يمكّن من فكّ التأزّمات وكسر القيود، والإقدام على ما يمكّن من الارتقاء؛ فالفكرة لم تكن خاطرة عابرة تأتي هكذا وتذهب وكأنّها لم تأت، بل الفكرة كما تستمدّ من السّابق، فهي تضيف الجديد، ثمّ تفتح آفاق الارتقاء مع المستقبل المأمول.

فالفكرة تمكّن من استخراج المجهول من المعلوم، أي: تستكشف المعلوم وتخرج المجهول منه؛ فيصبح معلوما وليس مخلوقًا؛ فالفكرة تستنبط وتستمدّ من المخلوق شيئا لا ينقص من المخلوق شيئا، وفي المقابل تزداد المعارف أشياء مستكشفة.

والفكرة لم تلد في الخارج، بل الخارج يستفزّ العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف؛ فيبدأ العقل إعماله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانا لها عند المستكشف معرفة، أي: لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، بل تبقى مع بقاء اللبس والغموض، وفي المقابل تزول بزوالهما.

والفكرة تعدّ صوغا عقليّا لمولودٍ لم يولد بعد؛ وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئا غيرها، ولكنّه المؤسّس عليها؛ فلو لم تكن ما كان، ولهذا فالفكرة هي استنباط الشيء من الشيء، بعد تهيّئه على الشكّل أو الصّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في صورة موضوع عام، حيث لا تفصيل؛ فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة فيه بداية ونهاية، والفكرة هي الفكرة، والموضوع ارتقاءً لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضاحًا.

فبعد أن تطوّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافا، وليس خَلقا، ذلك لأنّ المخلوق لا يَخلق، ولكنّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقَات، ثمّ يكتشف منها أسرارا كانت مجهولة فيكتشفها بحثا، وتأملًا، واستنباطا، واستقراء، ثمّ يوظّفها بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسّسا على استنباط الفكرة ارتقاءً، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السُفلية والانحدار.

ومع أنّ الفكرة تلد في العقل البشري بداية بمستفزّات خارجية، ولكنّها بعد أن تلد منه إنتاجا، تصبح وفقًا للقدرة قابلة للانتقال من عقلٍ إلى عقلٍ مع وافر التأثير، سواء أكان تأثيرا موجبا، أم سالبا، وعندما تكون الفكرة بنائية، تدفع المتلقِّين لها إلى الارتقاء، ولكن إن كانت هدّامة؛ فستدفع بمتلقيها إلى ارتكاب الأعمال الدُّونية. ومع ذلك؛ فالعيب لا يلاحق الفكرة، بل العيب يلاحق من كان من ورائها (من أوجدها)؛ الذي فكّر فيما يضرّ في الوقت الذي ينبغي أن يفكّر فيه فيما يفيد وينفع، وهنا تكمن العلّة، أي: تكمن العلّة في أصحاب الفكرة الهدّامة سواء الذين أنتجوها، أم أولئك الذين سوّقوا لها ووظّفوها.

ومع أنّ الفكرة في دائرة الممكن (بنائية أو هدمية)، ولكنّها بين هذا وذاك، يمكن أن تكون (إصلاحيّة)، وهذا يعني: أنّ الفكرة البنّاءة تصحّح أخطاء الفكرة الهدَّامة متى ما كان الحوار والجدل بين النَّاس موضعيّا، ولا إمكانية أن تكون الغلبة للفكرة الهدّامة كلّما ساد الحوار والجدل منطقا (حُجّة بحجّة)، ولذلك؛ فالمعلومة الصّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة كلّما طرأت؛ ذلك لأنَّ أثر الفكرة اليائسة يصحّح أو يعالج بالفكرة المملؤة أملًا؛ فالفكرة الأمل تحفّز على البقاء المرضي، وتدفع تجاه المستقبل الأكثر إرضاء.

والفكرة كونها مجرّدة؛ فلا علاقة لها بالاقتناع من عدمه؛ فالاقتناع من عدمه مسؤولية من ينتج الفكرة، أو يتبنّاها، أو يأخذ بها من صاحبها أو متبنيها؛ فالعقل السّليم في معظم الأحيان يأخذ بأحسن الفكرة، والعقل العليل في معظم الأحيان يأخذ بأسوئها، ومع ذلك فللفكرة الحسنة مسوّقون، وللفكرة السّيئة مسوّقون، ومتى كان المسوّق على مقدرة إقناعية راجت فكرته حتى وإن كانت هدمية، وإن لم يكن له مقدرة إقناعية انكمشت فكرته وإن كانت بنائية، وهذه العلاقة هي بالتّمام علاقة بين من يسعى إلى الارتقاء، وبين من يسعى للدّونية والسُفلية، أي: فمن أراد ارتقاءً؛ فعليه أن يأخذ بفكرة الارتقاء نهضة وتقدّما، أمّا من أراد سُفلية؛ فأفكارها في الأسواق الهدّامة كثيرة.

ولذلك، تعدّ الفكرة ارتقاءً مصدرا للرّؤية البنائية، سواء أكانت رؤية فكريّة (تتعلّق بالنّظم والقوانين ورسم السياسات، وما يؤدّي إلى الإصلاح وبلوغ الحلّ) أم أنّها كانت عمليَّة، (تتعلّق بالاقتصاد والتجربة والبناء والإعمار)؛ فالفكرة سواء أكانت نظرية أم عمليَّة، تخلق جدلا بين مُنظِّر، ومسوّق، ومؤيّد، ومعارض، وتابعين مختلفين.

وعليه:

فالفكرة حرّة، لا تُسجن وإن سُجن أصحابها ومسوّقوها، إنّها مولود العقل الذي فكّر في إيجاد كيفية تسمح له بالتمدّد داخل حدوده أو خارجها على حساب الغير، ثمّ من بعدها فكّر فيما يخالفها غاية؛ فأوجد كيفية تكبح السّلوك وتقيّده متى ما تمدّد على حساب الغير. ذلك لأنَّ الفكرة من طبيعتها التمدّد بين العقول، كما تمدّدت ارتقاءً من النّظر إلى الخَلق، إلى البحث عمّا يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي هو عليها، وذلك بغاية البحث ارتقاءً عمّا يمكّن من معرفة المشاهد (هو كما هو)، ويمكّن من معرفة المعجز (آية بعد آية)، ثمّ

يمكّن من بلوغ معرفة المستحيل مستحيلا، وهكذا هي الفكرة تتمدّد بين أيدينا ارتقاءً.

فنحن بني آدم عرفنا أنّ الشّيء في أساس خلقه قد خُلق من غير موجود، وعرفنا أنّ بلوغ المستحيل مستحيل، وعرفنا نشوء الشيء من الشيء معجزة، وعرفنا أنّنا نعرف ما عرفنا ارتقاءً، ثمّ عرفنا أنّنا في حاجة لمعرفة المزيد والأمل لا يفارقنا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة لا تخلق الشّيء، ولكنّها تستكشفه، ولا علاقة لها بالخَلق؛ فالخَلق لم يكن من الفكرة، ولا من المفكّر. الخَلق من العلم، وبالأمر كن ومن هنا؛ فالخالق لا يفكّر، بل الخالق يعلم كلّ شيء؛ وفي المقابل الذي يفكّر هو الذي لا يعلم، ولهذا يفكّر ويبحث بغاية أن يعلم.

والفكرة كمفردة تتشعّب فكرا، فتتمدّد في شؤون الموضوع الذي يحملها في ثناياه فروعًا؛ فهي مثل النّواة التي تغرس في التّربة والمناخ المناسبين لها؛ فتنمو شجرة ضاربة في الأرض وجذعها إلى السّماء فروع متفرّعة، أي: تتفرّع الفكرة الواحدة فكر متعدّدة التفاصيل حتى يكتمل الموضوع رسالة أو رؤية. بمعنى: تتعدّد الفِكَر المتفرّعة من الفكرة بما يمكّن من استيعاب الموضوع فِكَرا مفصّلة.

وتعدّ الفكرة قاعدة التنظير، فلسفة وسياسة واقتصاد واجتماع، أمّا الدّين؛ فلا تنظير فيه؛ فهو لا يكون إلّا من خالق؛ ذلك لأنّ الدّين لم يبن على الفكرة، مع أنّ الفِكَر الثّمينة لا تستمدّ إلّا منه، أي: كلّ شيء يؤسّس على الفِكَر، لا يكون إلّا من مفكّر، والدّين ليس كذلك، ولهذا؛ فلا فكر ديني كما يعتقد البعض، بل الدّين لا يكون إلّا علم من عليم، ولهذا؛ فهو لا يستند على الفكرة، بل يستند على المعجزة، التي تتنزّل نباء ورسالة تنسب لخالق، ولا تنسب لمفكر.

وتعدّ الفِكَر من إنتاج العقل؛ ويعدّ الفِكْر من إعماله، ولأنّ الفِكَر هي مجموع الفكرة؛ فهي على الكثرة التي في حاجة لأن تصنّف بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وبين ما يؤدّي إلى الانحدار، ذلك لأنَّ الإنسان سواء أكان هو مصدر الفكرة، أم متلقيها؛ فهو المخيّر قبولا، أو رفضا، أو حيادا.

ولأنّ الإنسان مخيّر، فيما هو ليس بمستحيلٍ؛ فهو يفكّر كما يشاء، دون أن يتجاوز الحقائق والشّواهد الدّالة على الوجود، سواء أكان وجودا مستحيلا، أم معجزا أم ممكنا؛ فالإنسان لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكْره، بغاية تنشيط إعمال فكره ليكون عقله متهيأ ومتأهبا للاستنباط من المجرد والمعجز، والاستقراء من المشاهد والملاحظ، وهذه من صفات العقل المتدبّر أمره. كما أنّه لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكَره (مجموع الفكرة) أي: لا ينبغي أن يتوقّف عند حدود إنتاج الفكرة، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ما يمكّنه من تطوير الفكرة بالفكرة حتى يبلغ تطوير ما بلغه من فِكَر. ولهذا، فالفِكْر، هو: إعمال العقل، أما الفِكَر: فهي إنتاج العقل، وكلاهما تقود المفكرين إلى ما يحقق أمل من ورائه آمال.

الفكرة تلد حلًّا:

الفكرة لا تتولّد ذهنا إلّا بعد استفزاز عقلي محيّر، يشد الانتباه إلى ذلك المستفزّ تمعّنا حتى يصنّف في ملفات الذّاكرة بين مستحيل ومعجز وممكن؛ فإن صنّف مستحيل يسلّم به مستحيلا، وإن كان معجزا يتمّ الاعتراف به إيمانا، وإن كان ممكنا؛ فيكون خاضعا للبحث والتقصي الدّقيق حتى يلد حلًّا بين متوقّع وغير متوقّع.

والفكرة كونها من إنتاج العقل، لا تستمدّ إلّا من واقع هو في حاجة لأن يُطوّر، أي: معظم الفِكَر هي نتاج استشعار معضلة تستوجب حلًّا، ومتى

ما بلغ الإنسان الحلّ اكتشف معضلة أخرى تلفت عقله وتستثيره تفكيرا بغاية بلوغ الحلّ؛ فيفكّر تدبّرا حتى يقتنص لها حلًّا من خلال بحث يتّضح فيه أثر المتغيّرات المستقلّة والتابعة والمتداخلة في كلّ معضلة، ولهذا، كلّما ازداد عدد المشاكل والمعضلات الحياتية تولّدت الفِكَر، وهذا يعني: وجود علاقة واسعة بين تعدّد المعضلات الحياتية، وبين عدد الفِكَر المتولّدة في عقل الإنسان تطوّرا.

ومن ثمّ؛ فإنْ إذا أراد من أراد حلًّا فعليه أنْ:

. يكون متيقظا.

. مشاهدا عن قصد لذلك المحيّر.

. ملاحظا لذلك المستفزّ.

. متقصٍّ للعلل التي تكمن من خلفها العلّة.

. أن يخضع المحيّر والمستفزّ إلى البحث العلمي.

. أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات ذات العلاقة.

. أن يحلل المعلومات.

. أن يستنتج ويستخلص النتائج وهناك يجد الحلّ كامنا.

. أن يفسّر النتائج ليعرف أن لكلّ خاصّية خصوصية وحلًّا.

ومع أنّه لا حلّ إلّا من فكرة تكشف الحقيقة وتظهرها وجودا ولكن في بداية الخلق لم تكن الفكرة قد نضجت ذهنيا؛ ذلك لأنَّ الإنسان بداية لم يكن على الفكرة، بل كان على الفطرة والتقليد، ثمّ الإنباء، ولهذا، تعدّ الفكرة لاحقة لِما سبق، والإنسان ليس بمولودها؛ فهو المخلوق الذي لا إرادة له في خلقه، ولا تخيير له في ثنائية وجوده. بل التخيير كان بأسباب الاختلاف الذي خُلق عليه جنسا ونوعا، ولهذا، الإنس غير الملائكة والجن، وكذلك الذّكر غير الأنثى،

والرّجل غير بقية الرّجال، والأنثى غير بقية الإناث، وهكذا كان الاختلاف بين الأجناس والأنواع، ولكلّ بصمته التي تعطيه خصوصية تجعله مختلفا عن خصوصيات الغير.

ولأنّ الإنسان في دائرة الممكن خُلق مخيّرا؛ فهو يفكّر فيما يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء، وهو يقبل ويرفض، ويخطئ ويصيب؛ وبإمكانه أن يتطوّر ارتقاءً، أو أن يتخلّف وينحدر دونية. ولأنّه مخيّر؛ فله من المشيئة في دائرة الممكن ما له؛ فهو يؤمن ويكفر ويشرك كما يشاء، ذلك لأنَّ كلّ شيء في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هو بين يديه إرادة.

ومع أنّ الإنسان مخيّرا، لكنّه لم يترك هكذا وكأنّه بلا قيود؛ فهو المعرّض للاختبار من قِبل من خَلقه في دائرة الممكن مخيّرا. وأوّل اختبار آدمي هو ما فشل فيه آدم نفسه، وهو يوم أن أغواه الشّيطان وزوجه وزيّن لهما الأكل من تلك الشّجرة: {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[115]، أي: في ذلك اليوم كانت المواجهة بين العقل والشّهوة، فتغلّبت الشّهوة على العقل الذي لم يستدع قوّته في حينها؛ فارتكب آدم فعل المعصية، التي لا زالت ترتكب إلى يومنا هذا شهوة ورغبة وغفلة: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جميعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[116]؛ فهبط الأعداء على الأرض دونيّة. ولأنّهم الأعداء؛ فهل يمكن أن تكون حياتهم على المحبّة ولا شيء غيرها؟

أقول:

كلّ شيء في دائرة النّسبية هو بين متوقّع وغير متوقّع، ولهذا؛ فالقلب الواحد يحمل في سويدائه المتناقضات (حبّ وكره) ولكلّ مستفزّاته وعِلله، ولا

---

[115] طه 120، 121.

[116] طه 123.

استغراب أن تحدث المفاجآت في الزّمان والمكان غير المتوقّعين؛ فهذه من طبيعة خلق الإنسان الذي خُلق مسيرا ومخيّرا في ذات الوقت، ولأنّه كذلك؛ فلا بدّ وأن يكون على التخيير بين متوقّع وغير متوقع ولا استغراب.

ولأنّ بني آدم مخيّرون؛ فقد اختار بعضهم المعصية كما اختارها أبوهم من قبلهم، غير أنّ أباهم استغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكنّ بعض الأبناء لم يستغفرون عن ذنوبهم؛ فأضافوا إلى ما هم عليه من ذنوب ما أضافوا.

ومن هنا، كانت بداية الخلاف والصّراع والاقتتال بين بني آدم بما تثيره الشّهوة والرّغبة تحت مظلة الغفلة، ثمّ أخذ الخلاف والصّراع منحى دينيا بين من يأخذ بالنّبأ والرِّسالة، وبين من يكفر بهما، وهكذا ظل العداء بين بني آدم وكأنّ العداء قد خُلق معهم على الفطرة والتقليد، وهكذا ظلّ القتل من بعد تلك الحادثة (قَتلُ ابن آدم لأخيه)، وكأنّ الأنبيَّاء والرّسُل لم يبعثوا بعد.

وما يُلفت النّظر هنا، أنّ الذي قُتل من بني آدم هو من اتّقى ربّه هداية ومخافة، ممّا جعل البقاء لمن لم يتقيه بما عملت يداه، ومن هنا، أصبحت كفّة المغالبة راجحة تجاه (من قتل أخاه ظلما)، ولهذا: {أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}[117]، ولكن لو كُتِبَ البقاء للذي اتّقى ربّه في نفسه وأخيه، لكان الأمر في دائرة المتوقّع غير ذلك، ومن ثمّ، اتسعت دائرة العصاة بقتل المسالم وبقاء الظالم، وظلت الفتنة على التكاثر مع تكاثر بني آدم إلى يومنا هذا، وحتى النّهاية. أي: لا يمكن أن يقف الاقتتال، والمفسدون والمخالفون والعصاة والمجرمون في الأرض هم الذين أهبط بهم والأرض أرضا.

ولهذا؛ فالفساد في الأرض كَثُر بما عملته أيدي النّاس، ومع ذلك لم يبق الفساد على حاله؛ فبعث الله نوحا نبيًّا لينذر قومه الذين أفسدوا في الأرض:

---

[117] الأنعام 111.

{فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}118، ومع أنّه لبث فيهم هذه السّنين، ولكنّ أكثرهم ظلوا ضالّين، إلى أن صدر حكم الله عليهم غرقا، وهو غرق من لم يتّعظ ولا يعتبر ولا يهتدي للتي هي أحسن؛ فغرقت تلك البقعة من الأرض بمن عليها خلافا، إلّا المؤمنين بما جاء به نوح من عند ربّه، كُتبت لهم النّجاة على ظهر سفينة النّجاة، التي حُمِلَ فيها من كلّ زوجين اثنين: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}119.

إنّها بداية حقبة جديدة لنشوء مجتمع إنساني جديد، كلّه على الهداية والإيمان؛ فكان البقاء للحقّ، ولا وجود للباطل، ولكن يظل للتخيير والاختلاف والإرادة والرّغبة والشهّوة أدورا مؤثرة على الفعل والعمل والسّلوك البشري؛ ممّا يجعل بني آدم بين تطوّر وارتقاءً، وبين سُفلية ودونية، ومن ثمّ؛ فإذا كان الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لم يستطع البقاء على حُسن تقويمه اختيارا: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}120؛ فكيف بمن خُلق من نطفة من زوجين مختلفين؟

ولذلك؛ حصلت الانتكاسة من بعد نوح والطّوفان؛ فأصبحت الكثرة على الضّلال والقلّة على الإيمان؛ فبعث الله إبراهيم ومن بعده الأنبيَّاء تترى، من أجل الهداية والإصلاح وبلوغ الحلّ فيما هم فيه مختلفون: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}121.

---

[118] العنكبوت 14.

[119] هود 40.

[120] طه 121.

[121] المؤمنون 44.

ومن هنا، أصبحت الشرائع بين النَّاس تنظّم العلاقات الإنسانية على الفضائل الخيّرة المستمدّة من الأديان، سواء أكان النَّاس مؤمنين، أم غير ذلك، وذلك وفقًا لقاعدة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}122. أي: أصبحت الأديان هي المصدر الأوّل لتنظيم العلاقات بين الأمم والشّعوب، فهي قد لفتت النَّاس إلى آيات الخالق في كونه وفي المعجزات التي بعث بها رُسُله؛ فكان الجدل حجّة بحجّة، حتى وُلدت الفلسفة في عقول النَّاس بحثا عن الحقيقة المجرّدة. ولا شيء في دائرة الممكن يعيق العقل عن البحث والتقصي بما أنّ العقل قادر على الإعمال فكرا.

وعليه.

. فكّر في الكبائر كما تفكّر في الصّغائر تجد حلًّا.

. فكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تجعل منه موضعا أو مشكلة وهو لم يكن كذلك محيّرا.

. ميّز بين المشاكل العابرة وبين التي تقسم الظّهر حتى تستشعر الألم الذي من ورائه حلًّا.

. التفت إلى التّاريخ؛ فهو مليء بالعبر والمواعظ المملوءة بما يُلفت الانتباه إلى الحلول.

. لا تأخذ الحلول الجاهزة، بل عليك بالتمييز بين ما كان مهمّ في زمانه ومكانه وبين ما هو غير مهم في الزّمان والمكان المختلف عنه بالتّمام.

. ثق أنّ لكلّ مشكلة حلًّا.

[122] البقرة 256.

. إذا لم تستلهم أو تستقرأ أو تستنتج حلًّا في دائرة الممكن المتوقّع؛ فعليك بالتفكير في دائرة غير المتوقّع حتى تجد الحلّ هناك. ولكن إن تعسّرت عليك معرفته هناك أو تعسّر عليك اكتشافه بالرّغم من وجوده، ففكّر في إيجاد خارقة تمكّنك من اختراق المشكلة حلًّا.

تحدّي الصِّعاب رغبة وتطلُّع:

الرّغبة شعور يحرّك الكائن ويدفعه إلى اتجاه ما يحب، أو يأمل، أو يشبع حاجه، سواء أكان المستهدف في الماضي أم الحاضر أم المستقبل، ولكن عندما تلتصق الرّغبة بالتطلّع وتحدّي الصِّعاب فهي ستكون في اتجاه الموجب المفيد؛ ولذلك فتحدّي الصِّعاب يُمهِّد لعمليَّة التطلّع.

وعليه:

. أقدم على إزالة الصِّعاب التي تعيق طريقك وتحيطك من كلّ جانب.

. دعّم قيم التطلُّع.

. تعاون مع الآخرين وازداد علمًا وخبرة.

. ثق أنّك قوَّة وتحدَّ الصِّعاب.

. اكسر حاجز الخوف.

. نوّع مهاراتك وتطلّع للجديد.

. استثمر إمكاناتك وسابق الزَّمن.

. نمِّ قدراتك في دائرة المتوقّع.

. هيّئ استعداداتك لغير المتوقّع.

. اصنع مستقبلًا وأحدث النُّقلة.

. اجعل لنفسك أملًا واعمل على بلوغه ومن ثمّ نيله.

ولذلك؛ فإن تَوفُر الرّغبة في دائرة الممكن المتوقّع يُسهِّل من عمليات التحصيل والإنجاز، ويُسرّع من عمليات الإقدام وتحدّي الصِّعاب،

وعليه: يكمن في قيمة الرّغبة قيم أخرى، منها:

. الطموح.

. التطلُّع.

الإقدام.

التحدّي.

قوَّة الدّافعية.

الإنجاز.

التفوّق.

. النجاح.

ومن هنا وجب غرس الثّقة في أنفسنا إن أردنا تحدّيا يصنع لنا مستقبلًا، وإلّا سنكون ضعفًاء ولا شيء لدينا إلّا الأمنيات التي لا يمكن أن تصنع لنا مستقبلًا؛ ولهذا لا ينبغي أن نغفل عن الآتي:

. غرس الثّقة في نفوس أفراد المجتمع، بأنّهم قوَّة ولهم ما يميّزهم من الخصوصية، وأنّه من الممكن أن يكونوا على أحسن حال إذا ما استثمروا إمكاناتهم وتحدوا الصّعاب.

. غرس الثّقة في نفس الفرد وفي القيم الاجتماعيَّة الموجبة من أولويات الدور المهني للأخصائي الاجتماعي، وكذلك من قبل المسؤولين وواضعي الخطط وراسمي السياسات الوطنية.

. غرس الثّقة في أنفس الجماعة من خلال المشاركة الفعّالة في إعداد البرامج، والمشاركة في تنفيذها والقيام بها، يعيدهم إلى أداء الواجبات على المستوى المجتمعي.

. تنمية قدرات أفراد المجتمع وغرس الثقة بينهم حتى يتمكّنوا من تحقيق أهدافهم الاجتماعيَّة وفقًا للخطط والاستراتيجيات المرسومة.

. تهيئة الاستعدادات الاجتماعيَّة لما يجب والتطلّع بها إلى ما يُحدث النُّقلة.

. غرس الثقة في المجتمع من خلال مؤسّساته العامِلة، ومن خلال الخطط والاستراتيجيات العامّة، دون الإغفال عن مشاورة أفراد المجتمع وأخذ وجهات نظرهم تجاه المستقبل الذي يأملونه أو يتطلعون إليه.

. تنمية قدرات الأفراد والجماعات مع مراعاة أصحاب الحاجات الخاصّة وتأهيلهم وتدريبهم ورعايتهم وتوظيفهم يسهم في تحدّي الصِّعاب وتحقيق الارتقاء.

. تقوية الإمكانات المادّية وتدعيمها بالمعلومة والمعرفة الواسعة المساندة للتطوّر والتقدّم واستثمارها فيما يفيد أفراد المجتمع.

. تحفيز أفراد المجتمع على المشاركة الفعّالة، ودفع مؤسّساتهم إلى الإقدام على ما يفيد وينفع العملاء والزبائن.

. استثمار الإمكانات البشرية والمادّية في تحسين أحوال الأفراد والجماعات وتحسين أحوال البيئة.

. إشعار أفراد المجتمع بأهمية المشاركة الاجتماعيَّة في اتخاذ القرارات وتنفيذها وتقويمها من الانحراف.

. حث الأفراد على الاستفادة من الإمكانات المتاحة والبحث عن إمكانات أخرى أو إمكانات بديلة في حالة نقص الإمكانات أو شُحها من البيئة الاجتماعيَّة المحلية، واستثمار ما يتوفّر منها إلى أقصى درجة ممكنة، تحقيقا لعمليات التغيير الموجب.

. إزالة المخاوف من نفوس أفراد المجتمع وحثّهم على تحدّي الصِّعاب التي قد تواجههم وهم يقدمون على تنفيذ خططهم واستراتيجياتهم التي رسموها.

. الإصرار والتصميم الإرادي على صناعة المستقبل في الزَّمن الحاضر.

. تأكيد أهمية المشاركة ودورها في بناء الثقة بتحريض الأفراد على ممارستها من أجل تأكيد منطق (النّحن) المستوعب للأنا والآخر حتى تتضاعف القوَّة ويزداد العطاء.

. إزالة المخاوف والظّنون التي قد تعلق بذهن الأفراد في أثناء جمع المعلومات، وتحليلها، أو في أثناء تشخيص الحالة وغرس الثقة فيهم ودفعهم إلى التفاعل الموجب الممكِّن من إيجاد الحلول وتعزيزها في أفعال سلوكية.

. دفع أفراد المجتمع وهيئاته ومؤسّساته إلى استيعاب الجديد والعمل على تطويرها بما يفيد وينمي الحياة الاجتماعيَّة والاقتصادية والسياسية لديهم.

. الإصرار والتصميم على إزالة الشكّوك والمخاوف وكلّ ما من شأنه أن يجعل المواطن في حالة خوف أو قلق ممّا هو عليه ومن المستقبل الغامض من وجهة نظره.

. تمكّين الأفراد من إدارة شؤون حياتهم بإرادتهم الحرّة دون أيّ إكراه أو إجبار وغرس الثقة في أنفسهم وفي مقدرتهم على إدارة ما يتعلّق بهم من أمر مع إرشادهم لِما يفيد عمليات الاستثمار للإمكانات المتاحة، وتعريفهم بأساليب البحث عن البدائل كلّما دعت الضّرورة لذلك.

ولهذا فالقاعدة هي:

. تنمية القدرات.

. تهيئة الاستعدادات.

. تدعيم الإمكانات.

والاستثناء هو:

. لا يولى اهتمامٌ بالقدرات.

. لا تُهيأ الاستعدادات.

. لا تُدعم الإمكانات.

ولذا؛ وجب غرس الثقة في نفوس العاملين في مؤسّسات المجتمع وهيئاته وجمعياته الأهلية والحكومية. وأن يولى اهتمامٌ بالقدرات والاستعدادات والإمكانات الفردية والجماعية والمجتمعية. ومساعدة الخبراء وقيادات المجتمع على اكتشاف الموهوبين والمبدعين وتحفيزهم على الإبداع وعلى زيادة الإنتاج، وغرس روح المحبّة للدين والوطن والعلم والعمل مع استيعاب الآخر والتطلّع إليه.

وعليه: فإنَّ تنمية القدرات وتهيئة الاستعدادات وتدعيم الإمكانات يتطلب تخطيطا موضوعيا من قبل مؤسّسات المجتمع وهيئاته، وقبل أن تُرسم الخطط أو توضع الاستراتيجيات ينبغي للمخططين أن يتمكّنوا من معرفة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

. ما هي القدرات وكيف تنمى، ومتى؟

. ما هي الاستعدادات، وكيف تُهيئ، ومتى؟

. ما هي الإمكانات، وكيف تُدّعم، ومتى؟

. من هم القادرون على تنمية القدرات وتهيئة الاستعدادات، وتدعيم الإمكانات؟

. من هم المستهدفون بتنمية القدرات وتهيئة الاستعدادات وتدعيم الإمكانات؟

. ما هي الأهداف التي من أجلها تنمى القدرات وتهيئ الاستعدادات وتدعم الإمكانات؟

في ضوء الحصول على إجابات لهذه الأسئلة يمكن رسم الخطط. وبدون تحديد إجابات واضحة ومحددة، وبدون حصر الإمكانات تظل الخطط على الورق فقط، ولن تدخل حيز التنفيذ المكلل بالنّجاح، وإذا حاول البعض بالطّرق والأساليب العشوائية فلا مفرَ لهم من الفشل المحقّق؛ ولذلك فمن يطلب منه أن يكون شريكا في رسم الخطط والاستراتيجيات التي تُسهم في صناعة المستقبل أو إحداث النُّقلة، عليه أن يطرح هذه الأسئلة على المسؤولين وذوي الاهتمام حتى يتمكّن من المشاركة الفاعلة والناجحة مع الخبراء وقيادات المجتمع، وهيئات التخطيط العام في الدّولة ومؤسساته. ومن ثمّ ينبغي لنا مراعاة الآتي:

. أهداف واضحة المرامي.

. خطط وفقًا للإمكانات المتاحة والإمكانات التي قد تتاح وفقًا لدائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) لتفادي ما لم يكن في الحسبان.

. تهيئة الاستعدادات النفسية والبدنية والمالية لما هو متوقّع وغير متوقّع حتى لا تحدث المفاجئة.

. غرس الثقة في النفس حتى يتم التمكّن من تحدي الصِّعاب.

. تحديد الأدوار الواجب لعبها لتحقيق الأهداف المحددة من قبل المجتمع أو مؤسّساته أو هيئاته وجمعياته.

. تحديد الظروف البيئية المحيطة بالمؤسّسة أو الوحدة الإنتاجية أو التعليميّة للوقوف على ما بها من فرص للعمل أو التعلم أو ممارسة المناشط، وما بها من عوائق قد تحول بين المنفذين للخطط والأهداف المرسومة للإنجاز؛ وذلك لأجل إزالتها من الطريق قبل البدء في تنفيذ الخطط.

. تحديد جدولة زمنية لممارسة أو تنفيذ أي نشاط موضوعي داخل المؤسّسة أو في محيطها البيئي.

. تحديد القوى الفاعلة والقوى المساعدة من البشر الذين يُعتقد أنّهم قادرون على العمل بلا تردّد وبلا مخاوف.

. تتبع مراحل تنفيذ الخطة أوَّلًا بأوّل.

. تقويم الجهود المبذولة في الفترات الزَّمنية المحدّدة، وما تَحقّق من إنجاز جزئي.

وعليه:

نمِّ قدراتك.

افطن من غفلتك.

أدرك ذاتك.

اسبر أغوار نفسك.

اعرف أسباب ضعفك.

استمد معطيات قوّتك.

خذ بزمام أمرك.

اعترف بأخطائك وأقدم على تغييرها.

قرّر بعد معرفة كافية.

نفّذ بلا تردّد.

أصلح من حالك.

ثق في نفسك يثق الآخرون فيك.

سر بخطًى ثابتة صوب الأهداف.

تكلّم بصوت واضح مفهوم ومتّزن.

ثق أنّ قدراتك تمكّنك من أداء عمل أفضل.

حاول حلّ مشاكلك بنفسك، وتهيأ لمساعدة الآخرين.

شارك أفراد المجتمع نشاطاتهم.

ارسم خططا.

عدّ برنامجا لمستقبلك.

لا تقل نعم عندما تريد أن تقول لا.

ولأنّه كلّما توفّرت الحوافز المتنوّعة والمتعددة، زادت عمليات التفاعل والمشاركة الإيجابية بين أفراد المجتمع وجماعاته؛ لذا فإنّ تقوية الدّوافع تتطلّب حوافز متنوّعة ومتعددة، وتتطلب أساليب استيعابية ممتلئة بالذّوق الرّفيع والمرونة المتوازنة.

تحدّي الصِّعاب يحدث النُّقلة:

تحدّي الصّعاب يحقّق النُّقلة النّوعية، فهو الممكّن من تجاوز المستويات القيمية الثلاثة (الذاتية والانسحابية والأنانية) والامتداد إلى المستوى القيمي التطلّعي والمستوى القيمي الموضوعي، اللذين يعتمد فيهما الإنسان على المنطق والعقل حُجّة في الحوار، وحجّة في استقراء واستنباط الأمور المتعلّقة بالعلائق الاجتماعيَّة والاقتصادية والسياسيّة وبالعلائق النفسية والذوقية والثقافية.

ولذا؛ فتحدّي الصّعاب بما يُبذل من جهد منتج، يؤدّي إلى تحقيق الطمأنينة النفسية والرّضا النفسي ويغرس الثّقة التي تمدّ الإنسان بالمزيد من العطاء الموجب.

ولأنّ تحدّي الصِّعاب يمكّن من إحداث النُّقلة النوعيّة، فإنّ النُّقلة تحقّق التميّز والمكانة الرّفيعة والمنزلة العالية لمن يتحدّى الصِّعاب من أجل مأمول عظيم.

أمّا الذين يعانون من حالات انسحابية فأمرهم غير ذلك. فهم يحتاجون إلى دراسة حالاتهم وتحديد مستوياتهم القيمية التي هم عليها. ثمّ إعادتهم لِما يجب، ثمّ بعد ذلك نقلهم إلى ما يُسهم في تحقيق المستقبل الأفضل والأجود الذي يحفِّزهم على تحدّي الصِّعاب ويحقّق لهم النُّقلة.

وعليه:

.كن إيجابيا؛ لتنال التقدير والاعتراف.

.كن متفهِّما؛ لتحدث النُّقلة.

. اعترف بالآخرين يتمّ الاعتراف بك.

. قدّر الآخرين تنال التقدير منهم.

. ثق أنّ الاعتراف يحقّق قيمة التقبل.

. ثق أنَّ الجحود مفسدة.

. ثق أنَّ مبادلة قيمة الاعتراف تبادل قيمة التقدير.

. استوعب الغير يستوعبك.

. شارك الغير تحدّي الصّعاب تتيسّر لك الأمور حتى ترى غايتك بين يديك.

وعليه: فمن أجل تحدّي الصّعاب ينبغي لنا عدم الإغفال عن:

. تفعيل منطق النّحن بين أفراد المجتمع وجماعات التعلّم والعمل والجماعات الممارسة للمناشط المتنوعة، والجماعات الممارسة للسياسة والاقتصاد والذين يشتركون في رسم الخطط والاستراتيجيات لمجتمعاتهم.

. تمكين أفراد المجتمع من تكوين إحساس عام مشترك، مفاده أنّهم مفردات أساسية في الدّولة ولهم حقوق يجب أن تمارس وواجبات ينبغي لها أن تؤدّى، ومسؤوليات ينبغي لها أن تحمل، حتى يصبح منطق الجميع نحن معًا.

. التركيز على القيم الاجتماعيَّة التي تستوعب الأفراد والجماعات دون استثناء، مع تفطين الأفراد بأهمية هذه القيم الاستيعابية، وحثهم على احترامها وتقديرها والوقوف عندها والابتعاد عمّا يُبعدهم عنها، فهذا الأمر يجعلهم في الاحتضان الاجتماعي الذي يمدهم بالدفء والطمأنينة.

. حث أفراد المجتمع وجماعاته وفئاته على استيعاب بعضهم بعضا، وتقبلهم كما هم يُمكِّن من تكوين علائق قيمية ذات أبعاد إنسانية.

. وضع خطط وبرامج لتحقيق الألفة والمحبّة والموائمة الاجتماعيَّة والإنسانية بين العاملين والمتعلمين وأفراد الأسر والممارسين للمناشط المتعددة، وأصحاب الحضارات وأصحاب الأديان المتعددة؛ ذلك لأنّ الرّب واحد ولا شريك له.

. دفع الأفراد تجاه الأفعال الاستيعابية التي تُسهم في زيادة قوّتهم قوَّة.

. المواءمة بين مطالب الأفراد وحاجاتهم، ومصادر الإشباع المتاحة في بيئتهم الاجتماعيَّة.

. التحريض على ممارسة أساليب الدّيمقراطية بما يحقّق المعاملة الحسنة بين الذين تربطهم علائق قيمية أو بين الذين تربطهم مصالح ومنافع مؤقّتة.

. غرس قيم الشفافية واتباع أساليبها بين المتعلمين والممارسين لحقوقهم والمؤدّين لواجباتهم والحاملين لمسؤولياتهم.

. تفطين أفراد الأسرة من غفلتهم عن متطلبات المراحل العمرية للأبناء وأثر المتغيرات التي تحيطهم في البيئة الاجتماعيَّة أو في القرية الصغيرة، حتى يتمّ الاستيعاب الموضعي وتقدير الحاجات المتطوّرة عبر الزَّمن.

. دفع الأفراد للتعامل بأسلوب ديمقراطي مع بعضهم بعض ومع الآخرين في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر سواء أكان هذا الأمر علائق أسرية أم علائق جيرة أم عمل أم سياسة داخلية أ خارجية أم أمر سلم أم حرب أو أيّ أمر من أمورهم الاجتماعيَّة.

. تفطين المجتمعات والفئات الاجتماعيَّة إلى أهمية الاستيعاب في تبادل المعارف والعلوم والمكاسب التي تنمو بالجهود المشتركة والتعاون والاستيعاب المتبادل.

. مشاركة الأفراد والجماعات في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر دون إنابة عنهم في أمر من أمورهم التي يقدرون على القيام بها أو أدائها، ولا داعي للأحكام المسبقة التي تقول: (إنَّهم لن يكونوا قادرين).

. التأكيد على أهمية ممارسة الديمقراطية بشفافية، يزيل الشكّوك التي تظهر بين الحين والحين بين أفراد المجتمع أو جماعته، ويطوي الهوة بينهم إلى أن يجعلهم يدا واحدة في مغالبة الصِّعاب وصُنع المستقبل المأمول.

. التأكيد على أهمية الاستيعاب في تنمية رأس المال الاجتماعي.

. ترشيد الأفراد والجماعات على التَّمسُّك بقيمة الاستيعاب؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق مجتمع القوَّة.

. تفعيل المشاركة والتعاون بما يؤكّد أهمية كلّ فرد من أفراد المجتمع بالنسبة إلى الآخر وحاجته إليه.

. التخطيط لكلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى توزيع المسؤوليات حسب الاختصاصات والأدوار والصّلاحيات؛ لأجل تفعيل مبررات الاستيعاب المثمر.

. المشاركة في المؤتمرات العلمية والسياسية والاقتصادية؛ للتعرف على المتغيرات المستحدثة التي تؤدّي إلى نتائج موجبة في العلائق الاجتماعيَّة والاستفادة منها في وضع البرامج وإعداد الخطط ورسم الاستراتيجيات التي تحقق النُّقلة.

. تشجيع أفراد المجتمع على إقامة صداقات خارج حدود الوطن من خلال شبكات المعلومات الدّولية؛ تحقيقا للتواصل مع الآخر واستيعابه بما يحقّق التقارب وتبادل المنافع.

. ترسيخ لغة ومفهوم (نحن) حتى لا تسري الشخصانية والأنانية في سلوك بني الوطن وأفعالهم؛ لأنَّ كلمتا أنا وأنت تسمح بمسافة امتداد فراغي؛ لتجذب مشاعر الخوف إليها، فكلّما زاد تمسُّك الأنا بأناته اندفع الأنت لإعادة حساباته، وهذه تزيد من الظّنون وتقلل من الثقة التي ينبغي لها أن تسود بين بني الوطن؛ ولهذا وجب سيادة: (إنا الفرد ينبغي لي أن أسود بكرامتي، وأنا الحرية ينبغي لي أن أعم النَّاس، وأنا الشفافية ينبغي لي أن أكون في السّلوك والفعل، وأنا الوطن يجب أن أكون خالصا لأهلي، وأنا الأبوّة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي لأحد أن يُحرم أحد من مشاعري وانتمائي، وأنا دين الله الذي كُرِمت به الآدمية. وأنا المنطق الذي يجب أن أسود بينكم إذا أردتم التفاهم والتواصل وتبادل الاحترام، وإذا أردتم الاعتراف والتقدير، وأنا النَّاس كلّ النَّاس الذين لهم حقوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات تُحْمَل، وأنا كلمة حقّ لا بدَّ أن أُقال. وأنت الباطل لابد أن تُزال، وأنت العبد يجب أن تتحرّر، وأنت الاستعمار يجب أن ترحل، وأنت القيد يجب أن تُفك بإرادة أو تُكسر بالقوّة، فأنت لم تكن أنا فلماذا لا تفهم؟ ونحن معًا نحن).

من هنا تتضح قيم (النّحن) الاستيعابية، التي تُمكِّن الأفراد من الالتقاء على الحُجَّة والتفاهم والاحتكام، لا على التعصّب بلا حُجَّة ولا برهان.

وعليه:

. استوعب النَّاس يتم استيعابك.

. اعترف بحقوق النَّاس يتمّ الاعتراف بحقوقك.

. قدّر النَّاس تنل التقدير منهم.

. عامل النَّاس بشفافية تُعامل بها.

. عامل النَّاس بمرونة يمدوك بالاحترام.

. اعتمد المنطق حُجّة حتى يصبح قاسما مشتركا.

ولأنّ التمسّك بالمنطق تمسّك بالقواسم المشتركة. إذن: (التمسّك بالقواسم المشتركة) قاعدة، والتخلّي عنها استثناء.

ومن هنا، ينبغي لنا العمل على تفطين أفراد المجتمع إلى أهمية التمسّك بالقواسم المشتركة حتى يتوحّد الجميع على منطق (نحن)، الذي لا يقبل التفرقة والتجزئة والإقصاء.

ولهذا يفضّل أن تتمركز قواعد المنطق على الآتي:

. الحُجَّة إقناع واقتناع.

. البرهان دليل إثبات موضوعي.

. الاستيعاب بإعطاء الهامش.

. التوافق تمركز على عناصر القوَّة.

. التفرّق تمركز على عناصر الضّعف.

. التقبّل رضا إرادي.

. الاعتراف إقرار بالفضيلة.

. الاعتبار إعطاء مكانة للآخر.

. التقدير معياري النجاح.

. التواصل استمرارية علائقية.

. الشفافية وضوح في القول والفعل.

. تفهم الظّروف اعتبار ذاتي.

. التعامل بالقيم الحميدة تنمية أخلاق.

وعليه: فإنَّ تفعيل العلائق الاجتماعيَّة والإنسانية يؤدّي إلى تحدّي الصّعاب، أمّا إهمالها فيؤدي إلى التراجع والانسحاب والضّعف الذي لا يؤدّي إلّا إلى الخسارة والانهزام.

تحدّي الصّعاب يمكّن من معرفة المجهول:

المجهول هو ما لم يكتشف بعد، أو لم يتمّ التعرّف عليه بالرّغم من وجوده، أي: كلّ ما تمّ التعرف عليه، كان مجهولا؛ ولهذا فلو لم يكن المجهول موجودا ما كانت الإمكانية متاحة لمعرفته.

فالمجهول هو ما لم يكن معلوما بعد، ممّا يستوجب البحث من أجل كشفه والتعرّف عليه ليكون إضافة جديدة للمعارف والعلوم السّابقة، فينبغي للبحّاث إنْ أرادوا معرفة المجهول، أن يصوغوا له تساؤلات، فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ؛ فالبحّاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلمية لنا لن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنوا فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم، فالفروض وأن عظمت نتائجها لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

أمّا التساؤلات فهي أسلوب بحثي معمّق يمكّن أصحابه من معرفة الجديد المجهول: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}123 فقوله: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ!) هو تساؤل، ولم يكن سؤالا، ولم يكن استفسارا؛ ذلك لأنّ السّؤال دائمًا يلاحق إجابة سابقة عليه، بهدف إعادتها ثانية أو أكثر من ذلك، وكذلك الاستفسار لا يكون إلّا عابرا ومن العموم، أمّا التساؤل فهو يستوجب بحثا علميّا وتقصٍّ دقيقٍ من أجل معرفة المجهول.

ولأنّ المشركين يتساءلون عن المجهول؛ فكانت المعلومة من العليم، أنّ ما تختلفون فيه، هو: النبأ العظيم الذي يتنزّل تنزيلا، أي: إنّ المشركين كانوا يعتقدوا أنّ ما جاء به محمّد عليه الصّلاة والسّلام لا يمكن أن يكون منه، وهنا كانت علامات الاستغراب تدور في أنفسهم كما تدور بينهم، وهم يتساءلون؛ فأنزل الله المعلومة حُجّة: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)، وستكون الشواهد على ذلك متوالية، وسيعلم الكفار بذلك شواهد دالة على أنّه الحقّ المنزّل، (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ). أي: إنّ المعجز إن تمّ الاستفسار عنه فلا يبلغ إلّا تنزيلا، أمّا الممكن فلا يبلغ إلّا بحثا معمّقا.

ومن منطلق تحدّي الصِّعاب يجب تقدير الشّطحات العلمية؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة إلى ما هو مستحيل فالشّطحات عندما تكون موضوعية تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفية التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعية؛ فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعا بين ما هو مستحيل، وما ينبغي للإنسان أن يتمكّن من معرفته وإدراكه.

ولذلك؛ فالتّطلُّع وتحدّي الصِّعاب يُمكّنان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنان من تجاوزه ارتقاءً، ومن ثمّ، إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه

[123] النبأ 1 . 5.

استحالة فلا ينبغي لنا أن نضع إشارة قفّ أمام التفكير العلمي لبني آدم، بل ينبغي لنا أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع؛ فينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلا، ولذا؛ فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ؛ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب؛ ولذلك خُلقنا.

ولأنّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي لنا أن نعمل، والمستحيل نصب أعيُننا، حتى ندركه عجزا، وحينها ندرك إنّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان صعب وغير متوقّع.

ولأنّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاءً، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني والذوقي.

ولكن لأنّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا؛ فهما بيد الإنسان مطلبا ورغبة واختيارا، ولذلك؛ ينبغي لبني آدم أن يعملوا كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى تحدّي الصِّعاب وإحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاءً.

وعليه:

. التعرّف على المجهول يزيد المؤمن ثقة وإيمانا بأنّه لم يؤت من العلم إلّا قليلا.

. البحث عن المجهول يفتح آفاقا واسعة أمام المعارف الإنسانية وينمّي الذاكرة ويحفّزها على المزيد.

. الانطلاق من المعلوم بحثا علميا يمكّن البحاث من إضافة ما كان مجهولا بالنّسبة إليهم.

. التعرّف على المجهول ليس بتعرّف على مفقود، بل هو التعرّف على الممكن الذي لم يسبق وجوده معرفة من قبل.

. التعرّف على المجهول ممكنٌ؛ فاسع حتى يصبح على يديك إضافة جديدة.

. البحث العلمي يكتشف المجهول ويضيفه إلى المعرفة جديدا؛ فابحث حتى تكتشف المجهول.

. التعرّف على المجهول يستوجب صياغة تساؤلات فعليك بها صياغة.

. الشّطحات العلمية تؤدّي إلى الاكتشاف العلمي فلا تُقولب عقلك وفكّرك ولا تقبل بوضع إشارة قف أمامك في أثناء قيامك بالبحث العلمي.

. فكّر فيما هو غير متاح حتى يصبح معلوما.

. ثق أنّ وراء كلّ مجهول كمّ كبير من المجهولات؛ فلا تقنط.

كيف تُنجز الأهداف:

الأهداف هي ذلك المرجو إنجازا سواء أكان الإنجاز بحثا علميا أم عملًا أو أيّ مقصد من المقاصد المعلومة، ولهذا فالأهداف تحدّد بوضوح ودقة، لتكون مرشدة لمراميها.

فالأهداف هي التي تحدّد وفق الإمكانات من قبل الذين يأملون انجاز ما يمكن إنجازه علمًا أو معرفة أو بناء وإعمارا وصناعة مستقبل، وهي لا تكون محدّدة إلّا بعد وضوح رؤية تجاه ما يجب الإقدام عليه، ولهذا فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، وبين الهادمين له انحدارا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا قابلة للإنجاز، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاءً. وفي هذا الشأن الأمر لا يزيد عن كونه أملًا، وسيظل أملًا، لأنّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين في خصوصياتنا وفي آمالنا وإن اتفقنا في بعض منها: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[124].

فالاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاءً.

فمن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف ارتقاءً، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة؛ فالنّدم يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر

---

[124] هود 118، 119.

غفلة، ومتى ما قوي ارتقاءً تذكّر؛ فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراض، والغاية من ورائها قمّة مأمولة.

وعليه:

إنّ تحديد الأهداف يُمكّن من إنجازها بنتائج وحلول موضوعية، ويوجّه الباحثين إلى ما يمكن إنجازه دون إضاعة للوقت أو الجهد، ودون أيّ إهدار للإمكانات، وهي تلفت الباحثين والعاملين على إنجازها إلى أهمية الموضوع أو القضية التي هم يعملون أو يضحّون من أجلها. ولهذا:

. حدّد أهدافك قبل أن تبحث أو تعمل.

. وضّح أهدافك للغير إذا كانوا على علاقة بها.

. فكّ اللبس أو الغموض عن كلّ مفهوم من مفاهيم أهدافك.

. ثق أنّ الأهداف تنجز؛ فلا تتأخّر عن العمل على إنجازها.

. تحديد الأهداف يدلّ على وضوح الرّؤية.

. غموض الأهداف لا يؤدّي إلى تحقيق نتائج.

. تحديد الأهداف يمكّن من التدبّر.

ولهذا وجب التدبّر الذي ترسم سياساته وفقًا لأهداف واضحة وذلك بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة ومن ثمّ نيل المأمول.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على

تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة؛ فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، ولهذا لا يمكن أن تبلغ الغايات العظام بلا أهداف والأغراض من ورائها حافز ودافع.

الأهداف ليست أمنيات، بل هي المرشد الحقيقي للباحثين في ميادين البحث العلمي، والسّاعين إلى الارتقاء مهنة وعلمًا ومعرفة وإنتاجًا وحرفة؛ ولهذا فلا يمكن أن تنجز المهام والأعمال والخطط والاستراتيجيات على أي مستوى من المستويات الفردية والجماعية والمجتمعية وأيّ مستوى من المستويات السياسية والاقتصادية والمعرفية ما لم تحدد لذلك أهداف قابلة للإنجاز.

ودائمًا عندما تحدّد الأهداف تصبح رؤية المحدّدين لها واضحة المرامي والأغراض، وفي المقابل من لا يتمكّن من تحديد أهداف بحثه أو سياسته أو تنظيمه؛ فلن يستطيع أن ينجز شيئا يمكن أن يكون على الأهميَّة المرجوة.

وعليه:

. الأهداف ليست أمنيات كُسالى، بل هي التي تحمل في أحشائها الموضوع أو المشكل برمّته.

. الأهداف لا تحدّد بدقّة إلّا من قِبل الجادّين.

. الأهداف تنجز أوّل بأوّل.

. الأهداف تهدي الباحثين وترشدهم إليها مثلما تهدي المنارات سفن المبحرين.

. الأهداف لا تحدّد إلّا من قبل القادرين على إنجازها.

. يعدّ تحديد الأهداف كسر فيما كان يظن أنّه صعبا لا يكسر.

. ويعدّ إنجاز أوّل الأهداف أكبر لبنة لبناء المستقبل المأمول.

ولهذا فتحديد الأهداف لم يكن غاية في ذاته، ولكنّه ضرورة لطي الهوة بين من كانت لهم أهداف وبين المستهدف منها، ولهذا فالأهداف ترتّب أوّل بأوّل، ذلك لأنّ إنجازها متتالي ومتلاحق وهي بعد الإنجاز تفتح آفاقا جديدة لصوغ أهداف جدية لا تتولّد إلّا من بعد الإنجاز السابق للأهداف السّابقة عليها.

ومع أنّ البداية تُعدّ نقطة الصّعوبة، لكنّها في النّهاية لا تعدّ نقطة الاستحالة؛ فالتعلّم بداية تواجهه المصاعب كما تواجه عمليَّة التذكّر والتدبّر والتفكّر والإبداع، ولكن نهاية الأهداف تنجز، والأغراض تتحقّق، والغايات تُبلغ.

ولأجل ذلك: ينبغي أن نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، وبين تحديد الأغراض وتحقيقها، وبين تحديد الغايات وبلوغها؛ فالأهداف تحدّد لتنجز أوَّلًا بأوّل، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها، ولهذا؛ فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي تحديد أهداف أهم من التي أنجزت، ثمّ من بعدها أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهمية إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ولهذا، لا ينبغي أن تكون الأهداف غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها رفعة.

إنَّ قاعدة تحديد الأهداف مؤسّسة على الإنجاز، وإلّا لا داعي لتحديدها، أي: كلّ ما أنجز بنو آدم هدفا ينبغي أن يكون من ورائه هدف

أهم، ثمّ من ورائه هدف أكثر أهمية، ووراء كلّ هدف غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية.

ولذلك؛ في دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يحدّد أهدافه، ولكنّه لا يعمل على إنجازها وكأنّ تحديدها هو الغاية؛ وكذلك هناك من يحدّد أهدافه ويعمل على إنجازها دون أن تكون له أهداف من بعدها، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها، ولهذا؛ فالأهداف ارتقاءً: ينبغي أن يكون من ورائها غرض تكمن من ورائه غاية.

ومن ثمّ، ينبغي على بني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

وعليه:

. إنّ تحديد الأهداف ليس غاية في ذاته، بل الغاية إيجاد المنجز.

. من يحدّد أهدافه غاية ليس له من نتيجة إلّا الفشل.

. إنجاز الأهداف يولّد أهدافا جديدة في عقول الجادّين.

. كلّ هدف يحدّد من ورائه غرض.

. كلّ غرض يتحقّق من ورائه غاية.

كلّ غاية تُبلغ من ورائها مأمول يتمّ نيله.

. لا ترسم السياسات إلّا على أهداف واضحة ومحدّد وبيّنة.

. الأهداف تحدّد وفقًا لمتغيرات محدّدة، ولكن لا تقفل على ذلك؛ فهناك من الأهداف ما يحدّد في دائرة غير المتوقّع بما يمكّن من إنجاز المفاجئ.

ولذا؛ فكلّما أُنجز هدف، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف أهداف من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهمية؛ فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاءً. أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاءً وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاءً كلّما عملوا وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب؛ فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاءً، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاءً.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النَّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه ارتقاءً.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسا على عقب، وهناك من يهدّم لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، وبين الهادمين له انحدارا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا قابلة للإنجاز. ومع ذلك؛ فهذا الأمر لا يزيد عن كونه أملًا، وسيظل أملًا، لأنّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين،

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[125].

كيف تحقّق أغراضك:

الغرض ما في النفس من مقصد تجاه الآخر، أو تجاه الباعث، أو تجاه الغاية المأمولة، وهو المخفي وراء إنجاز الهدف، أي: وراء كلّ هدف غرض (قصد) لا يعرفه إلّا من حدّد الهدف لنفسه أو للآخرين.

ومع أنّ الغرض لا يُعلن عنه، ولا يطلب تحديده كما هو حال الهدف، ولكنّه بالنسبة إلى من يتعلّق الأمر به واضح وجلي، فالباحث العلمي لا يمكن أن يُقدِم على تناول موضوع بحثه إلّا بعد أن يحدد أهدافه البحثية بكلّ وضوح، وفي المقابل لا أحد يسأله عن غرضه (القصد) من وراء اختياره وتناوله لموضوع البحث أو مشكلته الدراسية؛ فهذا الأمر يخصّه وحده ولا دخل لغيره فيه.

فالغرض لا وجود له في ميادين المشاهدة والملاحظ، بل وجوده ضمني مخفي في نفس الباحث، ولكنّه مترتب على الهدف الذي كلّما أنجز استشعر الباحث بتحقق غرضه، فالغرض أثر تحقيقه معنويٌّ؛ أمّا الهدف فأثر إنجازه ماديٌّ.

ولأجل ذلك: ينبغي لنا أن نغوص في عقولنا تدبّرا حتى نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، وبين تحديد الأغراض وتحقيقها، وبين تحديد الغايات وبلوغها، وبين تحديد المأمولات ونيلها؛ فالأهداف تحدّد تفكيرا قبل أن تصاغ أهدافا قابلة للإنجاز، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها؛ ولهذا فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي ارتقاءً أن يتمّ التفكير في

[125] هود 118، 119.

أهداف أهم من التي أنجزت، ثم التفكير من بعدها في أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهمية إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ولهذا؛ لا ينبغي لأهداف أن تكون غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها رفعة.

إنَّ قاعدة التفكير في تحديد الأهداف مؤسّسة على التفكير في المنجز قبل أن ينجز، ثمّ التفكير في كيفية إنجازه، أي: كلّما أنجز بنو آدم هدفا ينبغي لهم أن يكون من ورائه هدف أهم، ثمّ من ورائه هدف أكثر أهمية، ووراء كلّ هدف غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية ومن وراء الغايات مأمولٌ.

ولذلك؛ في دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يحدّد أهدافه، ولكنّه لا يفكّر في كيفية إنجازها ولا يعمل على إنجازها وكأنّ تحديدها هو الغاية، وكذلك هناك من يحدّد أهدافه ويعمل على إنجازها دون أن تكون له أهداف من بعدها، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها، ولهذا فالأهداف ارتقاءً: ينبغي لها أن يكون من ورائها غرض تكمن من ورائه غاية.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزل عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار الشّيخ عند العقبة؛ إذ لا شيء ينجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين هم يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو: التفكير في كلّ شيء يدفع ويحفّز على الارتقاء عن كلّ شيء

يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنية، أو الإنسانية، أو يمسّ معتقدا دينيا.

ولكن من بني آدم من يجهل ويغفل؛ فلا يفكّر فيما يجب؛ فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين التي تزداد ضيقا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنّ للألم أوجاعا، وللتأزّم أوجاعا، ولكن أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجب أخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: إنّ نار الحقد تحرق أوّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فإنَّ الحقد يُلهي الحاقد من بني آدم عن نفسه، والحاقد في حقيقة أمره هو في حاجة لمن يطفئ عنه النّار التي يحرق بها نفسه. ومن ثمّ، فمن يعتقد أنّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها؛ فلا شكّ أنّ عضّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا؛ فإنّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُفلية المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب ترتقي علمًا ومعرفة وتسامحا وخبرة وتجربة؛ فتغزوا الأرض سلاما، والسّماء بحثا وارتقاءً.

فبنو آدم بلا أغراض قابلة للتحقق لا يعدون إلّا أمواتا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله؛ فسيبقون على أملهم وكأنّهم بلا أمل، أمّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل، فلا شكّ أنّه سيُسهم في إحداث

النُّقلة ارتقاءً، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا، هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس. ولذلك؛ فلا ينبغي لبني آدم أن يكون سماعيّون فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظا، وعليهم بالتدبّر تحليلا وتفسيرا وتخطيطا وسلوكا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر من أجل ما يجب؛ حتى يتمكّنوا من الارتقاء وفقًا لما لهم من أغراض بناءة من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاءً بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبيَّاء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا؛ فهم يفكّرون والأمل لا يفارقهم بغاية العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه، ولأجل ذلك فمن آمن منهم يسعى ويعمل من أجله ارتقاءً، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، لهم أغراض فيها فيصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها؛ ولذلك هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك، المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعا وتمدّدا.

وهنا، أقول لبعض علمَاء الفيزياء وعلمَاء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم، فقد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار الكون؛ ولذا، فَلِمَ لا تفكّرون بموضوعية، وتتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله لعلكم ترشدون إلى المزيد من التفكير الممكّن من المزيد من الاكتشاف العلمي، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النَّاس جميعًا). فإن كنتم أهل موضوعية؛ فلا يليق أن تتجاهلوا كتابا يملؤه العلم والبيّنة؛ فأنا لا أقول لكم: ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية وراء آية؛ أملًا أن تتهذب أغراضكم من أخذ المواقف منه بأحكام مسبقة، إلى الأخذ بالبحث فيه لما فيه من مقاصد تجعل لكم منه مقصدا يعود بكم إلى تلك المقاصد مصلحين.

ولهذا؛ فلا ارتقاءً لبني آدم إلّا والبحث العلمي مصدره، والفضائل الخيّرة مصدره، والقيم الحميدة مصدره، ومن يغفل عن ذلك ليس له من خيار إلّا الانحدار على بلاطة الدّنيا.

ومن ثمّ؛ فالارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم غرض قابل لأن يتحقّق ومن بعده يتمّ بلوغ الغايات ونيل المأمول، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُلية والدُّنيا؛ فالعُلية هي السّماء، وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمّا الدُّنيا؛ فهي: الأرض، وما عليها من مخلوقّات وزوال الحياة، وبين هذا وذاك، وجد الإنسان نفسه تفكيرا بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى، فالتّخيير: (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحا أو تعمل طالحا، تُصدِّق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمّا التّسيير: فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة، هو: ما يمكّن بني آدم من تحقيق الأغراض والعيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يمكّنهم من تحقيق الغرض والعيش السّعيد في الحياة العلية (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا؛ فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاءً.

فالإنسان ينبغي له أن يعيش والأمل لا يفارقه، فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة، فالله خلق أبانا آدم في النّعيم؛ ليعيش وبنوه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) إذ الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاءً.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب تفكيرا واعيا كما تتطلب من بعده عملًا مبدعا ومنتجا بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) والفوز بها نعيما مأمولا.

فيجب التفكير في كلّ شيء ولا شيء، ولا سقف ولا موانع توضع أمام الفكر الإنساني، ثمّ يجب من بعد ذلك الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود؛ ذلك لأنّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم. ولهذا، فلا ينبغي لبني آدم أن يرتضوا بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكانا له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعًا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك؛ فالغنى رحمةٌ والفقر أزمةٌ ومواجع، ولأنّهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب ولا يقصرون أغراضهم على ما يشبع حاجاتهم، بل ينبغي لهم أن يعيدوا صياغتها بما يشمل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاءً.

فالغنى ارتقاءً حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر ليس بحقّ؛ بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي لها أن تزال، أمّا العجزة والقصّر فحقوق عيشهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق من هم مسؤولون عن إدارة الدّولة.

إذن: فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة إذ لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤولياته، وفي المقابل يحدث الانحدار والنّزول سُفلية لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقّا وواجبا ومسؤولية.

ولذلك، ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه، ومن هنا: تتغيّر وتتطوّر وترشد أغراضهم نفسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا إلى ما يمكّن من ترسيخ كرامة الإنسان.

الغرض ارتقاءً تجاوز دونيَّة:

الدّونية منزلة سُفلية لا تليق بأهل العلم ولا أهل المكانة والرّفعة، بل ولا تليق بمن خُلق في أحسن تقويم، ومن أراد أن تكون حياته على الخُلق الرّفيعة وعيا وتدبّرا فعليه بكلّ ما يُمكّن من إحداث النُّقلة ارتقاءً إلى ما هو مأمول، وفي مقابل ذلك إن لم يحسن الإنسان إدارة شؤونه فليس له إلّا الانحدار، فآدم عليه

السلام الذي خُلق في العليّة عندما أخفق في إدارة نفسه انحدر إلى سُفلية غير متوقعة، وهناك في دائرة غير المتوقّع واجهته المفاجأة بعد ما انحدر معصية مع انحدار شهوته ورغبته؛ التي جعلته على الهبوط إلى الحياة الدّنيا وهو بلا غرض إليها بعد أن كان في السّماء قمّة.

أي: إنّ الهبوط بآدم على الأرض هبوط ليس فيه غرض لآدم عليه السّلام؛ وذلك لأنّ الدنيا لم تكن هدفه، فلو كانت هدفه لكان له غرض من وراء الهبوط عليها، لأنّ أدم أهبط به كرها، وليس رغبة، ومن هنا: يرتبط الغرض بالرّغبة والإرادة؛ فإن توافرتا كان لصاحبهما غرض أو مجموعة من الأغراض.

إذن: الأغراض كما ترتبط بالرّغبة والإرادة ترتبط بالتخيير، ومن ثمّ فلا علاقة لها بالتسيير، أي: لا علاقة لها بالإكراه.

ولهذا فآدم الذي خُلق في أحسن تقويم انحدر من القيم التي ينبغي له أن يكون عليها إرادة ومعصية؛ فكان في سُفلية ودونية أمام خالقه: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[126]. ومع ذلك استغفر آدم ربّه فتاب عليه، ومن هنا، فتح الله باب التوبة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصّالحات: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[127].

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفلية، فغفر الله له، وتاب عليه بغرض الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعد هيّنًا؛ إذ لا عودة إلّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

---

[126] التين 5.

[127] التين 6.

ولأنّ العمل ارتقاءً يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك بين ارتقاءً فيه العمل يُتقن، ودُونية بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب؛ ولذلك كان الصّدق ارتقاءً في مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاءً في مواجهة الظّلم انحدارا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحرّيّة في مواجهة الاستعباد، والدّيمقراطية في مواجهة الدّكتاتورية، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يُمكّن من الارتقاء غرضا.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاءً ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالعمل الصّالح ارتقاءً لا يكون إلّا وفق أهداف قابلة للإنجاز وأغراض قابلة للتحقّق وعملًا منتجا ومتقنا ومبدعا ومرسّخا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والأغراض الفاسدة، لا تكون إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين، ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسؤولية ارتقاءً، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُّفلية والدّونية التي تتمركز على الأنا.

ولهذا؛ فالارتقاء لا يمكن أن يبلغه بنو آدم إلّا عدلا وعملًا وعفوا وصفحا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلّا ظلما وإهمالا وتشدّدا وتطرّفا، ففي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع من شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاءً، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليّة.

وعليه:

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قِبل بني آدم غرضا وأملًا؛ فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه رغبة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاءً.

فبنو آدم خُلقوا على الاختلاف، وسيظلون به مختلفين، حتى أهل الوطن الواحد والدّين الواحد واللغة والثقافة الواحدة هم مختلفون في قدراتهم ومواهبهم واستعداداتهم وميولهم واتجاهاتهم؛ ولهذا؛ فهم مختلفون في أغراضهم، ومع ذلك؛ فالاختلاف بينهم لا يلغيه التماثل والتشابه، بل التماثل والتشابه بين بني آدم يؤكّد وجود الاختلاف بلا لبس ولا غموض.

ولأنّه الاختلاف؛ فهو المحفّز على البقاء تنوّعا، وهو المحفّز على التغيير الممكّن من التّعاون والنّهوض ارتقاءً؛ فبنو آدم ارتقاءً يعلمون أنّهم لم يجدوا أنفسهم خلقا، بل خَلقَهم من هو أعظم منهم؛ فهم يعلمون أنّهم قبل الخَلق لم يكونوا شيئا يُذكر، ثمّ أصبحوا شيئا مذكورا؛ فهم يعلمون أنّ مشيئة من ورائهم هي التي أرادت لهم خَلقا، ولهذا؛ فهم يدركون أنّهم قبل الخَلق لم يبلغوا مستوى الوجود الصّفري قيمة، ولكن مشيئة الخالق شاءت لهم أن يكونوا شئيا؛ فكانوا شيئا وفي أحسن تقويم: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[128].

ولأنّ بني آدم بين الارتقاء والدّونية؛ فهم مختلفون هدفا وغرضا وغاية، ولهذا؛ فهم بين معرفة وعلم يؤدّيان بهم إلى النّهوض قمّة، وبين جهل يؤدّي بهم إلى الانحدار والدّونية.

---

[128] مريم 67.

ومع أنَّ القاعدة المنطقية ترى: أنّ الارتقاء أساس الخَلق البشري، ولكن الاستثناء يرى: كفّة الانحدار تكاد أن تتعادل مع كفّة الارتقاء، وهنا تكمن العلّة؛ إذ قلّة الجهد المبذول من قِبل من يأمل ارتقاءً، في مقابل الجهد المبذول من قِبل من تشدّه السُفلية، وهذا الأمر يشير إلى أنّ زمن الصّراع سيطول بين من غرضه رتق الأرض بالسّموات، ومن غرضه مخالف لذلك.

ومن ثمّ، ينبغي لبني آدم عند رسم السّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السّعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف متسولين.

تحدّي الصّعاب يُمكّن من بلوغ الغايات:

الغاية: هي ذلك الشيء البعيد الممكّن من نيل المأمول، وهي تُبلغ عملًا وجهدا يبذل في سبيل الإنتاج وقبول التحدّي وتجاوز الصِّعاب بعد مغالبتها بأهداف تنجز وأغراض تتحقّق.

والغاية مع أنّها تُبلغ فإنّها لا تدرك إلّا من قِبل صاحبها الذي يأمل بلوغها؛ فهي لم تكن هدفا مشاهدا، بل هي ذلك المجرّد الذي يدرك ولا يشاهد.

والغاية لم تكن هي المأمولة، بل هي ما يمكّن من بلوغ المأمول، أي: إنَّ المأمول هو ذلك الشيء المراد نيله أو الفوز به، أمّا الغاية فهي الكامنة في العقول والصدور، والتي في الغالب لا يعلن عنها حتى نيل المأمول الذي كان في الأنفس مجرّد غاية وأمل.

فالغايات لم تكن مثل الأهداف التي تحدّد بوضوح، بل هي في عقل الضامر وضمير، الذي وحده يعرف ماذا يريد؟ أو ماذا يرغب من وراء تلك الأهداف التي حدّدها وثابر على إنجازها؟

فالباحث العلمي على سبيل المثال: لا بدَّ له أن يحدّد أهداف بحثه أوَّلًا بأوّل، حتى يتمّ اعتمادها من قِبل الأستاذ المشرف والتصديق عليها من لجنة القبول، أمّا أغراض الباحث وغايات فهي من وراء نيله درجة الماجستير أو الدكتوراه، وهو وحده الذي يعرف غاياته، ولا يعلمها إلّا الله أو من أخبرهم بها.

ولأنّها الغاية؛ فهي لا تدرك إلّا ممن يعلمها سرّا وجهرا، فعلى سبيل المثال: الغاية من التمدّد المطلق لا يعلمها إلّا العليم المطلق، فمعرفة الغاية من تمدّد الكون هي متجاوزة لدائرة الممكن، فلا تدرك إلّا من خارجها (من قِبل من بيده العلم المطلق) الذي خلق ويخلق وسيخلق، قال تعالى: {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}129 .

يفهم من هذه الآية: أنّ ما اكتشفه علمَّاء الفيزياء من تمدّد كوني، لا مفاجئة فيه لمن يعلم أنّ صفة الخالق هي الخلق بلا انقطاع، فهو الذي خلق الكون (السّماء والأرض)، وهو الذي خلق الأكوان (السّماوات والأرضين)، وهو الذي خلق التمدّد الكوني بلا انقطاع (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) وهو الذي بيده نهاية الكون {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}130وهو الواحد الذي يعلم الغاية من وراء ذلك ولا أحد بإمكانه أن يعلمها.

---

[129] الذاريات 47.

[130] الأنبياء 104.

فعلمَاء الفلك والفيزياء وكذلك المؤمنون بالرّغم من خلافهم على خَلقِ الكون، فإنَّهم يتَفقون على أنّه لم يعد بعد بلوغ الغايات إلّا النّهاية التي لا يعلم الغاية من ورائها إلّا الله جلّ جلاله.

وعليه:

الغاية لم تكن النّهاية كما يعتقد البعض؛ ذلك لأنّ الغاية من ورائها مأمول، أمّا النّهاية فمن ورائها العدم، أي: إنّ الغاية تُبلغ ليكون من بعدها المأمول بين اليدين قابلا للتعامل معه حقيقة في ذاته وليس غاية، فالغاية دائمًا تكمن في الصدور والعقول، وهي تتطلّب حُسن تدبُّر حتى تُبلغ، ومع ذلك لم يكن بلوغها في ذاته هو الغاية، بل الغاية هي التي تُمكِّن من بلوغ الشيء ليكون من بعد بلوغه قابلا لنيله أو قابلا للنيل منه أو الفوز به شيئا بعد أن كان مجرّد أمل.

ولهذا فالغاية هي الأخرى قابلة لتجاوزها، أي: قابلة لتجاوزها بما هو مأمول، فالغاية تُمكّن أصحابها من بلوغ المأمول، ولهذا لم تكن هي المأمولة، هي فقط تُوصِلُ أصحابها عملًا حتى ملامسة المأمول، ولكن كيف ينال المأمول؟ أو كيف ينال شيء منه؟ أو كيف يمكن أن يتمّ الغوص في أغواره؟ فهذا حسب الجهد والأسلوب والمقدرة، وهو أيضًا بعد أن يتمّ بلوغه غاية قابلة لأن تتجسّد في الشيء المشبع للحاجة أو الملبّي للرّغبة أو المقصد أو الطلب.

إذن: الغاية لم تكن الشيء كما يظن البعض حتى يقال عنها: (الغاية هي ذلك الشيء)، بل الغاية للمُشيء (الإنسان) فالغاية لا تزيد عن كونها ذلك الذي يضمره العقل البشري تجاه ذلك المأمول الذي يستوجب بعد بلوغه غاية كيفية بها يتمّ التعامل معه أو التمكّن منه أخذا؛ ولهذا سيكون هناك جهد يبذل

بعد بلوغ الغاية وهو التعامل مع المأمول كسبا وإشباعا للرغبة أو الشّهوة أو الحاجة المتنوّعة.

فعلى سبيل المثال: إذا كان للإنسان غاية محدّد وهي السّفر إلى دولة ما ولتكن ألمانيا، وتحقّق له هذا السّفر ودخل إلى ألمانيا، فهنا تعد الغاية قد تمّ بلوغها، ولكن ما المقصد من ورائها؟ هل المقصد من ورائها هو العمل أم العلاج؟ أم مجرّد الإقامة والعيش هناك؟ فهذا الشيء لم يكن الغاية، بل هذا الشيء هو المأمول وهو المترتّب على بلوغ الغاية (بلوغ الأراضي الألمانية). ممّا يجعل لمن كانت له غاية السّفر إلى ألمانيا أن يفصح عن مأموله وأن يعمل عليه حتى يتمّ نيله أو الفوز به وفقًا للجهد الموضوعي.

ولهذا؛ فالغاية لا تزيد عن كونها الكامنة في الصّدور والعقول التي ترسم لمستقبلها مأمولات وتسعى إليها غاية تبلغ، ومن بعدها يتمّ نيل المأمول جهدا مع قبول تحدّي الصِّعاب وصبر لا يجعل في نفس صاحبه للملل مكانا ليركن إليه.

وعليه:

. الغاية تُبلغ فلا تقنط.

. الغايات لا تبلغ إلّا تحدٍّ؛ فعليك بالتحدّي الذي يمكّنك منها تيسيرا.

. الغاية مع أنّها في النفس وتحت سيطرة العقل، فإنَّ الشيء المراد بلوغه قد يكون بعيدا، ومع ذلك قوّة الغاية وتحفّز أصحابها يسرّع من طي الهوة بين من يضمر في نفسه غاية والشيء المراد بلوغه.

. بلوغ الغاية يُمكّن من تفحّص المأمول ونيله.

. الغاية تُبلغ ولكنّها لم تكن في ذاتها شيئا، بل الغاية بلوغ الشّيء؛ ليكون من بعد بلوغه عملًا يجعل نيل المأمول الذي تمّ بلوغه ميسّرا.

. الغاية تُمكّن من بلوغ الشيء، ولكنّها لم تكن هي الشيء في ذاته، فالشيء يتم نيله أو أخذه، أمّا الغاية فلا تؤخذ ولا يتمّ نيلها، بل نيل الشّيء لا يؤخذ إلّا من بعدها؛ فينبغي للإنسان أن يولّد في نفسه غايات وفي عقله تدبّر، ثمّ يعمل حتى يتمّ نيل المأمول الذي لم يكن قبل نيله إلّا مجرّد أمل.

ومن ثمّ؛ فمن يرد أن يبلغ الغايات العظيمة فعليه أن يجعل غاياته درجات سلّم (درجة أعلى من درجة) أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلّم، أهّب قدمه الأخرى إلى الدّرجة التي هي أعلى من التي وضع عليها قدمه الأوّلى، ولذا؛ فلا ينبغي لأحد من بني آدم أن يغفل ويضع قدميه معا على درجة من درجات السّلم حتى لا تنكسر بأيّ علّة ويجد نفسه قد وقع على الأرض الدّنيا حطاما؛ فالقدمان لا يوضعان بسلام وصاحبهما مطمئن إلّا على قمّة استراحة السّلم الذي يرتق الأرض مع السّماء ارتقاءً.

إذن: بلوغ الغايات يستوجب:

. تخمين مع حُسن تدبّر.

. وعي بالمأمول.

. إمكانية بلوغ المأمول.

. قبول تحدّي الصِّعاب.

. صبر لا إحباط من بعده.

. ثِقة لا شكّ يراودها.

. يقين لا حياد عنه.

. صمود، وإن كانت الصِّعاب تصاحبه مؤقّتا.

. ثبات ولا حياد عن تلك الأهداف الواضحة تجاه الغايات المراد بلوغها.

. عمل مؤسّس على التفهّم والتبيّن حيث لا غموض.

. اعمل وأنت تفكّر في كيفية توليد الغاية من الغاية.

ولذا؛ فعلى بني آدم أن يعملوا، وعليهم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاءً كلّما عملوا وفقًا غايات يتمّ بلوغها، ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة فلا بدَّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النَّاس من حيث هم، من أجل أن يبلغوا الغايات العظام.

ولأجل ذلك: ينبغي للإنسان أن يكون له غايات قابلة للبلوغ، وينبغي له أن يكون من وراء الغايات التي تمّ بلوغها غايات أعظم من تلك التي قد بُلغت وحقّقت الاطمئنان لآمليها.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزلٍ عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار الشّيخ عند العقبة، حيث لا شيء ينجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة وهنا يكمن الوهن والضعف، ولا تتحقّق الغايات التي بنى البعض عليها آماله وهمًا وتخيلًا.

ومن ثمّ، ينبغي لبني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة قوّة ورفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

ولذا؛ فكلّما أُنجز هدف، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف أهداف من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهمية، فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاءً، أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاءً وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاءً كلّما عملوا وفقًا لأهداف تنجز رغبة، وأغراض تتحقّق عن إرادة، وغايات يتمّ بلوغها عن قوّة، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاءً، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين قوّة.

وعليه:

فالغايات هي حيويّة الدّوافع، ومثيرة الحوافز النفسية والذهنية والعاطفية بقوّة الرّغبة والأمل تجاه ما يمكن أن يبلغ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع. والإنسان بلا غايات هو بلا آمال، ومن ثمّ؛ فلن يكون في عصره من بين صنّاع المستقبل ومحدثي النُّقلة[131].

تحدّي الصّعاب يمكّن من نيل المأمول:

نيل المأمول لا يعد أمرًا هينًا، وهذا لا يعني أنّه خارقة، بل المأمول في معظمه عند العظماء عظيمًا؛ ولهذا لا يمكن بلوغه ونيله إلّا بتحدّي الصّعاب، فالمأمول هو الباعث الذي ولّده الأمل فكرة حتى أصبح شيئا يتم بلوغه ونيله؛

---

[131] عقيل حسين عقيل، مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 105 . .113

ولأنّه مولود الفكر فهو للآملين مثل الوليد للآباء رعاية وعناية، وحرصا وعملًا جادا. تحشّد الإمكانات وتبذل الجهود من أجل بلوغه، ثمّ نيله والحفاظ عليه حفاظا على مولود من الأصلاب، دون أن يوقف الإنجاب من بعده؛ فالابن دائمًا في حاجة لأخوة، والآباء في حاجة للأبناء رحمة، وهكذا المأمول يتولّد من الفكرة والمشاهد مأمولا من بعده مأمول.

المأمول لا ينجبه الانتظار، بل ينجبه القبول بتحدّي الصّعاب والإقدام على تحديها، ومن ثمّ ينجبه الفكر المنظّم والعمل الجاد، وفي المقابل الانتظار لا عمل، ولا عمل يساوي نتيجة صفرية؛ ولهذا فالمأمول لم يكن المنتظر، بل المتوقّع كما هو. فإذا جعلنا المأمول منتظرا فلا داعي للعمل، فهو المتوقّع الذي حُددت الأهداف من أجله، وَوَضَحت الأغراض والغايات من ورائه، ورسمت الخطط والاستراتيجيات المؤدية إلى نيله.

ولأنّ المأمول لم يكن المنتظر؛ فهو أيضًا لم يكن المرتجى؛ فالمرتجى لا سبيل لبلوغه إلّا من خلال الغير الذي قد لا يستجيب لمطلب ولو توسّل المتوسّل، أمّا المأمول فلا انتظار ولا توسّل إلّا لله تعالى، إنّه الاعتماد على النفس والإمكانات المتاحة والتي يمكن أن تتاح إرادة ورغبة وضرورة.

والمأمول لم يكن الجهد المبذول، بل ما يبذل من الجهد من أجل نيله (إنّه المترتب على الجهد الذي أنتجه شيئا ملموسا) فالفلّاح على سبيل المثال: يحرث ويزرع وأمل الحصاد لا يفارقه، ولسائل أن يسأل:

لم لا يكون الحصاد مأمولًا؟

أقول: الحصاد جهد يبذل، وهو أمل الفلاح، أمّا مأموله فهو أن ينال إنتاجا وافرا. فإن كان وفيرا نال مأموله، وإن كان غير ذلك فسيكون موسمه درسا له لمواسم أكثر أملًا.

وعليه:

الأمل يحرّك الآمل ويدفعه، ونيل المأمول يطمئنه ويحفّزه على المزيد، فالآمل لا يقنط، والحياة الدنيا بالنسبة إليه مدرسة يجب أن يكون فيها ناجحا ومتميّزا إن أراد أملًا أعظم في حياة أعظم.

المأمول وإن صعب نيله فنيله ممكن، شريطة القيام بعملٍ موجبٍ، مع صبر على بذل الجهد والمثابرة، ثمّ تحدّي الفشل، مع العلم أنّ الفشل لا يكون إلّا بأيدي اليائسين، ولا يكون إلّا عن إرادة منهزمة لشخصية لا تقبل التحدّي، وهذا لا يعني: أنّ المأمول صعب المنال، بل يعني: فقدان العزيمة (تصميما وإصرارا) على حياة أفضل، والعزيمة لا تمنح، ولا تشترى، بل هي تستمدّ من العقل الذي يفكّر في أمره وتحسين أحواله وضمان مستقبله، وهذه لا تكون إلّا بيد العقلاء. فمن له عقل لا يليق به ألا يستثمره ويوظفه فيما يفيد شخصه ومن لهم علاقة به، فالذي اختار أمله غزو الفضاء، قد اختار الصّعب تحدّ، فبلغ الفضاء غزوا ومأمولا، ومن ثم ثبت لنا أنّ الصّعب لا يصمد أمام المتحدّين، أي: إنَّ الصِّعاب لا تستسلم إلّا على أيدي المتحدّين؛ ولذا فلم لا نتحدّى؟

المأمول مع أنَّه باعث خارجي (خارج الفكرة) لكنّه لا يكون إلّا خلقا أي: خلق (الشيء ولا شيء)، أو أنّ يكون مولود الفكرة، فعقل الإنسان لو لم يفكّر ما أنتج الفكرة، ولو لم يكن مستبصرا ما ولّد من المشاهد فكرة.

المأمول يتعدد ويتنوّع وفقًا للحاجة والمطلب، وهو لا يُبلغ إلّا عن إرادة وجهد يبذل مع القبول بدفع الثمن، وقد يكون المأمول خاصّا وفقًا للحاجة والشهوة وهو كثير، وقد يكون عامّا كونه مأمولا عظيما، وكلّ مأمول عام فيه منافسة، وقد يكون عليه الصراع، فرئاسة الدّولة مأمولة عند الكثيرين، والمنافسة الحرّة وفقًا للدستور وحدها الحاسمة، ولكن لا يمكن أن يكون رئيس للبلد إلّا فائزا واحدا. ومع ذلك البعض قد يحترم نتائج الدستور والبعض قد لا يحترمها،

فتنقلب المنافسة الحرّة إلى صراع دام، وهنا تكمن العلّة، وقد تحدث الانقلابات على الدساتير كرها، وهذه في معظمها أساليب لا تُحترم عند أهل الثقافة.

ولأنّ الانقلابات لا تكون إلّا كرها؛ إذ لا دستور، فهي تحمل عناصر فنائها فيها ممّا يجعل بعد كلّ انقلاب انقلابات.

والتعليم مثال آخر على المأمول العام: فهو مع أنَّه عامّ، لكنّه لا يكون على حساب أحد، وفيه يتنافس المتنافسون.

أمّا الفوز بالجنة فيعد المثال الأعظم للمأمول العام، ومع أنَّها مأمول عام، لكنّ بلوغها والفوز فيها لا يكون إلّا خاصّا؛ لأنّ نيلها نيل مكانة، مكانة تستوعب الجميع دون أن يكون أحد على حساب آخر. وهنا لا مقارنة بين مكانة رئاسة الدولة التي لا تشغل إلّا مفردة، ومكانة أعظم تستوعب ما خلق مأوى ونعيما ومتعة، قال تعالى: {يَا قَوْمِ اعملوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}[132].

ولهذا فالجنّة مأمول ولم تكن أملًا، فالأمل مولود الفكرة، أمّا الجنة فخلق الخالق، وهي متاحة لمن يشاء ويعمل من أجل نفسه ونيلها فوزا مع الفائزين.

ومع أنَّ المأمول عام (الجنة)، فإنَّه لا يتم نيله إلّا بجهد خاصّ؛ لأنّ العلاقة بين المخلوق المجازَى بها والخالق المجازي بها علاقة خاصّة.

أمّا إذا كان المأمول عامّا والمطلب أيضًا عامّا؛ فالمثال الذي يمكن سوقه افتراضا: أنّ دولة ما قد تمّ احتلالها من الأجنبي، ففي هذه الحالة لن يكون لمواطنيها مأمول إلّا تحريرها، ومن هنا يصبح المأمول العام مطلبا عاما؛ ولا أمل

---

[132] الأنعام 135.

للشعب كلّه إلّا تحرير وطنهم، فيعملون كلّ ما هو ممكن حتى يتحرر كما أملوه مأمولا.

وهناك ما يماثل هذه الأمثلة، من حيث إنَّ المأمول جمعيًّا والنوايا فردية، كالقيام بفريضة الحج المأمولة من المسلمين، غير أنَّ تأديتها لا تؤسّس إلّا على النيّة، وهذه لا تكون إلّا فردية وكأنَّ الفرد حاج بمفرده، فينوي بنفسه حجّا، ثمّ يتقدّم مع الحجيج لأداء الأركان الأخرى، ومن هنا يندمج الأنا في الذات العامّة.

ولسائل أن يسأل:

أين الأمل في هذه المثال؟

أقول: الأمل: تلك الحيويّة التي هيأت المسلم لإعداد العدّة استعدادا وتأهبا حتى قام بأعمال الحج وناله من بعد غاية.

والآمل: المسلم المقدِم على أداء فريضة الحج.

أمّا المأمول: القيام بالفريضة على أتم وجه.

فالحج مع أنَّه مأمول عظيم لدى المسلمين؛ لكنّه يعد عملًا يجب القيام به من أجل مأمول أعظم، (الجنة) حيث النعيم الدّائم. أي: إنّ المسلمين يميزون بين النعمة والنعيم؛ فهم يعرفون أنّ الدنيا بيت النعم المتعددة والمتنوّعة، وأنّ الآخرة بيت النعيم الدّائم. وللتمييز: النعم فيها الأذواق تتعدد وتختلف وتنقطع، أمّا النعيم لذة دائمة لا تنقطع، ولا يختلف عليها ولا يتخالف. أي: إنّ الجنة فيها النعيم بذاته، أمّا الدنيا فيها النعم تتحوّل فضلات. وهنا الفرق كبير بين النعيم لذة لا تنقطع ولا تنقص ولا تنتهي ولا يتعفّن نعيمها وما يترك زبالة تشمئز الأنفس من رائحتها النتنة.

وعليه: فإنّ المأمول المطلق: الفوز بنعيم الجنّة، أمّا ما دونه فهي مأمولات في دائرة الممكن؛ ولهذا فالمأمول هو: المقصود في ذاته دون سواه؛ ليتم نيله استجابة لأمل عن رغبة، سواء أكان نسبيا أم مطلقا.

المأمول لا يكون إلّا معلوما، والقصد إليه ثابتٌ، وإن أخذ العمر كلّه، فالمهم أن يبلغ وينال، فساعة نيله وكأنّه لم يقض ما انقضى من وقتٍ، وساعة نيله وكأنّه كان غير متوقّعٍ بالرّغم من توقّعه.

وعليه فالمأمول:

ـ لم يكن خيالا مجرّدا.

ـ نتاج العمل الجاد.

ـ يتم نيله والفوز به.

ـ يفتح آفاقا جديدة أمام الآملين.

وعلى الآملين:

ـ التفكير الجاد؛ حتى يولّدوا من الفكرة فكرة.

ـ التعلّم؛ حتى يتعلّموا كيف يتعلّمون.

ـ أنْ يرفضوا؛ حتى لا يكون الرّفض غاية.

ـ أنْ يتقبّلوا دون أن يكون التقبّل مذلّة.

ـ أن يحترموا حتى لا يصبح الاحترام جبنا.

ـ أنْ يتفهّموا ظروف الغير دون أن يجعلوا مأمولاتهم على حسابهم.

ـ أن يتكلّموا دون أن يصبح الكلام ثرثرة.

ـ أن يستوعبوا قبل أن تخلط الأوراق.

ـ أن يحاججوا كي لا تتسع دوائر التُبَّع.

نيل المأمول:

الأمل ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه بلوغ المأمول ثم نيله، والآمال هي المرجوة بلوغا ثم نيلا، سواء أكانت بحثا علميا أم عملًا أم أيّ مقصد من المقاصد المعلومة؛ ولهذا تحدد لها الأهداف لتكون مرشدة لمراميها.

فالآمال تحدّد لها الأهداف وفق الإمكانات المتاحة من قبل الذين يأملون إنجاز ما يمكن إنجازه علمًا أو معرفة أو بناء وإعمارا وصناعة مستقبل، وهي لا تكون محدّدة إلّا بعد وضوح رؤية تجاه ما يجب الإقدام عليه، ومن ثمّ فالصّراع بين بني آدم اختلافا وخلافا لن ينتهي بين البناة أملًا، والهادمين له انحدارا ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا مشتركة (قابلة للإنجاز)، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات يجب أن تُبلغ ارتقاءً، وآمال رفيعة يتم نيلها.

فالاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي له أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي للأهداف أن تحدّد وفقًا لأملٍ مشترك يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاءً.

ومن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة حيث لا أمل، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛

فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف ارتقاءً، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة؛ فالأمل الرّفيع يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاءً تذكّر؛ فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراضٌ، والغاية من ورائها القمّة مأمولة.

وعليه:

إنّ تحديد الآمال مثل تحديد الأهداف يُمكّن من إنجازها بنتائج وحلول موضوعية، ويوجّه الباحثين إلى ما يمكن إنجازه دون إضاعة للوقت أو الجهد، ودون أيّ إهدار للإمكانات، وهي تلفت الباحثين والعاملين على إنجازها إلى أهمية الموضوع أو القضية التي يأملونها ويضحّون من أجلها؛ ولهذا:

وضوح الأمل يؤدّي إلى وضوح الرّؤية.

ـ غموض الأمل لا يؤدّي إلى بلوغ المرضي.

ـ تحديد الأمل يمكّن من التدبّر.

ـ ولّد في نفسك وعقلك أملًا من ورائه مأمولات.

ـ تبيّن أملك قبل الإقدام على العمل.

ـ ثق أنّ الآمال تُنال؛ فلا تتأخّر عن العمل.

وإذا أراد بنو آدم عدم الجلوس على أرصفة البطالة والمتسوّلين فعليهم بصناعة الأمل وتوليد الآمال منه، ثمّ وجب عليهم حُسن التدبّر مع أخذ الحيطة

والحذر؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم، وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة ومن ثمّ نيل المأمول.

وفي المقابل لا ينبغي للعاطفة أن تجرّ أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من صنع الأمل والمشاركة في العمل المنتج، وكذلك لا ينبغي لبني آدم أن يضعوا أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، وتحقيق الأغراض الرّفيعة، وبلوغ الغايات العظيمة، ونيل المأمولات قمّة.

ولهذا؛ فالآمال ليست أمنيات، بل هي المرشد الحقيقي للباحثين في ميادين البحث العلمي، والسّاعين إلى الارتقاء مهنة وعلمًا ومعرفة وإنتاجًا وحرفة؛ ولهذا فلا يمكن أن تنجز المهام والأعمال والخطط والاستراتيجيات على أي مستوى من المستويات الفردية والجماعية والمجتمعية وأيّ مستوى من المستويات السياسية والاقتصادية والمعرفية ما لم تحدد لذلك آمال عريضة تحتوي أهداف قابلة للإنجاز ومأمولات قابلة لأن تصبح شواهد.

وعندما تُصنع الآمال، وتحدّد الأهداف، تصبح رؤية الآملين واضحة المرامي والأغراض، وفي المقابل من لا يتمكّن من صنع آماله وتحديد أهدافه أو رؤيته أو سياسته فلن يستطيع أن ينجز شيئا يمكن أن يكون على الأهميَّة المأمولة.

وعليه:

ـ الآمال العظيمة ليست أمنيات الكُسالى، فهي تحمل في أحشائها حيويّة تدفع تجاه نيل المأمولات الراقية.

ـ الآمال العريضة لا تصنع إلّا من قِبل الجادّين.

ـ الآمال لا يقودها إلّا آمل وإن استعان بمن استعان.

ـ الآمال تهدي الآملين إلى مأمولاتهم وترشدهم إليها مثلما تهدي المنارات سفن المبحرين.

ـ الآمال لا تتولّد في العقول إلّا من قِبل القادرين على نيلها أو الفوز بها.

ـ يعد تحديد الآمال خرقا لما كان يظن أنّه صعب المنال.

ـ يعد إنجاز أوّل أمل أكبر لبنة لبناء المستقبل المأمول.

ـ تحديد الآمال لم يكن غاية في ذاته، بل الغاية طي الهوة بين الآمل والمأمول؛ لأنّ بلوغ الغاية وطي الهوة يفتح آفاقا جديدة لتوليد آمال جدية لم تتولّد إلّا من بعد مأمول تمّ نيله.

ومع أنَّ في البداية تكون الصّعوبة، فإنَّ في النّهاية لا تعد استحالة؛ فالتعلّم بداية تواجهه المصاعب كما تواجه عمليَّة التذكّر والتدبّر والتفكّر والإبداع، ولكن نهاية الأهداف تنجز، والأغراض تتحقّق، والغايات تُبلغ والآمال تُنال.

ولأجل ذلك: ينبغي لنا أن نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، والأغراض وتحقيقها، والغايات وبلوغها، والمأمولات ونيها؛ فالأهداف تحدّد لتنجز أوَّلًا بأوّل، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها، ولهذا؛ فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي تحديد أهداف أهم من التي أنجزت، ثمّ من بعدها أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهمية إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ومن ورائها مأمولات أعظم،

ولهذا، لا ينبغي لأهداف الآمل أن تكون غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها ما يحقق الرفعة (نيل المأمول ارتقاءً).

ولهذا؛ فإنَّ قاعدة صنع الآمال وتوليدها مؤسّسة على وجوب نيل المأمولات، وإلّا لا داعي لصنعها وتوليدها؛ فكلّ ما نال بنو آدم مأمولا ينبغي لهم أن يكون من ورائه مأمول أهم، ثمّ من ورائه مأمول أكثر أهمية، ووراء كلّ مأمول غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية مأمولة.

وفي دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يصنع له أملًا، ولكنّه لا يعمل على نيله وكأنّ صنع الأمل هو المأمول في ذاته؛ وكذلك هناك من يصنع له أملًا ويعمل على إنجازه دون أن تكون له آمال عريضة من بعده، وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها، ولهذا؛ فالآمال ارتقاءً: ينبغي لها أن يكون من ورائها أغراض تكمن من ورائها غايات عظيمة.

إذن: ينبغي لبني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ أمل غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وألم، وهنا يكمن الانحدار علّة.

وعليه:

. إنّ تحديد الآمال ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه نيل المأمول.

. من يحدّد آماله غاية ليس له من نتيجة إلّا الفشل.

. توليد الآمال يولّد آمالا جديدة في عقول الجادّين.

ـ لا يولّد الأمل من الأمل إلّا ومن ورائه غرض، ومن وراء الغرض غاية من ورائها مأمول؛ ولهذا فكلّ غرض يتحقّق من ورائه غاية، وكلّ غاية تُبلغ من ورائها مأمولا يفتح آفاقا أمام مأمول أعظم.

ـ تصنع الآمال وفقًا لمتغيرات بيّنة، ولكن الآمل لا يقتصر عليها؛ فهناك من الآمال ما يصنع في دائرة غير المتوقّع بما يمكّن من إنجاز المفاجئ.

ولذا؛ فكلّما تمّ نيل أمل، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف آمالٍ من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهمية؛ فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاءً. أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاءً وتحقّقت له الرّغبة المرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاءً كلّما عملوا وفقًا لآمال يتم نيلها، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاءً، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين أملًا وارتقاءً.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة، ونيل المأمول رفعة فلا بدَّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النَّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه رفعة.

فالارتقاء معمار ينبغي له أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من ورائه آمال، ولكن في المقابل هناك من يهدّم المعمار رأسا على عقب، وهناك من

يهدّمه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا والهادمين له انحدارا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم آمالا قابلة لأن تنال[133].

تحدّي الصِّعاب يمكّن من بلوغ الخوارق:

تحدّي الصّعاب بحثٌ علميٌ غير مقولبٍ يتجاوز بالباحثين معرفة ما آلفته طرق البحث العلمي التي تصوغ فروضا يكون جزءٌ من المعلومة متوّفرا فيها وجزءٌ منها مجهولا، أمّا بلوغ الخوارق فهو تجاوز للمقولب بتساؤل: لِمَ لا يكون المتوافر بعكس ما هو عليه؟ كما تساءل نيوتن: لم لا تصعد التفاحة إلى أعلى بدلًا من سقوطها إلى أسفل؟ وبدأ في بحثه وتجاربه حتى اكتشف قانون الجاذبية إضافة جديدة تامّة كونها لم تستمد من نصف المعلومة المجهول، بل اكتشفت معلومة جديدة فكانت إضافة تامّة للعلوم والمعارف الإنسانية.

إذن: الخوارق بها يتمّ تجاوز المألوف والمحتمل في دائرة الممكن غير المتوقّع من خلال تحدّي العقل البشري للكوابح والمعيقات، وهي نتاج المقدرة الذهنية ذات الرؤية الثاقبة للمشاهد والملاحظ بغاية التعرّف عليه وعلى القوانين التي هو عليها وعلى الكيفية التي بها خُلق حتى التمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا.

ولهذا؛ فالخوارق تُصنع وتُبدع كونها على غير سابقة معروفة، فمن بلغها اختراقا (تجاوز للمألوف) وأظهر ما كان مجهولا أو مختفيا لحيّز المشاهدة والملاحظة فقد أضاف جديدا لميادين المعرفة الواسعة. فالخوارق لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولأنّها في دائرة الممكن فهي ستتولّد خارقة ومن بعدها خوارق. وما الاستغراب الذي يصاحبها أو المفاجئات التي تلاحق وجودها إلّا بسبب كونها لم تكن متوقّعة.

---

[133] عقيل حسين عقيل، الأمل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 152 . 160.

والخوارق تُصنع؛ لأنّها تأتي عن غير قاعدة، وعن غير معتاد ولا مألوف ولا متوقّع، ممّا يجعل علامات الاستغراب والاستفهام والتعجّب توضع عليها وعلى من اكتشفها أو جاء بها.

أمّا الصُّنع فهو إظهار ما لم يكن ظاهرا، أو إيجاد ما لم يكن بين اليدين موجودا، أو إظهار الشيء الظاهر على غير ظهوره إبداعا، أو استخراج الشيء من الشيء بطريقة أو أسلوب غير معتادٍ ولا مألوفٍ.

والصُّنع هو أن يتمّ الإتيان بما لم يسبق لأحدٍ الأتيان به، وهو نتاج التفكير المفتوح حيث لا سقف يحدّه ولا موانع تكبحه؛ أمّا الخارقة فهي بلوغ ما لم يكن متوقّعًا، والخوارق أعمال غير معجزة، أي: لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولكنّها غير عامّة فهي تحتاج إلى مقدرة عقليَّة تتجاوز بصاحبها ما يمكن تدبّره إلى ما يمكن بلوغه كونه لم يكن مستحيلا ولا معجزا. والخارقة تقود أصحابها فكرا إلى الإبداع الممكّن من معرفة ما كان مستغربًا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة تحدٍّ تقود إلى العمل المبدع، والعمل المبدع بداية قد يصفه البعض بالمستحيل بالرّغم من تحقّقه مشاهدة وملاحظة، فالهبوط على القمر، البعض كذّبه بداية، ولكنّه لم يصمد في تكذيبه؛ لكونه أصبح حقيقة لا تُخفى.

ومن ثمّ؛ فالصّعود إلى القمر يعد عملًا من أعمال الخوارق التي بإمكان العقل البشري أن يبلغ ما هو أعظم منه، فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المحقّق للخوارق وفقًا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا استغراب، ولا مفاجأة، بل الاستغراب ألا يرتقي عقل الإنسان إلى اقتناص الفكرة الممكّنة من الارتقاء وبلوغ الخوارق.

وهنا، أقول:

الجنّة بين أيديكم فاعملوا يا بني آدم من أجلها، فاغزوا الفضاء بكلّ الخوارق التي بإمكانكم العمل عليها والعمل بها، فبلوغ الجنّة غير مستحيل، بل المستحيل ألَّا تعملوا ارتقاءً من أجل بلوغها.

وهنا لا أقول مواعظ، بل لِمَ لا نتعظ، ونتدبّر أمرنا حتى نتمكّن من بلوغ الخوارق ارتقاءً؟ ومن يرى غير ذلك فكأنّه لم يُخلق بصيرا، وليس له من الحواس ما يمكّنه من خَلق الخوارق وتجاوزها بخوارق أكثر ارتقاءً؛ فمن يغفل عن ذلك فكأنّه قد غفل عمّا بنته الحواس وما ستبنيه من حضارات، فالتذكّر يربط العقل بما أنجزته أيدي النَّاس، وبما غفلت عنه، ليتدبّر حاضره، ويفكّر في مستقبل يستوجب رسم الخطط المِمكّنة من الخوارق في دائرة الممكن.

وعليه:

فالإنسان مؤهّل للارتقاءً عقلا وحسّا، فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلًا راقيا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ومن أراد أن يكون له شأن؛ فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائل، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائل؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي له أن يكون عليه ارتقاءً.

فالارتقاء حركة دؤوبة، يتحقّق عبر التّاريخ بالجهد الرّصين والعمل المتّصل، الذي منه تؤخذ العبر، وتستمدّ المواعظ، وتنقل التجارب النّاجحة شواهد؛ فالارتقاء لا يحدث فجأة؛ فهو مثل الوليد، يولد وهو في حاجة للرّعاية والعناية، ثمّ يكسب قوّة تدفعه إلى تحقيق ما هو أعظم، وهو كالبناء بدايته وضع حجرة على الأرض، ثمّ يصبح صرحا شامخا وكأنّه يريد أن يفتق الأرض بالسّماء

ثانية، فهكذا هو الارتقاء تطلّعا يجسّد الطّموح، ويمكّن من بناء حضارات أهلها يسودون ثمّ يفنون، وتبقى الحضارة تاريخا متكئا على الارتقاء علمًا وفكرا وقيما وفنا وثقافة وإعمارا وبناء.

ولأنّ التاريخ البشري مليء بالتّجارب النَّاجحة، وكذلك الفاشلة، فهو قد مرّ بنشوء حضارات سادت ثمّ بادت وحلّت محلّها حضارات أخرى، ففي تلك الأحقاب سادت حضارة عاد وثمود، ومن بعدها حضارات الغرب، وحضارة الفرس، وحضارة الإسلام والعرب، واليوم حضارات الشّعوب تتداخل لتسود القرية الصّغيرة، فهي بالرّغم من تنوّعها، فإنّها حضارة أمّة واحدة، إنّها تقدّر الخصوصيّة، وتُمكّن من الاندماج علمًا ومعرفة، وتقنية وإعمارا، وتؤكّد قيمة الإنسان في ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته وبكلّ شفافية.

ومع ذلك فالإنسان دائمًا في حاجة للارتقاءً؛ فهو يسعى من أجل حياة أكثر أمنا، وأكثر نعيما، وأكثر عدلا، وأكثر رفاهية ورقيّا، فقيمة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، تستوجب تقديرا عاليا، ورعاية صحية متقدّمة، وتعليما يخلّص من أيّ تأزمات تحدث، ونُظم تُمكّن من التمدّد بكلّ حرّية دون أن يحدث أيّ تماسّ مع تمدّد الآخرين بكلّ حرّية.

ولكن هذه لن تتحقّق ما لم يرتقِ الإنسان عن مثيرات الشّهوة، وإغواءات النّفس، ومغريات الحياة الدّنيا (السُفلية)، وتفضيلات الأنا على حساب الغير، وألا يتردّد، والخوف ضرورة من أجل مستقبل ناهض وسلامة وأمن يمكّننا من بلوغ الخوارق تحدٍ للحاضر بما هو أكثر جودة.

ولذلك؛ فالاختلاف لن ينقطع بين النَّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، ومن يراها لا تزيد عن كونها قيودا ينبغي لها أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة، ومع وجود الاختلاف،

فلا وجود لما يعيق ولادة الخوارق، بل الاختلاف هو المحفّز تحدٍ ومنافسة على ولادة المزيد من الخوارق تحدّ لكلّ الصِّعاب.

ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطّوفان، وهنا تكمن العلّة، وحتى لا تكون الأنانية القاتلة؛ فعلينا بتضافر الجهود والنّهوض معًا حتى نقضي على عوامل الشّد والتخلّف ونرتقي تقدّما ونهضة من بعدها نهوض مع أملٍ ناهض.

وحتى لا تكون العلّة نهاية المطاف فينبغي لنا بلوغ الحلّ الذي يحتوي في مضمونه قبول الآخر (هو كما هو)، والعمل معه (من حيث هو)، من أجل الارتقاء معًا إلى مستقبل مأمول، فالفرد وإن خُلق فردا فهو لم يُخلق وحيدا، ولهذا، لا ينبغي أن يفكّر وحيدا، ولا ينبغي أن يعيش وحيدا، بل ينبغي أن يفكّر حتى يعرف كيف يفكّر جماعيا، وأن يعمل مع الآخرين ارتقاءً بغاية ما يجب.

ولكي يتمكّن الإنسان من اتخاذ قراره عن وعي فعليه بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة قراره بقوّة اتخاذه، فقوّة القرار تكمن فيما يحقّقه من فوائد، وما يترتّب عليه من ارتقاءً مأمول، وما يحدثه من مفاجآت موجبة، ومن ثم؛ فاتخاذ القرار ارتقاءً يُمكِّن من إحداث النُّقلة.

ولأن صُنع الخوارق لم يكن مستحيلا فَلِمَ لا تُصنع باستمرار تحدٍّ للعقل بملكاته العقليَّة؟ فالعقل دائمًا هو مَكمن الخوارق، فمن بلغ عقله عقلا عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقّع فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

ولكن لكي تصنع الخوارق فهي في حاجة لمناخ مناسب حيث لا قيود على التفكير الإنساني ولا موانع ولا تخويف من أحدٍ، بل المكتبات مليئة بالمصادر والمراجع والدّوريات العلمية، وأنّ المقرّرات المدرسية والجامعية معدّة

على قاعدة كلّ شيء ممكن ولا استغراب، ثمّ أنّها تحرّض المتعلّمين على التحدّي وقهر الصِّعاب. وإلى جانب ذلك فالتحفيز يسرّع من إدارة العجلة تجاه التقدّم وإحداث النُّقلة وإيجاد ما لم يكن متوقعا.

وعليه:

. بلوغ الخوارق مُمكن فلا تستغرب.

. فكّر فيما تفكّر فيه حتى تبلغ خارقة.

. لا تستسلم للمتوقّع فقط وتغفل عن غير المتوقّع الذي يخرجك من زمن المفاجئات.

. لا تُوقِف تفكيرك عند حدود المألوف، فالتوقّف عند حدوده لا يمكّنك من بلوغ الخوارق إضافة معرفيّة.

. لا خارقة إلّا بمقدرة عقليَّة، فانتبه لنفسك ولما حولك ولما يجب حتى ولو تجاوزت المألوف بما هو موجب.

. الخوارق يتمّ اكتشافها بين الفجأة والانتباه، فانتبه واعلم أنَّ السّرحان مضيعة للوقت فلا تعوّد نفسك وعقلك الخوض فيه ضياعا.

. اكتشاف الخوارق أو بلوغها يُمكّن من معرفة قوانينها تاليا، أي: إنّ الخوارق تكتشف أوَّلًا ثمّ بعد الاكتشاف يتمّ التعرّف على القوانين التي هي عليها.

. معرفة الخوارق تمكّن العقل من التحدّي والبحث عن المزيد.

. معرفة الخوارق تحدٍّ للصّعب وقهره.

. معرفة الخوارق تمكّن من معرفة المعجز تسليما.

. معرفة الخوارق تمكّن من معرفة المستحيل والوقوف دونه مستحيلا.

. صُنع الخوارق لا يكون إلّا تجاوزا للقولبة والتمنهج وأساليب الرّتابة المملّة.

. صُنع الخوارق يظهر أو يوجد ما لم يكن ظاهرا أو موجودا معرفيا.

. صُنع الخوارق صور تُنتج على غير هيئة مسبقة.

. يعد استخراج الشيء من الشيء على غير مألوف خارقة عقليَّة.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يعوّد نفسه على الأخذ بالمنهج العلمي ويفضّل أن يتجاوزه معرفة بما هو أكثر تيسيرا حتى وإن كان نتاج وقته، وعليه بقبول الصِّعاب والعمل على تحدّيها حتى تُهزم[134].

كيف تتأهّب لتحدّي الصِّعاب:

التأهُّب مرحلة قيميّة متجاوزة لمرحلة التهيؤ وإعداد العُدّة والاستعداد، أي: إنَّها المترتبة عليها جميعًا فلو لم تسبقها إنجازا وتحقّقًا ما كانت؛ ولذا فالتأهّب قيمة تلفت الانتباه الفكري والعقلي لِما هو آتٍ أو متطلّع له بهدف تحسين الأحوال أو إحداث النُّقلة من مستوى قيمي أدنى إلى مستوى قيمي أعلى، وإذا لم يتأهّب الإنسان لصناعة مستقبله فلا يمكنه صناعته، ومن يتطلّع تأهّبا لما هو مأمول ويسعى إليه عملًا يبلغه غاية، وهنا يعد التأهّب التطلّعي مرحلة من مراحل الوعي الفكري والثقافي، فيها تمتدّ الذّات من حيّز التمركز على ذاتها، إلى مجال التطلّع تجاه الآخر الذي له من الخصوصيات التي تميّزه عن غيره، ممّا

[134] عقيل حسين عقيل، صنع المستقبل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 85 .
.118

يجعل الذات في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قادرة على نيل كلّ ما من شأنه أن يحقق لها الفائدة والمنافع.

فالتطلُّعيّة تعد منطقة وسطا بين الذاتية والموضوعية، وهي مجال النشاط الفكري والسّلوكي المتميّز عن (الذاتية) والمتميّز عن (الموضوعية)، ولكنَّه في الوقت ذاته مكوّن مشترك بين مقوّمات الذاتية ومقومات الموضوعية، ممّا جعله قاطعا مستقلا بذاته في خماسي تحليل القيم135.

وعندما تقتصر رؤى الشّخصية على مكوِّنات الذّات القيميّة، توصف بالذّاتية، وعندما تستوعب تلك الرّؤى وتستوعب إلى جانبها ما ينبغي لها أن تقوم به أو تفعله وتسلكه تجاه الآخرين، حينها توصف الشخصية في هذه الحالة بأنّها منطقية أو تطلّعية، حيث تتطلّع إلى ما هو أفضل وفقًا لافتراضاتها المنطقية لِما هو متوقّع أو مفترض، وبالتالي تقبل تحدّي الصّعاب التي تقف في سبيلها.

والمحذور الذي قد يظهر في هذه الشخصية المتطلِّعة، هو ليس كلّ ما يمكن أن يتأهّب له تطلعا يكون بالتمام على الحقيقة المتوقّعة؛ ذلك لأنَّ المتوقّع المتطلّع إليه تأهّبا بالضرورة يحتاج إلى زمن ومبررات الإثبات أو النفي؛ ولذا فإنَّ الأحكام التي ستثبته مؤجّلة، فإذا سلكتْ الشخصية أو فعلتْ أو حكمتْ وفقًا لافتراضاتها فقد تفعل أو تسلك خطأ؛ ولذا فعليها أن تنتظر إلى أن تتبيّن حتى لا يقع الخطأ.

وعليه: فالإنسان المتطلّع تأهّبا للحقيقة بمنطق قيميّ معرفي، هو في حالة تطلّعيّة، أي: إنَّه في حالة النُّقلة، من التمركز على الذّات والرّكون إليها إلى حالة الاتزان النفسي الذي يتفاعل مع قيم المجتمع وعاداته وأعرافه ومعتقداته، ثمَّ يتفاعل مع كلّ ما هو مفيد لدى الآخر، وليس بمنغلقٍ على ما يقصره دائمًا

---

[135] عقيل حسين عقيل، خماسي تحليل القيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004، ص 38.

على تراثه القيمي، بل هو من يكون في حالة امتداد موجب مع الثقافات والأفكار الإنسانية الأخرى، وفي الوقت ذاته لا يُفرِّط في خصوصيّته الذاتية التي جعلت له تاريخا وفيه ما فيه من الكنوز المعرفية والقيمية، ومن هنا فالشخصيّة التطلُّعية شخصية متأهبة ومتحدية لأمر الواقع عندما يكون ساكنا ولا فوائد.

وبعد أن كانت المغالبة في المستوى الذاتي للعاطفة في تقييم الآخر ومعتقداته وأفكاره وحضارته، بدأت المشاعر والأحاسيس الذوقية بالخوف تتهذّب تدبرا وتطلّعا تجاه ما يُفيد عند الآخرين دون إقصاء لأحدٍ منهم، إنّها الشخصيّة الاستيعابية المتأهبة لقبول الآخر أو مواجهته بأحكام ورأى منطقية.

إذن: التطلّعيّة تأهّبا هي الشخصية التوافقيّة، التي تستوعب قيم وفضائل (الذاتية) وتتفتّح بإرادة ومنطق على الآخرين دون أحكام مسبقة؛ وذلك لاعتمادها قيمة الحرّيّة في كلّ اختياراتها؛ فهي تتفاعل مع الحقّ والعدل والواجب والمسؤولية على مستوى الذات ومستوى الآخر، وعندما تتأهّب الشخصية لتجسيد هذا المفهوم التطُّلعي توصف بأنّها متطلعة ومتأهبة ومتحدية للصِّعاب وحجّتها الفكرية المنطقيّة.

ولذا؛ فعندما لا تسيطر العاطفة أمام العقل على الفعل والسّلوك بالتمام، يُفسح مجال جديد للعقل والنفس وتتأهّب منطقا بأن يكون التفكير فيما يجب، ممّا يجعل النفس تسعى لِما يُفترض أو تميل إليه، والميل هنا موجب، حيث التأهّب والتطلُّع للأفضل، الذي يحافظ على الهويّة والخصوصية، ويمتدّ من أجل أن يتعرّف على الجديد المفيد، ويسعى إلى الحصول عليه تحديا للرتابة المعتادة. وهذا لا يعني أنَّ كلّ تأهّب وكلّ ميل هو موجب، فعندما تتأهّب الشّخصية وتميل من حالة التمركز على الذات إلى حالة التخلي عن بعض من مكوناتها القيمية تصبح الشخصية على حالة من الانسحابية، فتوصف في هذه الحالة بالشخصية الانسحابية التي تتخلى عمّا يجب الأخذ به، وهنا يصبح التحدّي

سالبًا كون الشخصية أصبحت تتخلى عن بعض القيم الحميدة دون مبالاة، أي: أصبح التحدّي للقيم الحميدة تخليا عنها.

أمّا التطلع الموجب فهو الالتفات إلى ما يفيد علمًا ومعرفة ورؤية دون أن يكون على حساب قيم الذاتية، فتصبح التطلُّعية تأهّبا هي مرحلة من الوعي يُمكّن الذات من استيعاب دورها وما يجب أن تفعله مع الآخر، حتى لا يحلّ ما يخيف محلّ ما يجب.

ولأنَّ التطلّعية هي حالة تأهّب ووعي بالمحيط المعرفي والثقافي والحضاري، فهي تعد مرحلة نضج، به تتمكّن الشخصيّة المتطلّعة من الإلمام بالموضوع المشترك مع الغير كواقع لا مفرَّ من التعامل معه.

ولأنَّ (الذاتية) هي ما يدور من حوار بين الرغبات والمطالب، والحاجات والبواعث، والحقوق والواجبات والمسؤوليات في حدود الدّين والعرف والقيم السائدة، على مستوى المجتمع أو الدّولة، حيث ثبات الذّات وتغيّر الأدوار وتنوّع المواضيع، فإنّ التطلّعيّة هي درجة من الاعتراف بأنَّ للآخر رغبات ومطالب وحاجات وبواعث مشبعة، وحقوقا وواجبات ومسؤوليات ينبغي لها أن تُقدّر وتحترم، وإن لم تُقدَّر وتُحترم ستكون العواقب غير محمودة، ولذا فمن غير المنطقي أن يتمَّ تجاوزها أو إغفالها، كي لا تُمسّ ولا تؤخذ بما هو على حسابها.

وللتمييز بين المستويات القيمية للشخصية المتأهّبة أقول:

1. الأنانية: معيارها الشخصانية (أنا كلّ شيء).

2. الانسحابية: معيارها نفعي انسحابي (أنا أوَّلًا، وإلّا..).

3. الذاتية: معيارها العاطفة (نحن كلَّ شيء).

4 . التطلُّعيّة: معيارها المنطق (حُجّة بحُجّة).

5 . الموضوعية: معيارها العقل (نحن معا).

وعليه: عندما يخاف الإنسان من المظالم، يتأهّب للتمسّك بالقيم والمعايير الاجتماعيَّة التي تستنبط من الإطار المرجعي لمجتمع العاطفة، ويقدّر قيم الآخر ومعاييره، في هذه الحالة تعد ذاته في حالة تطلّعيّة، وعندما يتمسّك الإنسان بالقيم والمعايير الخيّرة بغض النّظر عن مصادرها، تؤسّس أحكامه على الموضوعية، وتُعد معاييره إنسانية؛ ولذا عندما تميل كفّة المعايير العامّة بمنطق على حساب كفّة المعايير الخاصّة، حينها تتأهّب الشخصية وتميل إلى الموضوعية فتوصف بالتطلّعيّة، وعندما تتأهّب وتميل إلى ذلك دون حُجّة ولا حقيقة، تصبح الشخصية في حالة ميلان إلى الأنانية.

ومع أنَّ المنطق يَفترض أنَّ النَّاس متساوون في الحقوق والواجبات والمسؤوليات، فإنَّ الواقع قد يُثبت غير ذلك، حيث نجد البعض من بني الإنسان في حالة إشباع، والبعض في حالة عوز، والبعض في حالة ادّخار بعد الإشباع، وآخر في حالة شُح، والبعض الأخر في حالة إيثار حيث يُقدِّم من هو في حاجة أو من هو أفضل على من هو أقل؛ ولذا فالشخصيّة المؤثرة، هي الشخصية المنطقية التي تميّز بين ما يجب وما لا يجب، وعندما تحتكم بالمنطق تقول الحقّ وتفعل صوابا مصداقا لقول الله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}136.

---

[136] . سورة الحشر، الآية 9.

وهنا فالشخصية المتطلِّعة لا تقتصر أهدافها وغاياتها على الظّرف الآني، بل تمتدّ منه تحدّيا لكل عوامل الشّد إلى ما هو مستقبلي، فتتأهّب للمغالبة وتميل إليها[137].

تحدّي الصِّعاب يرسّخ المكانة:

تحدّي الصِّعاب لا يكون إلّا بقبول دفع الثّمن جهدًا وعطاءً وعملًا جادًّا ومنتجًا، ومن يقدم على ذلك ينال مكانة بين النَّاس تقديرًا واحترامًا، والمكانة تبوء مقام على الرِّفعة المأمولة من أهل الدّراية والمعرفة، وهي ما يبلغ بالكلمة الحجّة والعمل المنتج والخُلق الرّفيع، وهي التي تنال التقدير والاعتبار من قِبل النَّاس، والنَّاس تأملها وتسعى إلى ترسيخها قيمة.

والمكانة لا تكون إلّا على الرِّفعة، ولا تترسّخ ارتقاءً إلّا بها، ومن ثمّ؛ فمن أراد أن يكون له شأن فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائلَ، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائلا فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي له أن يكون عليه ارتقاءً مأمولا.

ولكي يبلغ الإنسان مأموله قيما وفضائلَ فعليه أن يكون قدوة حسنة لبني جنسه، فإذا حكم عدل، وإذا شهد، شهد حقّا، وإذا عاهد أوفى، وإذا قال صدق، وإذا عمل أحسن عمله، وإذا تعلَّمَ علَّمَ، وإذا اكتال أوفى، وإذا رأى فتنة بين النَّاس أصلح، وإذا غضب تملّك نفسه، وإذا ذُكِر بخيرٍ فعليه بالمزيد، وإذا ذُكر بسوءٍ فليصفح وليعفو، وهنا بالتمام يكمن التحدّي الذي يجعل للإنسان مكانة مقدَّرةً بين النَّاس.

---

[137] عقيل حسين عقيل، الفاعلون من الإرادة إلى التأهب، مكتبة الخانجي، ص 262 . 267.

ولذلك؛ فالتمسّك بالقيم لكونها قيما لا يفيد، بل المفيد العمل بها قولا وسلوكا، ولهذا ينبغي أن يتشرّبها النشء تربية وتعلمًا وتعليما حتّى يجسدوها سلوكا؛ كما جسدها أهل المكانة.

فأهل المكانة هم دائمًا في علوٍّ قيمي قولا وسلوكا، علوٍّ عن الرّذيلة وما يؤدّي إلى ارتكاب أفعالها وأعمالها التي ترفضها القيم الحميدة والفضائل الخيّرة.

ولأنَّ الكبرياء تعظيم شأن؛ فهو لا ينال إلّا بالتحدّي لكلِّ معيب بما هو محبّب ومفضّل، وفي المقابل من لا يكون على الكبرياء قيما وفضائل لا يكون إلّا في دونية وسُفلية؛ ولهذا فالبعض من أجل الكبرياء يتحدّى الصِّعاب وفي المقابل البعض يقدّم المزيد من التنازلات حتى يصبح خاضعا لأمرٍ واقع.

إذن: المكانة والكبرياء تعظيم شأن؛ فالكبرياء كونه قيمة حميدة لتعظيم الشأن فهو الذي به يتمّ بلوغ المنزلة العالية والمكانة الرّفيعة، في مقابل آخرين لا ينزلون إلّا في الأماكن الدّونية التي لا تليق بأصحاب مكارم الأخلاق.

ومن بلغ المكانة العالية بلغ الرّفعة التي يأملها من خُلق في أحسن تقويم ولم يخالف، ومن بلغ المكانة عملًا وسلوكا نال الاحترام والتقدير والاعتبار من قِبل الغير؛ ولهذا فالمكانة تعظيم بما هو عظيم، ورفعة قدرٍ بما هو رفيع، فأهل المكانة يتّعظون بما هو عظيم ويأخذون العبر من كلّ عبرة ومعتبر.

ولذا؛ فأهل المكانة لهم من الكبرياء ما لهم، فأصحابها يتكبّرون عن كلّ ما من شأنه أن يسيء للقيم والأخلاق والأعمال والأقوال الصّائبة، فالكبرياء تعالٍ عن كلِّ ما يؤدّي إلى الفتنة، أو يسيء للنّاس، ممّا يجعل الكبرياء هو المحقّق لرفعة المكانة المقدّرة والمعتبرة، ويجعل لصاحبها شأن بما اختار أن يكون عليه تحدٍّ وبذوقٍ رفيع.

وعلينا أن نميّز بين قيمة التكبُّر والاستكبار؛ فالتكبّر قيمة حميدة لتعظيم الشأن بعدم النزول في منازل السّافلين، كالتكبّر عن القول الزّور وعن أيِّ نعوت لا حقائق تسندها، وهو التكبُّر عن الأفعال التي لا تليق بمكارم الأخلاق، وهو الإخلاص في العمل مع وافر الأمانة، وهو السّلوك المثال الذي لا يقدر عليه إلّا من له مكانة مقدّرة. أمَّا الاستكبار فهو الاستعلاء عن الحقيقة والجحود لمبرراتها ومعطياتها وهو معاندة بدون حُجّة دامغة، فالمستكبر يقف على الحقيقة ويغض النّظر عنها، بعدم اعترافه بأنّها الحقّ، مع العلم أنَّ هذا الأمر لا يُنقِص من شأن الحقيقة، بل يُنقص من شأن المستكبر عليها بغير حقٍّ.

وهذا يعني أن للتكبّر صفتين:

الصفة الأولى: هي التكبُّر بالحقّ، عن المظالم وعن الأعمال الوضيعة التي تقلِّل من شأن مرتكبيها، وهذه من صفات الذين يقولون الحقّ ويعملون على إحقاقه، أي: إنّهم الذين يتعالون عن المكر والكيد وسفك الدّماء في الأرض بغير حقّ وإذا حكموا بين النَّاس حكموا بالعدل، وإن قالوا صدقوا، وإن عملوا أصلحوا وإن عاهدوا أوفوا.

الصفة الثانية: التكبُّر عن الحقّ، بالحياد عنه والميل كلّ الميل إلى ما يؤدّي إلى إخفائه ومغالبته بالباطل، والمتكبّرون عن الحقّ همّ الذين يقومون بأعمال الوضاعة التي تقلِّل من شأن مرتكبيها، بما يقدمون عليه من أفعال لا تُرضي النَّاس، وهؤلاء همّ الذين إن قالوا كذبوا، وإن عملوا أفسدوا وإن عاهدوا أخلّوا ونقضوا.

وعليه: فإنَّ للتكبّر مبرراته؛ لكونه قيمة حميدة؛ ولهذا تُحرّف القيم وتقوّض من قِبل أولئك الذين ضلُّوا فافسدوا فظلموا فطغوا وتكبّروا كما طغى وتكبّر من قبلهم المتكبّرون بغير حقّ، ولكن دائمًا التَّاريخ يمدّ بالعبر فمن أراد أن يعتبر

فعليه بالتّاريخ لأخذ العبر منه، ومن لم يرغب في ذلك فالحاضر يكفيه درسا حيّا.

ولذا؛ فالمفسدون همّ الذين يتكبّرون عن الإصلاح، أمّا المصلحون أهل المكانة فهم الذين يتكبّرون بفعله، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[138]. إنَّ استكبار إبليس كان استكبارا عن الحقّ، أمّا تكبُّر الملائكة فكان تكبرا بالحقّ، وهنا فالسّجود يدلُّ ويُعَبِّرُ عن الطَّاعة وبلوغ المكانة الرّفيعة التي تؤمل من الخيّرين.

والمتكبّر بظلمٍ هو الذي يعرف الحقيقة ويأبى إظهارها، ولا يأخذ بها، أمّا المتكبّر بالحقِ فإن دعي لنقيصة تكبَّر عنها، وإن دعاه سائل استجاب وفق استطاعته، وإن لم يستطع فلا ينهر؛ ولذا فالتكبّر صفة محتملة للإيجاب والسّلب، فتكبُّر العبد عن ارتكاب المظالم وارتكاب المعاصي قيمة إيجابية، وفي المقابل ارتكابه للأفعال الذميمة والمفسدة في الأرض قيمة سلبية؛ ذلك لأنَّ الكبرياء لا يكون إلّا نقاء وصفاء مع الأنا الذي فيه كبرياء المخلوق ورفعة مكانته، والذّات التي فيها كبرياء المجتمع، وكبرياء الضّمير الذي فيه تُقدَّر الإنسانية؛ ولذا ينبغي للإنسان أن يتكبّر عن:

الجهل:

فالجهل أساس كلّ داء يصيب المجتمع الإنساني تخلّفًا؛ لأنَّ الجهل من شأنه أن يؤدّي بالإنسان إلى الانحطاط في أماكن الرّذيلة والمفاسد، والذين يتمسّكون بالجهل بأسبابه، فهم في حاجة لمنقذ يخرجهم من ظلماته إلى نور الإيمان والعلم والمعرفة التي بها يرشدون.

[138] البقرة، 34.

ولأنَّ الصّراع من البدء الخلقي هو صراع بين جهل وعلم (شرّ وخير)؛ لذا فبالعلم تتحسّن الأحوال وبالجهل تسوء، ولأنَّها كذلك فالصّراع بين الخير والشرّ لم يحسم أمره بعد؛ فهو باقٍ ما بقي الجهل في مضادة العلم؛ ولهذا فالذين يجهلون حقيقة أنّ استقرار أمن الوطن يكمُن في حقوق تمارس وواجبات تؤدّى ومسؤوليّات يتمّ حملها، لن يناموا ساعة واحدة نوما هادئا وهنيئا، والذين يعلمون حقيقة ذلك ينامون في أوطانهم نوما آمنا هنيئا بمشاركة النَّاس فرحتهم بالممارسة الفعلية للحقوق والواجبات والمسؤوليّات مع توسيع دوائر المراقبة والمحاسبة والمسائلة للجميع إذ لا قمّة سلطانية إلّا من الشّعب، ممّا جعل الحكّام في دول ممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي يختارون عن إرادة لفترة محدّدة دستورا، وهم بذلك يقبلون ولا يتجاوزون قرارات ودستور الشّعب قمّة؛ ولهذا لا وجود للمؤامرات ولا الانقلابات ولا المظالم التي تدور رحاها في أوطان التكميم.

الشهوات:

إنَّها الشّهوات التي خلقها الله تعالى فينا، ولكنّ البعض لم يحسن فهمها، وتهذيبها وضبطها والسّيطرة عليها، ممّا جعلها هي المسيطرة والقائدة للباطل والمفاسد، قال تعالى: {زُيِّنَ للنَّاس حبّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[139]؛ فالشّهوات متوافرة في الحياة الدّنيا، ولكنّ البشر تفاوتوا في التعلّق بها، فمنهم من اشترى الحياة الدّنيا بما تحويه من هذه الشّهوات، ومنهم من اشترى الآخرة بما فيها من خير عظيم وفوزٍ دائم، ولأنَّ الإنسان خلق ليكون إنسانا بحقّ في هذه الحياة الدّنيا، فلا ينبغي له أن يقصر شهواته على الدّار الآخرة كما لا يقصرها على الدّار الدّنيا؛ ذلك لأنَّ الخالق خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ ليكون وارثا في الدّارين، ولهذا لا ينبغي للإنسان

[139] آل عمران 14.

أن ينسى نصيبه من الدّنيا، ولكن لا ينبغي له أن يتجاوز الحدود القيمية والفضائلية التي أقرَّ لها الخالق حدودا، ليكون فائزا في الدّارين.

وعليه: نلاحظ عندما تبدأ الدّعايات الانتخابية في أوطان المتقدّمين علمًا وثقافة تُكشف الأوراق من قِبل الجميع حتّى لا يكون الرّئيس المنتخب متّهما بارتكاب المفاسد الأخلاقيّة والسياسية والاقتصادية؛ ولهذا يكون الاختيار بين الأفضل ومن هو أفضل منه، والأقدر والأكثر مقدرة، أمَّا في بلدان الغير فغير ذلك، الحاكم يورّث حكمه أوّلًا لأبنائه، وإن لم يكن له أبناء فلإخوته، وإن لم يكن له إخوة فالأقربون الأقربون، وهكذا حتّى بلوغ القبيلة والعصبيّة.

إذن: عندما يقبل الإنسان أن تسيّره الرّغبة فبصيرته تعمى وتقوده نحو الانحطاط؛ لذلك لا بدَّ للإنسان من الترفّع عن هذا الانقياد الأعمى للشّهوات، ورفض سيطرتها عليه، وأن يتكبّر عن هذه المفاسد المدمّرة، فبتكبّره الإيجابي هذا سينال المنزلة الرّفيعة والمكانة العالية، وسينال احترام نفسه واحترام النَّاس من حوله، فالشهوات عندما تجعل الإنسان عبدا لها لا يملك لنفسه شيئا أمامها سوى الضّعف والوهن والقبول بالانقياد أمام ما يشبع الشّهوة ولو كانت مفاسد بيّنة[140].

ولأنَّ أمر المكانة متعلّق بالرّفعة وتحقيق الأمل فمن يبلغ المكانة بلغ الأمل الذي لم يبلغه الغير، ومع ذلك وراء كلّ مكانة مكانة لآمال أرفع[141].

---

[140] عقيل حسين عقيل، تقويض القيم من التكميم إلى تفجّر الثورات، ص 60 .
.66

[141] عقيل حسين عقيل، منابع الأمل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 131 .
.138

تحدّي الصِّعاب يُكسر القيود:

القيد ما يعيق الحركة الحرَّة، ممّا يجعل المتحرِّك في حالة عدم توازن، وهنا لا أعني به قيد الحيوانات، بل أعني به قيد الحرّية، إنّه القيد الذي لا يكسر إلّا بالتحدّي، والقيد الذي ينبغي أن يتمّ تكسيره هو ذلك القيد الذي أنتجته المظالم والإقصاءات التي تحرم البعض من ممارسة حقوقهم بإرادة، وهو نتاج تلك الإجراءات التي تغيّب العدالة وتُقَوِّيض الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، وتُمكّن البعض من الهيمنة على ممارسة السّلطة واحتكار الثروة في مقابل حرمان البعض منها.

ولذا؛ فكلّ ما يُقيّد حرّية الإنسان يعد قيدا (فينبغي أن يُكسّر)، ومثل هذا القيد لا يكون إلّا بعلل أفعال المظالم وأعمالها، ومن ثمّ: يعد القيد استثناءا، في مقابل القاعدة التي لا ترى الإنسان إلّا حرّا. ولهذا؛ فكسر القيد يدعم القاعدة ويقوّض الاستثناء.

والقيد مع أنّه مولود الفكرة، فإنَّه لا يعد قيمة، بل الذي يعد قيمة ومنبعا لتحقيق الآمال هو كسر القيد؛ ومع ذلك لو لم تكن الفكرة ما كان القيد؛ فالإنسان عندما لم يستطع ضبط نفسه عن إرادة، فكّر حتى أوجد قيدا لضبطه، وبعد أن قُيّد به، بدأ يبحث تفكيرا في كيفية فكّه وبكلّ ما يتيسّر له من حيل، ومع ذلك بقيت حياته بين القيد وفكّه؛ ولذا فإذا أراد الإنسان الحرّيّة بلا قيود فعليه أن يقبل التنازل عن عقله كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنّه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنا، وهكذا إذا أرد الاثنين معا فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية:

(كل أ ليست أ)

فنحن بني آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا المحلّل والمجرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قف وسر)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ؛ فإن لم يقيّد الإنسان نفسه عقلا، سيجد نفسه مقيّدا من قِبل الغير، بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنّ السّجن هو السّجن فإنَّ تدبّرا إن وَضع الإنسان نفسه في قيد عقله فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرها؛ فهل يمكن له أن يكون على شيء من الإرادة؟

وإذا سلّمنا أنّ العقل الإنساني هو الذي يقيّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاءً؟

لا شكّ أنّه سيكون قادرا إذا قبل التوقّف عند حدوده، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير، ولكن إن تمدّد؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدًا لا أملًا.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل الأبوة والأمومة قيدان أم أنّهما منبعا ولادة الإرادة الحرّة؟

الأبوّة والأمومة منبعا إشباع العاطفة، وهما المأمولان في الذّاكرة الإنسانية، وهما مكمن ولادة المحبّة، وهما الحضن الدّافئ للأبناء، وهما القيد الذي لا ينبغي كسره قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[142].

[142] الإسراء 23، 24.

ولهذا وجب طرح السؤال: هل (لا) تعد قيدًا أم أنّها مجرد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

لقد ورد معنى (لا) في الآية السّابقة نهيا قاطعا: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) أي: لا حرّية لك في أن تقول لوالديك (أفّ)، وهذا يعني أنّها قيد، وفوق ذلك فهي تعني: ليس لك إلّا القبول. وليس القبول فقط، بل يجب أن تقول لهما قولا كريما (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) بمعني: لا مجال للرّفض إلّا القبول، وفوق التقبّل أن تقول لهما: (قَوْلًا كَرِيمًا)، وفوق القول الكريم أن تخفض لهما جناح الذّل من الرّحمة: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)، وفوق ذلك أيضًا أن تسأل الله أن يرحمهما: (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا).

إذن: تعد (لا) قيدا يستوجب الاحترام والتقدير بعد الأخذ بما نهت عنه، ومع ذلك لا يعد القبول مطلقا، وفقًا لكلّ قاعدة استثناء، والاستثناء جاء في قوله: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}[143].

ولأنّ (لا) ناهية وقاطعة؛ فهي ناهية لما تنهى عنه استثناءا، وبمراجعة النهي السّابق نلاحظ أنّها تنهى عن معصية الوالدين، وتوجب طاعتهما، وفي هذه الآية نلاحظ أنّها تنهى عن طاعتهما في معصية أمر الله النافذ: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) ومع أنّه لا يجب طاعتهما في أمر المعصية، ولكن يجب مصاحبتهما في الدّنيا معروفا حتى وإن ارتكبا فعل المعصية: (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا).

[143] لقمان 15.

ومن ثمّ؛ فالتساؤل: هل (لا) تعد قيدا، أم أنّها مجرد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

إنّ (لا) الملزمة غير ملزمة، أي: إنّ (لا) التي يكون أمر نهيها ملزما، فأمر نهيها لا يكون إلّا استثناءا، بمعنى: لو لاحظنا أمر الأبوة والأمومة للاحظنا أنّ القاعدة هي: طاعة الوالدين، والاستثناء هو عدم طاعتهما، ولأنّ لكلّ قاعدة ما شذ عنها، فمن لا يطيع والديه يعد قدّ خرج عن القواعد القيمية المقدّرة، وبالتّالي يجب أن ينهى عن الخروج عنها، إلّا استثناء بعلل المخالفات المنحرف أصحابها.

ولهذا؛ فدائمًا (لا) النّاهية لا تأتي إلّا استثناءا، ولأنّها لا تكون إلّا استثناءا فهي قيد لا يجوز إلّا استثناءا. ومن هنا، تعد (لا) قيدا لا يكون إلّا في وجوبه (وفقًا للقاعدة)، وفي المقابل، من يستخدم (لا) في غير وجوبها، ينبغي أن تكسّر حتى لا تكون عائقا بين الإنسان وما يمكّنه من بلوغ الآمال التي تحقّق له الرّفعة والمكانة.

أمّا التساؤل: هل الدّين قيد أم أنّه منبع قيم ممارسة الحرّية؟

أقول:

الدّين هو المغذي للقلب (طمأنة وسكينة)، والمغذّي للرّوح (أخذا وتجنّبا ونهيا)، والمغذّي للذاكرة بما يجب أن تكون عليه (تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا)، وهو ما لم يخالف الطبيعة الخَلقيّة لبني الإنسان، من أجل تطابق العلاقة بين الأمل والدّوافع الممكّنة من بلوغه؛ ذلك لأنّ قواعد الدّين كلّ شيء مشاع لك أو لغيرك (للإنسان أو لغيره من المخلوقًات الأخرى)؛ ولهذا فما يحرّم على الإنسان لا يحرّم على غيره من المخلوقًات سواء المحللة له أو المحرّمة عليه، ولا قيود على

المحلل، بل القيود على المحرّم والمجرّم، فآدم عليه السّلام وزوجه اللذان خلقا في الجنة، خُلق معهما كلّ شيء من أجلهما مشاعا، أي: كلّ شيء نافعٍ لهما لا قيود عليه، ولكن القيود النّاهية جاءت على كلّ ما يضر أو يترك ندما وألما، وهذا ما لم يعرفه آدم وزوجه {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[144]، ومن هنا: جاءت الاستثناءات جنبا إلى جنب مع كلّ قاعدة.

وعليه: فإنّ المشاعيَّة هي القاعدة، أمّا النهي فهو الاستثناء؛ ولذلك فالمؤمنون يأملون بلوغ مجمع النعيم المشاع (الجنة)، أمّا الاستثناء فلا يكون إلّا بعلل الشذوذ عن القاعدة.

ولأجل ترسيخ القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة وتبيان ما يجب وما لا يجب جاءت القوانين؛ لتنظيم العلاقات، أقصد بالقوانين تلك القوانين المشاعة، التي ترسّخ الإنسان قيمة، حيث لا يُحرّم عليه شيء هو حقّ له، ولا ينهى عن أداء واجب ينبغي أن يؤدّيه، ولا عن مسؤولية تُحمل يجب أن يحملها ويتحمّل ما يترتّب على حملها من أعباء.

ومع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه لم يُخلق على الكمال، حيث لا كمال إلّا للخالق؛ ولهذا فمن يرى نفسه على الكمال فقد خرج عن القاعدة وأصبح استثناءا، وهنا يجب أن ينهى بأمرٍ وقانونٍ يجعله يتمددّ بحرّية إلى النهاية التي لا يكون فيها تمدّده على حساب تمدّد الآخرين.

والسؤال: هل القانون قيد أم أنّه نصوص لفكّها؟

أقول:

فلسفة القانون تمنح الإنسان فسحة التمدّد بحرّية حتى حدود الآخرين بلا تجاوز، أي: إنّ التمدّد هو المشاعيَّة، وفي المقابل الانكماش أو التجاوز هو

[144] البقرة 35.

الاستثناء، بمعنى لا ينبغي لك أن تتمدّد إلّا في مجالك الواسع، ولا ينبغي لك أن تتمدد على حساب تمدد الغير؛ والهدف من ذلك هو: وجوب التمدّد وهذه قاعدة، أمّا الانكفاء فهو الاستثناء بعينه.

ولأنّ المجتمع البشري متضاعف الأعداد، ومتنوّع الرّغبات، وحاجاته متطوّرة وفي المقابل مشبعاتها بين كثرة وندرة وانعدام فهو بين هذا وذاك أصبح مضطرا لتنظيم علاقاته، وضبط أعماله وأفعاله وسلوكياته، وتنظيم حياته؛ ممّا دعاه إلى سنّ القوانين الضابطة لذلك، ولكن أيّة قوانين؟ هل هي فاتحة الآفاق لممارسة الحرّية، أم أنّها المقيّدة لمن يأمل ذلك؟

القانون وفقًا للقاعدة الطبيعية لا تقييد فيه؛ ذلك لأنّه موجد التوازن والاعتدال؛ ولذا فمن لا يتوافق مع قوانين الخالق (القوانين الطبيعية) يجد نفسه منحرفا عن غير اعتدال، ثمّ منعوتا بالشّذوذ عمّا يجب من قبل المتوازنين قانونا؛ ولهذا فالقوانين الطبيعية متلائمة مع طبيعة المخلوقّات كونها خالقة التوازن والاعتدال، أمّا القوانين الوضعية فهي بين توافق عن إرادة وتكيف لا يكون إلّا بقبول تقديم المزيد من التنازلات.

ولذلك؛ ووفقًا للقانون الطبيعي فإنّ كلمة (قف) تعني الاعتراف بوجودك وتقديرك واعتبارك، ولكن إن لم تقف عند حدّك الذي هو حقّ لك فستواجهك الصّدمة التي قد لا تكون متوقّعة من قِبلك، وهنا تكمن علّة التمدّد على حساب تمدّد الآخرين، فكلمة (قف) تدلّ على الإنذار ليس إلّا، ممّا يجعل الوقوف هناك عند نقطتها بلا مظلمة.

ومن خلال معرفتنا العامّة يقال: إنّ الإنسان خطّاء، ولكن بالمعرفة العلمية من الذي سيخطئ؟ هل هو الإنسان العاقل، أم غير العاقل؟

أقول:

العاقل هو المعرّض للأخطاء، أمّا غير العاقل فخطؤه أمر طبيعي. وبما أنّ العاقل هو الذي يخطئ، إذن: الذي يفكّر قد لا يخطئ، بمعنى: لو فكّر العاقل في النتائج المترتّبة على الموضوع الذي يفكّر فيه، قد لا يخطئ، أمّا غير العاقل فهو (الحرّ) الذي لا يعرف الخطأ، وحتى إذا اتهم به نال البراءة من رؤوس العدالة.

ومن ثمّ متى ما انحرف العاقل عن قيد عقله تحرّر من اتجاهه، وإلّا هل هناك من يقول: نحن لم نخلق بعقل، ولم نسجن به؟

أقول:

نحن الذين خلقنا بعقل، ونحن الذين سجنّا به.

إذن: فالسّجن ليس الجدران والقضبان، بل العقل الذي يفكّر؛ ولهذا كلّ من لا يفكّر حرّ بطبعه.

والسؤال:

هل العقل قيد (سجن) في حدّ ذاته أم أنّ القيود خارجة عنه؟

إذا أجبنا بأنّ القيود خارجة عنه قد نسأل: لو كان الإنسان غير عاقل؛ فهل يمكن أن يفكّر في وضع قيود عليه؟ فإذا كانت الإجابة بلا، إذن الإنسان العاقل هو الذي قيّد نفسه. وهو الذي نقل لنا ما في ذهنه من موانع إلى صور وأشكال مادّية سُميت (السّجون) المحاطة بالجدران والقضبان الحديدية والحراس المزودين بالهراوات والأسلحة الحديثة.

ولأنّ الإنسان العاقل قد يتهرّب من ضميره كضابط عام وضع لنفسه قانونا لضبطه، وشرطيّا يقبض عليه متى ما خالف ذلك، وبعد تنفيذ القانون عليه، أحس الإنسان الذي أوجد القانون أنّه قد وضع على نفسه ضميرا ورقيبا

خارجا عنه وقيدا عليه، فبدأ يفكّر في كيفية خداعه والتهرّب منه، ممّا جعل العلاقة بين الشّرطة والمواطن الذي تنازل عن ضميره علاقة عدم ثقة ومطاردة؛ ولهذا لم يؤت الإنسان من العلم إلّا قليلا، ولو أُوتى علمًا كثيرا لعرف أنَّ التنازل عن الضّمير هو تنازل عن العقل والحرّية؛ ولذلك لم يتطوّر إلّا بالقليل؛ فالإنسان الذي ولد كغيره من الكائنات الأخرى يصرخ متى يشاء ويصمت متى يشاء، ولد حرّا، ومع أنّه حرّ لكنّه لا يستشعر الحرّية، لكونه لم يدرك معناها بعد، حيث عدم نضج العقل الممكّن من معرفة الحرّية وكيفية ممارستها قانونا طبيعيًّا أو وضعيًّا.

وهكذا هي الحياة لا تكون إلّا على قوانين، ولأنّ الحياة مؤسّسة على القانون فلا يمكن أن يكون القانون قيدا إلّا إذا كان القانون استثناءا.

وبناء على ذلك؛ فللمتسائل أن يتساءل: هل الزّواج الطبيعي هو قيد أم أنّه دليل شاهد على المشاركة محبّة ومودة؟

أقول:

الزواج قيمة حميدة تحقّق الرّضا متى ما كان الزّواج غير متخالف مع قوانين الحياة الطبيعية، وفي المقابل يفقد الزّواج قيمته الحميدة إذا حاد عنها، وأصبح على حسابها استثناءا.

وعليه: فالتساؤلات التي تحمل في مضمونها قيدا لا تكون قيودا إلّا في حالات الاستثناء، وهنا لا تكمن العلّة في القوانين الطبيعية بل تكمن العلّة فيمن لا تكون اختياراته وفقًا للقواعد الطبيعية التي تأسّست عليها طبيعة الخلائق. وهذه النتيجة تحتوي كلّ التساؤلات الآتية:

هل الدّين قيد على الحرّية، أم داعم لها؟

هل القانون قيد على حرّية العقل أم لا؟

هل الأمومة والأبوة والمجتمع قيود على حرّية العقل أم لا؟

هل كلمة لا قيد على الحرّية أم لا؟

هل السّجون قيد من أجل الحرّية أم قيد عليها؟

هل الحكومة قيد على المحكومين أم لا؟

وهل يمكن أن تتحقّق الحرّية إذا اعتبرنا هذه قيود؟

وبناء على هذه الأسئلة، أتساءل:

متى ستتحرّر عقول النَّاس من التفكير فيما يُقلق وينتج ألما؟

لا إجابة إلّا بالعقل الذي يفكّر ويتذكّر ويميّز بين الحقّ والباطل الذي لولاه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولولاه ما استعملنا كلمتي (قف، وسر)، ولا كلمتي (لا، ونعم) فهذه الكلمات هي التي تنتج قولنا: (نعم) لما نريد، (ولا) لما لا نريد.

وعليه: ينبغي للإنسان أن يكون في عقله لكي يكون حرّا، وإذا خرج منه سيوضع فيه من قبل الآخرين بالقوّة، وعليه أن يفكّر، ولكن إذا كان العقل سجنا فهل سيحقّق تطوّرا؟

السّجن منه الانفرادي والجماعي والاجتماعي؛ ولهذا في الدّول التي تهدف إلى التقدم لا يسجن المجتمع، بل يسجن الأفراد والجماعات الذين يحاولون إعاقة حركة المجتمع إلى التطوّر، أمّا في الدّول المتخلّفة فيسجن المجتمع بكامله تحت الأوامر والنواهي التي تعيق حركته إلى التطوّر، ممّا يجعل دور المدرَسة ليست مدرسة، ودور المدرس ليس بالمدرس، ودور الواعظ ليس بواعظ، وخطيب الجمعة ليس بالخطيب، وشيخ القبيلة ليس بشيخ، ورئيس الحكومة ليس بالرئيس.

ومن هنا، فالعقل الذي يحقّق التطوّر هو العقل العام، والعقل العام هو عقل المنافع الفردية والجماعية والمجتمعية، أمّا العقل الذي لا يفكّر في محيطه؛ فهو في دائرة الاستثناء؛ ولهذا لا يحقّق التطور.

وإذا عُدنا مرّة ثانية للإجابة عن السؤال السّابق كيف يكون العقل سجنا ويحقّق التطوّر؟

أقول:

إذا سلمنا أنّ العقل هو الذي قيَّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فك قيده؟ وفي كلّ الأحوال إذا كانت الإجابة بنعم، هل يمكن أن يعيش الإنسان الحرّية ويمارسها بكامل عقله وفي الوقت نفس يكون على الإرادة والأخلاق؟

في اعتقادنا الإنسان بطبعه يغضب ويطرب، ويقبل ويرفض، وله حدود وفسحة امتداد، ومع ذلك قد يصعب عليه الالتزام والتوقّف عند الحدود، ولأنّه من الصّعب الالتزام بها، إذن: فمن الصّعب ألا يسجن؛ ومن ثمّ يتأكد لنا بأنّ العقل سجن وعلينا احترامه لكيلا نسجن.

ومع ذلك لا يمكن أن يضع الإنسان القيد في عنقه بإرادة إلّا في حالتين: حالة الانتحار، وحالة فقدان العقل. وفي كلتا الحالتين هو في حاجة لمن يكسر القيد عنه حتى ولو كان بقيد آخر.

ولذلك؛ ينبغي للقيود المكبّلة لممارسة الحرّية أن تكسر؛ كونها شذوذا عن القاعدة الخَلقيّة التي خُلق الإنسان عليها في أحسن تقويم. أي: ينبغي كسر القيد الذي وضعه الحاكم الظّالم في رقاب المحكومين؛ ولهذا فالمساءلة ضرورة موضوعية تعيد المنحرفين عن انحرافاتهم سواء أكانوا حكّاما أم محكومين، ولكن نلاحظ في الوقت الذي فيه يخضع طرف إلى هذا الإجراء من أجل ممارسة الديمقراطية في الوقت ذاته يخرج طرف آخر عن مراقبتها وهنا تكمن العلل.

والمعادلة التي قد تحتاج إلى ضبط وإلّا سيختل التنظيم الاجتماعي هي أنّ الشّعوب في زمن ما قبل العولمة كانت غير قادرة على السّيطرة على الحاكم، وبالتالي كان الترحيب حارا من قبل شعوب الدّول النامية بتنظيرات العولمة التي يعرفون أنّها سَتُمكِّنهم من كسر القيد بالقيد، أمّا في الزَّمن الذي ستزدهر فيه العولمة ستكون المعضلة كيف يمكن للحاكم أن يضبط الشّعب من الانفلات بعد أن فُكت قيوده التي من الصّعب أن يقبل بالعودة إليها؛ ولذا قد تتدخل قوَّة خارجية من جديد تحت مبررات من أجل ضبط النظام واستقرار الأمن، وهذا ما سيكون متوقّعا إذا انتصر اليمين في أوروبا تمشيا مع انتصار الرّئيس الأمريكي دونالد ترامب، مع أنّ رأينا يتوقّع غير ذلك، أتوقّع أن يغيّر الرئيس ترامب آراءه، وأنَّ اليمين لن يتبوأ السلطان، وأنّ الأمر في أوطان العالم الثالث يحتاج إلى مزيدٍ من الوقت، مع إتاحة الفرصة للتقليل مما يؤلم، ولكن التقليل فقط.

إذن: إذا أريد للعولمة النجاح فينبغي لها أن تكون مؤسّسة على كفتي اعتدال الميزان، الحرّية الشّخصية وفقًا للقيم الاجتماعيَّة والإنسانية في مقابل حرّية السّوق؛ وإذا لم يؤخذ ذلك في الاعتبار، فإنّ نظام السّوق سيكون قيدا بالضّرورة؛ ولذا فإن لم يحسم هذا الأمر سيكون الصّدام بين من يحاول أملاء شروطه والرّافضين لها.

وبما أنّ الأمر لم يُحسم بعد فإنّ الحوار على العولمة هو اللغة السائدة اليوم، وهذا الحوار سيترتّب عليه صدام وصراع إن لم يتمّ الإجماع على القبول أو الرّفض أو الانتظار، ومن هذه الصراعات المحتملة.

ـ الصّراع بين المواطنين كأفراد عندما يحسّ كلّ منهم أنّ الآخر هو قيد على حرّية ممارسته للديمقراطية.

. الصّراع بين المواطن الفرد والحاكم عندما يشعر المواطن بأنّ الحاكم يُشكل قيدا عليه وعلى ممارسته الحرّية، أو عندما يشعر الحاكم أنّ المواطن غير مكتف بما أعطى له من هامش للامتداد.

. الصّراع بين المواطن الفرد وأداة الحكم، عندما يحس الموطن أنّ الأداة الحاكمة تحتكر السّلطة ولا تسمح له بأن يمارس حقّه مشاركة.

. صراع المواطن كفرد مع الدّستور والقوانين والنّظم عندما تصاغ بغير إرادة.

بناء على هذه النقاط المسببة للصّدام آجلا أم عاجلا جاءت تنظيرات العولمة لكسر قيودها، بهدف تحرير المواطن بناء على ضمانات حقوق الإنسان، فمن حقّ الإنسان أن يكون حرّا، ويمارس الدّيمقراطية بإرادة؛ ولذا يجب فكّ القيد عنه بإرادة، وإن لم يُفك بها يجب أن يُكسر بالقوّة. وكلمة يجب أن يُكسر بالقوّة تعني فيما تعني: وضع القيد في عنق من لا يودّ فكه بإرادة، ومن هنا تتولّد الصراعات التي منها:

. صراع الضّمير العام مع الأنا:

عندما تفلُت الأنا من ضوابط الذّات التي تشكّل قيدا عليها، يتدخل الضّمير العام كحكم بينهما بالنواهي والضوابط التي استمدّها من الفضائل الخيرة والقيم الحميدة، وهذه الضوابط بالنّسبة إلى الأنا تُعد هي الأخرى قيودا إن لم تفكّ فلا بدَّ أن يتمّ التحايل عليها وعدم الالتزام بها.

. صراع الضّمير العام مع الذّات الجماعية:

الذّات الضابطة للأنا في كثير من الأوقات هي في حالة صدام معها؛ ولأنّها ذات جماعية بشرية فهي الأخرى تحيد في بعض الأحيان عن ضوابط الضّمير العام، الذي تعده الذّات سندا لها عندما تكون في حالة صدام مع

الأنا، وفي ذات الوقت تعده قيدا عليها عندما تحاول الانفلات والانحراف، وذلك بمتابعته لها في كلّ أمرٍ، فكلّما قرّرت الانفلات منه يحدث الصّدام معها.

وإذا تساءل البعض: متى يحدث الصّدام بين الضّمير العام للمجتمع وبين الضّمير العالمي (ضمير حقوق الإنسان والحيوان)؟

تجيب العولمة عن ذلك بالنقاط التالية:

أ. عندما لا يستوعب الأنا الآخر.

ب. عندما لا تمارس الدّيمقراطية بإرادة.

ج. عندما لا تفتح البلدان كميادين ليمارس السّوق نشاطه فيها بحرّية.

د. عندما لا تكون الأديان والأعراف قيودا على من لا يُشرِّعون بها.

هـ. عندما لا يتمّ الحفاظ على البيئة.

ع. عندما يحاول البعض صمّ آذانه عمّا تقوله المنظّمات الدّولية.

و. عندما يحاول البعض الامتناع عن ارتداء قميص القيد الذّهبي الذي فصّلته العولمة.

وعليه: سيكون التدخل مباحا ومتاحا متى ما يتراء للذّات العالمية أن تتدخل في الشؤون الدّاخلية للبلدان والدّول؛ ولهذا كسر القيد بالقيد لا فرق فيه بين أن يكون حديديا أو ذهبيا، إلا أنّ القيد الحديدي القديم الذي في كثير من الأحيان يتعرّض إلى الصّدأ سيتمّ استبداله بالقيد الذّهبي الجديد الذي لا يصدأ[145].

[145] المصدر السابق، ص 85.

تحدّى الصِّعاب تتجاوز الدُّونية:

الدّونية منزلة سُفليَّة لا تليق بأهل العلم ولا أهل المكانة والرّفعة، بل ولا تليق بمن خُلق في أحسن تقويم، ومن أراد أن تكون حياته على الخُلق الرّفيعة وعيًا وتدبّرًا فعليه بكلّ ما يُمكّن من إحداث النُّقلة ارتقاءً إلى ما هو مأمول، وفي مقابل ذلك إن لم يحسن الإنسان إدارة شؤونه فليس له إلّا الانحدار، فآدم عليه السلام الذي خُلق في العليّة عندما أخفق في إدارة نفسه انحدر إلى سُفلية غير متوقعة، وهناك في دائرة غير المتوقّع واجهته المفاجأة؛ بعد ما انحدر معصية مع انحدار شهوته ورغبته؛ التي جعلته على الهبوط إلى الحياة الدّنيا بعد أن كان في السّماء قمّة.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل خُلق آدم على الارتقاء خلقا، أم أنّه جُعل عليه جعلا؟

أقول:

لو جُعل آدم على الارتقاء جعلا، لكان الارتقاء مستقلّا عنه وسابقا عليه؛ ولأنّه لا سابق على آدم ارتقاءً فهو المخلوق عليه خلقا قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[146]، ولأنّه خُلق على الارتقاء خلقا، قال (في أحسن تقويم)، وفي المقابل لو كان آدم قد جُعل على الارتقاء جعلا لقال تعالى: (على أحسن تقويم) وهو المأمول غير المتحقّق في ذات آدم خلقا، وهذا ما يخالف دلالة الحُسن التي خُلق منها آدم خلقا.

---

[146] التين 4.

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه انحدر إرادة ومعصية، فكان في سُفلية ودونية أمام خالقه: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[147]، ومع ذلك استغفر آدم ربَّه تحدٍّ لما أوقعه في ارتكاب الخطيئة فتاب الله عليه، ومن هنا، فتح الله باب التوبة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصّالحات: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[148].

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفلية؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعد هينا؛ حيث لا عودة إلّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أملَ آدم بعد أن كانت بين يديه.

ولأنّ العمل ارتقاءً يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه فهم بين هذا وذاك بين ارتقاءً فيه العمل يُتقن، ودُونية بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب؛ ولذلك كان الصّدق ارتقاءً في مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاءً في مواجهة الظّلم انحدارا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحرّيّة في مواجهة الاستعباد، والدّيمقراطية في مواجهة الدّكتاتورية، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب تحدّي الصِّعاب بما يُمكّن من الارتقاء قمّة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاءً ودونية فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالعمل الصّالح ارتقاءً لا يكون إلّا عملًا منتجا ومتقنا ومبدعا ومرسّخا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة لا يكونان

---

[147] التين 5.

[148] التين 6.

إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسؤولية ارتقاءً ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُفلية والدّونية التي تتمركز على الأنا.

ولهذا؛ فالارتقاء لا يمكن أن يبلغه بنو آدم إلّا عدلا وعملًا وعفوا وصفحا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلّا ظلما وإهمالا وتشدّدا وتطرّفا، ففي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فمن شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاءً وتحدّى الصِّعاب، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليّة ودونيّة.

وعليه:

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قِبل بني آدم أملًا وعملًا، فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه رغبة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاءً.

فبنو آدم خُلقوا على الاختلاف وسيظلون به مختلفين، حتى أهل الوطن الواحد والدّين الواحد واللغة والثقافة الواحدة هم مختلفون قدرات ومواهب واستعدادات وميول واتجاهات، ولهذا؛ فهم مختلفون بصمة، ولا تناسخ بينهم فيما خلقوا عليه خلقا، ولكن بينهم تماثل فيما هم عليه من معرفة وعلم وحضارة واقتصاد وسياسة، وفنون وآداب، ومع ذلك؛ فالاختلاف بينهم لا يلغيه التماثل والتشابه، بل التماثل والتشابه بين بني آدم يؤكّد وجود الاختلاف بلا لبس ولا غموض.

ولأنّه الاختلاف؛ فهو المحفّز على البقاء تنوّعا، وهو المحفّز على التغيير الممكّن من التّعاون والنّهوض ارتقاءً؛ فبنو آدم ارتقاءً يعلمون أنّهم لم يجدوا أنفسهم خلقا، بل خَلقَهم من هو أعظم منهم، فهم يعلمون أنّهم قبل الخَلق لم يكونوا شيئا يُذكر، ثمّ أصبحوا شيئا مذكورا؛ فهم يعلمون أنّ مشيئة من ورائهم هي التي أرادت لهم خَلقا، ولهذا؛ فهم يدركون أنّهم قبل الخَلق لم يبلغوا مستوى الوجود الصّفري قيمة، ولكن مشيئة الخالق شاءت لهم أن يكونوا شيئا فكانوا شيئا وفي أحسن تقويم: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[149].

فبنو آدم لكونهم شيئا مذكورا يدركون مشيئة شاءت لهم أن يكونوا خَلقا وفقًا لمشيئة هم لا يعلمونها؛ ذلك لأنّ المشيء وحده يعلم مشيئة خَلقه، أمّا المخلوق ارتقاءً؛ فلا يدرك إلّا وجوده مخلوقًا. ومع ذلك فهناك من يرى الوجود الكوني مخلوقًا من غير خالق، وهنا تكمن العلّة المعرفية بين من يدرك أنّه لا مشيئة لمخلوق في خَلقه، ومن لا يدرك ذلك بقوله: إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ولأنّ بني آدم بين الارتقاء والدّونية؛ فهم مختلفون رؤية ومعرفة وعلمًا، ولهذا؛ فهم بين معرفة وعلم يؤدّيان بهم إلى النّهوض قمّة، وجهل يؤدّي بهم إلى الانحدار والدّونية.

ولذلك؛ فالإنسان عندما ينهض يرتقي إلى ما يؤدّي به إلى رتق الأرض بالسّماء، وعندما ينحدر يهوي سُفلية في القاع، أي: عندما يرتقي يجد نفسه وكأنّه يحتوي الإنسانية في نفسه، ولكن عندما ينحدر يصبح عقله أشبه بعقل الحيوان: {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[150].

---

[149] مريم 67.

[150] الأعراف 166.

أي: عندما ينحدر الإنسان ممّا هو عليه من عقل مدبّر، لا شكّ أنّه يقترب إلى عقل القرد الذي هو في دونية إذا ما قورن بعقل من خلقه الله في أحسن تقويم؛ فمثل أولئك المنحدرون قيما هم مثل الحيوان الذي لا يتذكّر فيتّعظ، ولا يتدبّر فيخطط، ولا يفكّر فيرتقي إلى ما يجب أن يكون عليه رفعة، ولهذا؛ فلا يليق بالعقل الإنساني أن يتشبّه سلوكه بالعقل القردي، الذي متى ما انحدر إليه الإنسان أصبح لا فرق بينه ومن هو في دونيّة، {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}[151].

فالإنسان إن لم يُحسن الاختيار ولا أمل له، يجد نفسه في اتجاه السُفليّة والانحدار والدّونية، وإذا امتلك الإنسان الإرادة والأمل يصاحبه تحدٍّ للصِّعاب، تُفتح أمامه السُّبل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ ولهذا إن كانت الإرادة في حالة ضيق أو منعدمة؛ فلا يجد الأمل مجالا للامتداد فكرا ومعرفة، فالفِكْر الإنساني نتاج ما وصل إليه العقل البشري من معارف وعلوم ورؤى أسّس لثقافات وحضارات سادت، ثمّ بادت، ثمّ نهضت حضارات غيرها، وهكذا ستظل الحضارات بين نهوض وارتقاءً، وإبادة وسُفليةٍ، وفقًا لقاعدة الصّراع بين ما يجب وما لا يجب، وستظلّ الحياة البشريّة في دورة من التفاعل بين (ارتقاءً ودونية) حضارات تسود، ثمّ تبيد، ثمّ تنهض حضارات أخرى.

ولذلك عاش الإنسان الأوّل حياة الخلق في أحسن تقويم، ثمّ انحدر سُفليّة؛ فاتّسعت الهوة بينه وتلك المكانة ارتقاءً؛ فكانت الدّونيّة بين يديه سلوكا على غير فضائل ولا قيم حميدة، وكانت الأساطير ترافقه وكأنّها الحلّ في الوقت الذي فيه الخرافة لا علاقة لها بما يحقّق الآمال المحدثة للنُّقْلَة وصانعة المستقبل المزدهر.

[151] المائدة 60.

ومع أنّ القاعدة المنطقية ترى: أنّ الارتقاء أساس الخَلق البشري، ولكن الاستثناء يرى كفّة الانحدار تكاد أن تتعادل مع كفّة الارتقاء، وهنا تكمن العلّة، حيث قلّة الجهد المبذول من قِبل من يأمل ارتقاءً، في مقابل الجهد المبذول من قِبل من تشدّه السُفلية. وهذا الأمر يشير إلى أنّ زمن الصّراع سيطول بين من يأمل رتق الأرض بالسّموات، ومن لا يرها إلّا مُفتقة طباقًا.

والذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني، قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[152].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاءً، وليس للدّونية، ولكن لأنّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا؛ فهما بيد الإنسان رغبة، واختيارا؛ ولذلك ينبغي لبني آدم أن يعملوا كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاءً.

ولهذا؛ فمن تُلهه نفسه شهوة فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونية التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاءً، لو لم ينحدر بداية، لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وخُلقه؛ ولكنّ الغفلة قد أخذته فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي له، ثمّ حاول النّهوض، ولكنّه ما لازال يحاول وهو بين أمل ويأس. أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي تحدٍّ، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزا على حساب الغير.

---

[152] الكهف 88.

ومن ثمّ، ينبغي لبني آدم عند رسم السّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السّعيد قيمة. ولكن إن لم يتحدّوا الصِّعاب ويعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على رصيف الحاجة متسوّلين، وهنا يكمن الانحدار علّة[153].

[153] المصدر السابق، ص 76.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له (138) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا، 2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبيَّاء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبيَّاء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69. من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70. من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71. الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72. تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73. ربيع النَّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74. موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75. أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76. وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77. ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78. العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79. السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاءً)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 ـ مقدّمة الأنبيَّاء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 ـ موسوعة الأنبيَّاء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 ـ آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 ـ إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 ـ نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . الوجود من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . تحدّي الصِّعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 –كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعية (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - التنمية البشريَّة (كيف تتحدّى الصعاب وتصنع مستقبلًا) مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (138) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.